
الأربعون
في
عظمة رب العالمين




محمد صالح المنجد


مجموعة زاد
ZAD GROUP
للنشر


العبيكان
Obekan


الأربعون في عظمة رب العالمين


الأربعون
في
عظمة رب العالمين


محمد صالح المنجد


مجموعة زاد
ZAD GROUP
للنشر

ⓒ **مجموعة زاد للنشر، ١٤٣٩هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

الأربعون في عظمة رب العالمين./ محمد صالح المنجد.-

الرياض، ١٤٣٩هـ

٢٧٢ص. ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٥-٩٦-٨٠٤٧-٦٠٣-٩٧٨

١- الحديث - شرح ٢- الحديث الصحيح

أ. العنوان

ديوي: ٢٣٧,٧ ١٤٣٩/١٢٠٠

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

نشر 

المملكة العربية السعودية - جدة

حي الشاطئ - بيوتات الأعمال - مكتب ١٦

موبايل: ٦٤٣٢ ٤٤٤ ٥٠ ٩٦٦+، هاتف: ٦٩٢٩٢٤٢ ١٢ ٩٦٦+

ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢

www.zadgroup.net

توزيع العبيكان

المملكة العربية السعودية - الرياض

طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧





المحتويات



المقـدّمة

الحَمْـدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ، الذي شَـهِدَتْ لَـهُ بالرُّبوبيَّةِ جَميعُ مَخْلوقاتِـهِ، وَأَقَرَّتْ لَهُ بالإلَهيَّةِ جَميعُ مَصْنوعاتِهِ، وَشَـهِدَتْ بِأَنَّهُ اللهُ الذي لا إلَـهَ إلَّا هوَ، بِما أَوْدَعَها مِنْ عَجائِبِ صَنْعَتِهِ، وَبَدائِعِ آياتِهِ.

وَأَشْـهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورَسولُهُ، صَلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ، وَأَصْحابِهِ، وَسَلَّمَ تَسْليمًا كَثيرًا إلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَرَبُّنـا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبٌّ واحِدٌ، خالِـقٌ، رازِقٌ، حَيٌّ، قَيومٌ، صَمَـدٌ، عَظيمٌ، عَليمٌ، قَديرٌ، حَليمٌ، كَمُلَ في عِلْمِهِ، وحِكْمَتِهِ، وحِلمِهِ، وقُدرتِهِ، وعظَمَتِهِ، ورحْمَتِهِ، وسـائِرِ أوْصافِهِ.

وَهــوَ عَزَّوَجَلَّ «يُدَبِّرُ الأمورَ في العالَمِ العُلويِّ، والسُّـفليِّ، فَيَخلُقُ، ويَرزُقُ، ويُغْني، ويُفْقِـرُ، ويَرفَعُ أقوامًـا، ويضَعُ آخرينَ، ويُعِـزُّ، ويُذِلُّ، ويَخْفِـضُ، ويَرْفَعُ، ويُقيلُ العَثَراتِ، ويُفرِّجُ الكُرُباتِ، ويُنفِذُ الأقدارَ في أوقاتِها التي سَبَقَ بها عِلمُهُ، وجَرَى بها قَلَمُهُ، ويُرسِلُ ملائِكَتَهُ الكِرامَ لتَدْبيرِ ما جَعَلَهُمْ على تَدْبيرِهِ»[(١)].

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

---

(١) تفسير السعدي (ص٤١٢).

وفي الحَديثِ: «**اللَّهُمَّ أَنْـتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دونَكَ شَيْءٌ**»[1].

فهَذِهِ الأَسماءُ تَدُلُّ على تَفرُّدِ الرَّبِّ العَظيمِ بالكَمالِ المُطلَقِ، والإحاطَةِ الزَّمانيَّةِ في قَولِهِ: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾، والإحاطَةِ المَكانيَّةِ في قولِهِ: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾.

فالأَوَّلُ: يَدُلُّ على أنَّ كلَّ ما سِواهُ حادِثٌ كائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، ويوجِبُ للعَبدِ أنْ يلْحَظَ فَضْلَ ربِّهِ في كُلِّ نِعمةٍ دينيَّةٍ، أو دُنيَويَّةٍ؛ إذِ السَّبَبُ والمُسبَّبُ مِنهُ تعالى.

والآخِرُ: يَدُلُّ على أنَّهُ هو الغايَـةُ، والصَّمدُ الذي تَصْمِدُ إليهِ المَخلوقاتُ بِتَأَلُّهِها، وَتَعَبُّدِها، وَرَغْبَتِها، وَرَهْبتِها، وَجَميعِ مَطالِبِها.

والظَّاهِرُ: يَدُلُّ على عَظَمَةِ صِفاتِهِ، واضْمِحْلالِ كُلِّ شَيْءٍ عندَ عَظَمتِهِ مِنْ ذَواتٍ، وَصِفاتٍ، وَيَدُلُّ على عُلوِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والباطِنُ: يَدُلُّ على اطِّلاعِهِ على السَّرائِرِ، والضَّمائِرِ، والخَبايا، والخَفايا، وَدَقائِقِ الأَشْياءِ، كما يَدُلُّ على كَمالِ قُرْبِهِ، وَدُنوِّهِ.

ولا مُنافاةَ بينَ الظَّاهِرِ والباطِنِ؛ لِأنَّ اللهَ لَيـسَ كَمِثلِهِ شَيْءٌ في كُلِّ النُّعوتِ؛ فَهوَ العَليُّ في دُنوِّهِ، القَريبُ في عُلوِّه، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[2].

وهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **العَظيمُ**: ذو العَظَمَةِ والجَلالِ في مُلْكِهِ وسُـلْطانِهِ، له عِظَمُ الشَّأْنِ، وَجَلالَةُ القَدْرِ، يُستحْقَرُ بالنسبَةِ إليهِ كُلُّ ما سِواهُ؛ فلا شَيْءَ أعظَمُ مِنْهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهوَ المُعَظَّمُ الذي تُجِلُّهُ المَخْلوقاتُ، وتُعَظِّمُهُ، وتُسَـبِّحُهُ، وتُقَدِّسُهُ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) الحق الواضح المبين للسعدي (ص٢٥).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَطَّتِ**(١) **السَّماءُ، وَحُقَّ لَها أَنْ تَئِطَّ، ما فيها مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصابعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ واضِعٌ جَبْهَتَهُ ساجِدًا للهِ**»(٢).

وَمِنْ عَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أَنَّ السَّمواتِ والأَرْضَ في كَفِّ الرَّحْمَنِ أَصْغَرُ مِنَ الخَرْدَلَةِ، كما قال ابْنُ عبَّاسٍ: «ما السَّمواتُ السَّبعُ، والأرضونَ السَّبْعُ، وما فيهِما، في يدِ اللهِ، إِلَّا كخَرْدَلَةٍ في يدِ أحدِكُمْ»(٣).

قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَلْ قَوْلُهم(٤) **إِنَّ السَّمواتِ العُلَى في كَفِّ خالِقِ هَذِهِ الأَكْوانِ**
حَقًّا كخَرْدَلَةٍ تُرى في كَفِّ مُمْسِكِها، تعالى اللهُ ذو السُّلْطانِ(٥)

ومِنْ عظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أَنَّ الأرضَ جَميعًا بما فيها مِنْ بِحارٍ، وأنْهارٍ، وَجبالٍ، تَكونُ في قَبضَتِهِ يومَ القيامَةِ، والسَّماواتِ مَطْوياتٌ بيمينِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

وَفي الحديثِ: «**يَطْوي اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **السَّماواتِ يَوْمَ القيامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقولُ: أَنا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارونَ؟ أَيْنَ المُتكَبِّرونَ؟ ثُمَّ يَطْوي الأَرَضينَ بِشِمالِهِ، ثُمَّ يَقولُ: أَنا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارونَ؟ أَيْنَ المُتكَبِّرونَ؟**»(٦).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١].

---

(١) صوَّتت.

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١١٢٧).

(٣) تفسير الطبري (٢١/ ٣٢٤)، السنة لعبد الله بن أحمد (٢/ ٤٧٦).

(٤) يعني: قول أهل السنة.

(٥) القصيدة النونية (ص١٤٥).

(٦) رواه البخاري (٧٤١٢) مختصرًا، ومسلم (٢٧٨٨).

وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي الحَديثِ: «**ما السَّماواتُ السَّبْعُ في الكُرْسيِّ إلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقاةٍ في أَرْضِ فَلاةٍ، وَفَضلُ العَرْشِ على الكُرْسيِّ كَفَضْلِ الفَلاةِ على تِلْكَ الحَلْقَةِ**»(١).

فإذا كانَتْ هذِهِ عَظَمة الكُرْسيِّ، والعَـرْشِ، فكَيفَ بعَظَمةِ اللهِ وهوَ: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]؟!

وَهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العَظيمُ الذي تَخْشَعُ لعَظَمَتِه القُلوبُ، والأَبْدانُ، والأَرْواحُ، وقَدْ كانَ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رَكَعَ في صلاتِهِ قال: «**اللهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، أَنْتَ رَبِّي، خَشَعَ سَمْعي، وَبَصَري، وَمُخِّي، وَعَظْمي، وَعَصَبي، وَما اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمي، للهِ رَبِّ العالَمِينَ**»(٢).

لَكَ الحَمْدُ والنَّعْماءُ والمُلْكُ رَبَّنا ... فَلا شَيْءَ أَعْلَى مِنْكَ جَدًّا وَأَمْجَدُ

مَليكٌ على عَرْشِ السَّماءِ مُهَيْمِنٌ ... لِعِزَّتِهِ تَعْنو الجِباهُ وَتَسْجُدُ

تُسَبِّحُهُ الطَّيْرُ الكَوامِنُ في الخَفا ... وَإِذْ هِيَ في جَوِّ السَّماءِ تَصَعَّدُ

وَمِنْ خَوْفِ رَبِّي سَبَّحَ الرَّعْدُ حَمْدَهُ ... وَسَبَّحَهُ الأَشْجارُ والوَحْشُ أُبَّدُ

وفي هذا الكِتابِ جمع لأَرْبَعينَ حَديثًا في عَظَمَةِ اللهِ رَبِّ العالَمِينَ بِالشَّرْحِ، والبَيانِ، سائِلينَ اللهَ تَعالَى أَنْ يَنفَعَ بِهِ، وَيدْفَعَ بِهِ.

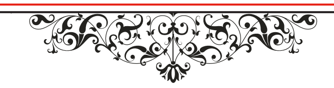


(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦١)، وهو حديث مختلف فيه، وسيأتي.

(٢) رواه مسلم (٧٧١)، والإمام أحمد (٩٦٠) واللفظ له.



الحديث الأول



عن عمرانَ بنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: دَخَلْتُ على النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَقَلْتُ ناقتي بِالْبابِ، فَأَتاهُ ناسٌ مِنْ بَني تَميمٍ فَقال: **«اقْبَلوا البُشْرَى يا بَني تَميمٍ»**، قالوا: قَدْ بَشَّرْتَنا فَأَعْطِنا، مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ ناسٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ، فَقال: **«اقْبَلوا البُشْرَى يا أَهْلَ اليَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْها بَنو تَميمٍ»**، قالوا: قَدْ قَبِلْنا يا رَسولَ اللَّهِ، قالوا: جِئْناكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هذا الأَمْرِ؟ قال: **«كانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكانَ عَرْشُهُ على الماءِ، وَكَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ»**، فَنادَى مُنادٍ: ذَهَبَتْ ناقَتُكَ يا ابْنَ الحُصَيْنِ، فانْطَلَقْتُ، فَإِذا هيَ يَقْطَعُ دونَها السَّرابُ، فَواللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُها[١].

جاءَ أهلُ اليَمَنِ إلى رسولِ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسألونَهُ عَنْ أوَّلِ هذا الأمرِ، يَعْني: أَمْرَ الخَلْقِ، وَبِدايَةَ العالَمِ.

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ»**.

وَفي روايةٍ: **«كانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»**[٢].

وفي روايةٍ: **«كانَ اللّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ»**[٣].

(١) رواه البخاري (٣١٩١).
(٢) رواه البخاري (٧٤١٨).
(٣) رواه الإمام أحمد (١٩٨٧٦)، وصحَّحه محقِّقو المسند.



ومعناهُ: أنَّـهُ تعالى هوَ الأوَّلُ قبلَ كلِّ شيءٍ، الذي لا يُتصَـوَّر لأوَّليَّتهِ مَبْدَأٌ حتَّى يُمْكِن أن يُتَصَوَّرَ قبلَهُ شَيءٌ، بَلْ هو الأوَّلُ بِلا بِدايَةٍ، كما أنَّه الآخِرُ بِلا نِهايَةٍ.

فما مِنْ غايةٍ يُقَدِّرُها العَقْلُ إلا وأَزَليَّتُه تعالى قبلَها، بِلا غايَةٍ محدودَةٍ.

و«الأَزَلُ» مَعناهُ عَدمُ الأوليَّةِ، فليسَ «الأَزَلُ» شيئًا محدودًا[١].

وَقَدْ رويَ في الحَديثِ: أنَّ رَسـولَ الله ﷺ سُـئِلَ: أيْـنَ كانَ رَبُّنا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ فقال: «**كانَ في عَماءٍ**[٢]**، ما تَحْتَهُ هَواءٌ، وَما فَوْقَهُ هَواءٌ، وَخَلَقَ عَرْشَهُ على الماءِ**»[٣].

وَهذا كَقولِهِ ﷺ: «**أَنْـتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَـكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ**»[٤].

فَفيهِ دَلالَةٌ على أَوَّليَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأَنَّهُ قَبْلَ كلِّ شيءٍ، وَأَبَديَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبَقائِهِ بعدَ كُلِّ شَيءٍ.

فالأَوَّلُ: يَدُلُّ على أنَّ كلَّ ما سِواهُ حادِثٌ كائِنٌ بعدَ أنْ لَمْ يكُنْ، ويوجِبُ للعبدِ أن يَلْحَظ فَضْلَ ربِّهِ في كلِّ نِعْمةٍ دينيَّةٍ، أو دُنيويَّةٍ؛ إذِ السَّبَبُ والمُسَبَّبُ منهُ تعالى.

والآخِرُ: يدُلُّ على أنَّهُ هوَ الغايَـةُ، والصَّمَدُ الذي تَصْمِدُ إليهِ المَخلوقاتُ بِتَأَلُّهِها، وتعبُّدِها، ورَغبَتِها، ورَهْبَتِها وَجَميعِ مَطالِبِها[٥].

وقَوْلُهُ ﷺ: **«وَكانَ عَرْشُهُ على الماءِ... وَخَلَقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ»**:

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٣٨٣).

(٢) ليس معه شيء.

(٣) رواه الترمذي (٣١٠٩)، وضعَّفه الألباني.

(٤) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٥) الحقُّ الواضح المبين للسعدي (ص٢٥)، فقه الأدعية لعبد الرَّزَّاق البدر (٣/ ٧٤).

أي: وقْتَ خَلْقِ السَّماواتِ والأَرْضِ كانَ عَرشُهُ على الماءِ، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود: ٧].

وَفيــهِ دليلٌ على: أنَّ خَلقَ العَرشِ ســابِقٌ على خَلقِ السَّــماواتِ، والأَرْضِ، وأنَّ العَرشَ كانَ على الماءِ عندَ ابتِداءِ خَلْقِ السَّمواتِ، والأَرضِ.

وهذا يَدُلُّ على أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وأنَّ كلَّ مَخلوقٍ مُحْدَثٌ كائنٌ بَعدَ أنْ لَمْ يَكُنْ، معَ أنَّه تعالى لَمْ يَزَلْ بِصِفاتِهِ خالِقًا فَعَّالًا لِما يُرِيدُ.

والخَلْقُ مِنْ صِفاتِ الكَمالِ، كــما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧]، فلا يَجوزُ أنْ ينفَكَّ عنْ هذِهِ الصِّفةِ، ولكِنْ كُلُّ مَخلوقٍ مُحْدَثٌ مَسْــبوقٌ بِالعَدَمِ، وليسَ مَعَ اللهِ شَيءٌ قديمٌ، ولا شَــكَّ أنَّ هذا أَبلَغُ في الكمالِ مِنْ أنْ يكونَ مُعطَّلًا غيرَ قادرٍ على الفِعلِ(١).

قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢].

«فَكُلُّ ما سِــواهُ تَعالَى فَهوَ مَخْلوقٌ لَهُ، مَرْبوبٌ مُدَبَّرٌ، مُكَوَّنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، مُحْدَثٌ بَعْدَ عَدَمِهِ، فالعَرْشُ الذي هوَ سَــقْفُ المَخلوقــاتِ إِلَى ما تَحْتَ الثَّرَى، وَما بَيْنَ ذَلِكَ مِــنْ جامِدٍ، وَناطِقٍ، الجَميعُ خَلْقُهُ، وَمِلْكُهُ، وَعَبيدُهُ، وَتَحْــتَ قَهْرِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَتَحْتَ تَصْرِيفِهِ، وَمَشيئَتِهِ»(٢).

وقولُــهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَكَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شَــيْءٍ، وَخَلَقَ السَّــمَواتِ، والأَرْضَ»:**

أُضيفَتْ الكتابَةُ هنا إلى اللهِ تعالى، ولا يلزَمُ منْها أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باشَرَ الكتابَةَ بِنَفسِهِ، بَلْ يَجوزُ أَنْ يأمُرَ بذلكَ مَن يَشاءُ.

---

(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣٨٤).

(٢) البداية والنهاية (١/ ١١).

و«الذِّكْرُ» هنا هوَ محَلُّ الكِتابَةِ، وهو اللَّوحُ المَحفوظُ.

والمُرادُ: أنَّهُ تعالى كَتَبَ كُلَّ ما أرادَ إيجادَهُ مِنْ تِلكَ السَّاعَةِ التي جَرَتْ فيها الكتابَةُ إلى قيامِ السَّاعَةِ(١).

كما في الحَديثِ: «**إِنَّ أَوَلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فقال: اكتُبْ، فَقال: ماَ أَكْتُب؟ قال: اكتُب القَدَرَ، ما كانَ، وَما هوَ كائِنٌ إلى الأَبَدِ**»(٢).

وفي روايةٍ: «**إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، ثُمَّ قال: اكْتُبْ، فَجَرَى في تِلْكَ السَّاعَةِ بِما هوَ كائِنٌ إلَى يَوْمِ القيامَةِ**»(٣).

وفيهِ دَليلٌ على: أنَّ خَلقَ العَرشِ سابِقٌ على خَلْقِ القَلَمِ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].



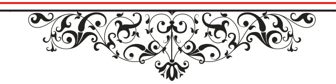
(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣٨٦).

(٢) رواه الترمذي (٢١٥٥)، وهو في صحيح الجامع (٢٠١٧).

(٣) رواه الإمام أحمد (٢٢٧٠٥)، وحسَّن إسنادَه محقِّقو المسند.



الحديث الثاني



عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العاصِ، قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقولُ: **«كَتَبَ اللّهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السَّماواتِ، والأَرْضَ، بِخَمْسينَ أَلْفَ سَنَةٍ»** قال: **«وَعَرْشُهُ على الماءِ»**[١].

الإيمانُ بالقَدَرِ مِنْ أركانِ الإيمانِ السِّتَّةِ التي لا يَتمُّ إيمانُ العَبدِ إلَّا بها، وهيَ التي جاءتْ في حَديثِ جِبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **«فَأَخْبِرْني عَنِ الْإيمانِ»**، قال: **«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللّهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، والْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ، وَشَرِّهِ»**[٢].

والإيمانُ بالقَدَرِ لا يَتِمُّ إلَّا بالإيمانِ بمَراتبِهِ، وأركانِهِ الأَرْبعةِ، وهيَ: العِلْمُ، والكتابَةُ، والمَشيئةُ، والخَلْقُ، عِلْمُ الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالأشياءِ قَبْلَ كونها، وكِتابتُهُ لها قبلَ كَوْنِها، ومشيئَتُهُ لَها، وخَلْقُهُ لَها[٣].

١ . الإيمانُ بعِلمِ اللهِ الأزَلِيِّ بالأشياءِ قَبْلَ كَونِها: وأَنَّهُ أحاطَ بكُلِّ شيءٍ عِلْمًا، وأَنَّه عَلِمَ ما كانَ، وما يَكونُ، وما سَيَكونُ، وما لَمْ يَكُنْ لوْ كانَ كَيفَ يَكونُ، «جُملةً، وتفصيلًا، وأَنَّه عَلِمَ ما الخلقُ عامِلونَ قَبْلَ خلقِهِم، وعَلِمَ أَرزاقَهم،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) رواه مسلم (٨).

(٣) شفاء العليل لابن القيِّم (ص٢٩).



وآجالَهُم، وأعمالَهُم، وحركاتِهِم، وسَكَناتِهِم، وعَلِمَ منهُمُ الشَّقيَّ، والسَّعيدَ، وذلكَ بعِلْمِهِ القديمِ الذي هوَ موصوفٌ بهِ أَزَلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥]»[١]، وقال: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

٢. الإيمانُ بالكِتابَةِ، وأنَّ كلَّ شيءٍ كُتِبَ في اللَّوحِ المَحفوظِ قَبْلَ كَوْنِهِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ[٢] ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ[٣]﴾ [القمر: ٢٥-٣٥]، وقال: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ٢١].

وهذا ما دَلَّ عليهِ هذا الحَديثُ: «كَتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السَّماواتِ، والأَرْضَ، بِخَمْسينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

قال العُلماءُ: المُرادُ: تَحديدُ وقتِ الكِتابَةِ في اللَّوحِ المَحفوظِ[٤].

فاللهُ تعالى أجرَى القَلَمَ على اللَّوحِ المحفوظِ؛ ليَكتُبَ مَقاديرَ الخَلائِقِ، ما كانَ، وما هوَ كائِنٌ إلى الأبَدِ، على وَفقِ ما سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللهِ تعالى، وإرادَتُهُ، ومشيئتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَزَلًا[٥].

كما في الحَديثِ المُتقدِّمِ: «**إنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فقال: اكتبْ، فَقال: ما أَكْتُبُ؟ قال: اكتب القَدَر، ما كانَ، وَما هوَ كائِنٌ إلى الأَبَد**»[٦].

فنُؤمِنُ «بأَنَّ اللهَ كَتَبَ ما سَبَقَ بِهِ عِلْمُه مِنْ مقاديرِ المَخلوقاتِ في اللَّوْحِ المَحفوظِ، وهوَ الكِتابُ الذي لَمْ يُفرِّطْ فيهِ مِنْ شَيْءٍ؛ فَكلُّ ما جَرَى، وما يَجْري، وكلُّ كائِنٍ إلى

(١) الوجيز في عقيدة السلف الصالح لعبد الله الأثري (ص٩٤).
(٢) اللوح المحفوظ، وقيل: كتب الحَفَظة.
(٣) مستطر: مكتوب.
(٤) المُفهِم للقرطبي (٦/ ٦٦٨)، وشرح النووي على مسلم (١٦/ ٢٠٣).
(٥) مرقاة المفاتيح (١/ ١٤٧).
(٦) رواه الترمذي (٢١٥٥)، وهو في صحيح الجامع (٢٠١٧).

يومِ القيامَةِ، فهوَ مَكتوبٌ عندَ اللهِ تعالى في أُمِّ الكِتابِ، ويُسَمَّى: الذِّكْرُ، والإِمامُ، والكِتابُ المُبينُ»(١).

يَقولُ الشَّيخُ ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمانُ بالقَدَرِ: أنْ تؤمِنَ بتقديرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِلأشيْاءِ كُلِّها، سَواء ما يتعَلَّقُ بفِعْلِهِ، أو ما يَتعَلَّقُ بفِعلِ غيرِهِ، وأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قدَّرَها، وكتبَها عندَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّماواتِ، والأرضَ، بخَمْسينَ ألفَ سَنَةٍ، ومَعلومٌ أنَّه لا كِتابَةَ إلَّا بَعدَ عِلْمٍ، فالعِلمُ سابِقٌ على الكِتابَةِ.

ثُمَّ إنَّهُ لَيسَ كُلُّ مَعلومٍ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَكتوبًا؛ لِأنَّ الذي كُتِبَ إلى يومِ القيامَةِ، وهُناكَ أشياءُ بَعْدَ يومِ القيامَةِ كَثيرَةٌ أكثَرُ مِمَّا في الدُّنيا، هيَ معلومَةٌ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّهُ لَمْ يَرِدْ في الكِتابِ، والسُّنَّةِ، أنَّها مَكتوبَةٌ»(٢).

فَفي إحدَى رِواياتِ الحَديثِ: «إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، ثُمَّ قال: اكْتُبْ، فَجَرَى في تِلْكَ السَّاعَةِ بِما هوَ كائِنٌ إِلَى يَوْمِ القيامَةِ»(٣).

٣. الإيمانُ بالإرادَةِ والمَشيئَةِ:

فَنُؤمِنُ بأنَّ «كلَّ ما يَجري في هذا الكَونِ فهوَ بإِرادَةِ اللهِ، ومشيئَتِهِ، الدائِرَةِ بينَ الرَّحمَةِ، والحِكمَةِ، يَهْدي مَن يشاءُ برحمَتِهِ، ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ بِحِكمَتِهِ، لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفعلُ؛ لِكَمالِ حِكْمَتِهِ، وسُلطانِهِ، وَهُمْ يُسْأَلونَ.

وما وَقَعَ مِنْ ذلكَ فَإِنَّهُ مُطابِقٌ لِعِلْمِهِ السَّابِقِ المكتوبِ في اللَّوحِ المَحفوظِ؛ فمَشيئَةُ اللهِ نافِذَةٌ، وَقُدرتُهُ شامِلَةٌ، ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ فلا يَخْرُجُ عَنْ إرادَتِهِ شَيْءٌ، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]»(٤).

---

(١) الوجيز (ص٩٥).

(٢) القول المفيد (٢/ ٤١٣).

(٣) رواه الإمام أحمد (٢٢٧٠٥)، وحسّن إسنادَه محقِّقو المسند.

(٤) الوجيز (ص٩٥).

٤. الإيمانُ بالإيجادِ والخَلْقِ:

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

فنُؤمِنُ «بأنَّ اللهَ خالقُ كلِّ شيءٍ، لا خالقَ غيرُهُ، ولا ربَّ سِواهُ، وأَنَّ كلَّ ما سِواهُ مخلوقٌ؛ فهو خالِقُ كلِّ عاملٍ وعمَلِهِ، وكُلِّ مُتحرِّكٍ، وحَرَكَتِهِ، وأَنَّ كلَّ ما يَجري مِنْ خيرٍ، وشرٍّ، وكُفرٍ، وإيمانٍ، وطاعَةٍ، ومَعصيةٍ، شاءَهُ اللهُ، وقَدَّرَه، وخلقَهُ»[١].

ونؤمِنُ بأنَّ «هذهِ المَراتبَ الأَربعَ شامِلَةٌ لِما يكونُ مِنَ اللهِ تعالى نفسِهِ، ولِما يكونُ مِنَ العِبادِ؛ فكُلُّ ما يَقومُ بِهِ العبادُ مِنْ أقوالٍ، أو أفْعالٍ، أو تُروكٍ، فهيَ مَعلومَةٌ للهِ تعالى، مَكتوبَةٌ عِندَهُ، واللهُ تعالى قد شاءَها، وخَلَقَها: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، ولَكِنَّنا مع ذلكَ نُؤمِنُ بأنَّ اللهَ تعالى جَعلَ للعبدِ اختيارًا، وقُدرةً، بهِما يكونُ الفِعلُ»[٢].

فليسَ في كتابَةِ اللهِ تعالى، وتقديرِهِ كلَّ شَيءٍ قَبْلَ وجودِهِ، مُنافاةٌ لمشيئَةِ الإنسانِ، واختيارِهِ، كما يَتَوهَّمُهُ بعضُ النَّاسُ؛ لِأنَّ اللهَ تعالى كَتَبَ عِلْمَه بما يَعْمَلُهُ هذا المَخلوقُ، وما يترَتَّبُ على عَمَلِهِ، ولَمْ يُجْبِرْهُ على فِعلِ المَعاصي، بَلْ نَهاهُ عنها، وَزَجرَهُ، وَحَذَّرَهُ مِنْ فِعْلِها، وتَوَعَّدَهُ على ذَلِكَ، وخَلَّى بينَهُ وبيْنَ نفْسِهِ؛ ليخْتارَ ما يُريدُ، مِنْ غيرِ إكراهٍ، وإِلزامٍ[٣].

---

(١) الوجيز (ص٩٦).

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة لابن عثيمين (ص٢٨).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (٢/ ٢١٩).

فمِنْ كمالِ عِلْمِ اللهِ تعالى، وعَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أنَّه يَعلَمُ ما في السَّمواتِ، والأَرضِ، وأنَّه مُحيطٌ بما في السَّمواتِ، وما في الأَرضِ، فلا يَعزُبُ عنهُ مِثقالُ ذرَّةٍ، ولا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، ولا أكْبَرَ، وأنَّه تعالى عَلِمَ الكائناتِ كلَّها قَبْلَ وُجودِها، وكتَبَ ذلكَ في اللَّوحِ المَحفوظِ.

كما قال تعـــالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وهذا مِنْ تَمامِ عِلْمِهِ تعالى: أنَّه عَلِمَ الأشياءَ قَبْلَ كَونِها، وقدَّرَها، وكتبَها أيضًا، فما العِبادُ عامِلونَ قَدْ عَلِمَه تعالى قَبْلَ ذَلِكَ، على الوَجهِ الذي يَفعلونَهُ، فَيَعْلَمُ قَبْلَ الخَلقِ أنَّ هذا يُطيعُ باخْتيارِهِ، وهذا يعْصي باختيارِهِ، وكتَبَ ذلِكَ عِندَهُ، وأحاطَ بكلِّ شَيءٍ عِلْمًا، وهوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ، يَسيرٌ لَدَيْهِ؛ ولِهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَعَرْشُهُ على الماءِ»:**

أي: قَبْلَ خَلقِ السَّماواتِ، والأَرضِ[1].

وفيهِ دَليلٌ على: أنَّ خَلقَ العَرشِ سـابِقٌ عـلى خَلْقِ القَلَمِ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

فَهـوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كتَبَ مَقاديرَ الخَلقِ حينَ كانَ عَرشُـهُ على المـاءِ، قَبْلَ أنْ يَخلُقَ السَّماواتِ، والأَرْضَ، بخَمْسينَ ألفَ سَنَةٍ.

---

(١) المُفهِم للقرطبي (٦/ ٦٦٨)، وشرح النووي على مسلم (١٦/ ٢٠٣).

وَكتابَةُ القلَمِ لِلقَدَرِ كانَ في السَّاعةِ التي خُلِقَ فيها؛ كما في الحَديثِ: «**إنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، ثُمَّ قال: اكْتُبْ، فَجَرَى في تِلْكَ السَّاعَةِ بِما هوَ كائِنٌ إِلَى يَوْمِ القيامَةِ**»[١].



(١) رواه الإمام أحمد (٢٢٧٠٥)، وحسَّن إسنادَه محقِّقو المسند. وانظر: الصفدية (٢/ ٧٨)، وبغية المرتاد لابن تيميَّة (ص٢٩٤)، وشفاء العليل لابن القيِّم (ص٦)، والعرش للذهبي (١/ ٣٠٠).



الحديث الثالث



عَنْ جُبَيرِ بنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ في المَغْرِبِ بِـ «الطُّور»، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، قال: «كادَ قَلْبي أَنْ يَطيرَ»[١].

وفي روايةٍ: «سَمِعْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ في المَغْرِبِ بِـ «الطُّورِ»، وَذَلِكَ أَوَّلَ ما وَقَرَ الإيمانُ في قَلْبي»[٢].

قَدِمَ جُبيرُ بنُ مُطْعِمٍ المدينةَ بَعدَ وَقعةِ بَدْرٍ، يَطلُبُ فِداءَ أُسارَى بَدْرٍ، وكانَ إِذْ ذاكَ مُشْرِكًا على دينِ قَوْمِهِ، فسَمِعَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقرأُ سورَةَ «الطُّورِ» في صلاةِ المَغرِبِ، فسَمِعَ منهُ هذِهِ الآياتِ، فأثَّرَتْ فيهِ تأثيرًا بَليغًا مَعَ أنَّه مُشرِكٌ مُصِرٌّ على الكُفرِ، وكانَ سَماعُ هذِهِ الآياتِ هوَ سَبَبَ هِدايتِهِ، ودخولِهِ الإسلامَ بَعدَ ذلِكَ[٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٥٤).

(٢) رواه البخاري (٤٠٢٣).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٦٤، ٧/ ٤٣٧)، فتح الباري (٢/ ٢٤٨).



وقَدْ جـاءَ في بَعضِ رِواياتِ الحَديـثِ: «**فَكَأَنَّما صُدِعَ عَنْ قَلْبي حينَ سَـمِعْتُ القُرْآنَ**»(١).

وهَذِهِ الآياتُ التي سَـمِعَها جُبيرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ قَوارِعِ القُرآنِ، التي انزَعَجَ لها جُبَيْرٌ لَمَّا سَمِعَها؛ لِأَنَّه فَهِمَ مَعناها، وعَرَفَ ما تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الحُجَّةِ البالِغَة التي لا تُقاوَمُ.

وَهيَ كافيةٌ لِمَن عندَه عَقْلٌ في الدَّلالَةِ على وجودِ اللهِ، ووحدانيَّتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَفيها: اسـتِدلالٌ عليهِمْ بأمْرٍ لا يُمكِنُهُم فيهِ إلَّا التَّسليمُ لِلحَقِّ، أَوِ الخُروجُ عَنْ موجِبِ العَقلِ، والدِّينِ.

وَبَيانُ ذَلِكَ: أنَّهُم مُنكِرونَ لِتوحيدِ اللهِ، مُكَذِّبونَ لِرَسولِهِ، وذَلِكَ مُستلْزِمٌ لإنكارِ أنَّ اللهَ خَلَقَهُم.

وَقَد تَقَرَّرَ في العَقلِ مَعَ الشَّرعِ: أنَّ الأَمْرَ لا يَخلو مِنْ أحدِ ثَلاثَةِ أُمورٍ:

إمَّا أنَّهُـم خُلِقوا مِنْ غَيْرِ شَيءٍ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أيْ: لا خالِقَ خَلَقَهم، بَلْ وُجِدوا مِنْ غَيرِ إيجادٍ، ولا موجِدٍ.

وهذا عَيْنُ المُحالِ، ومِمَّا لا يَجوزُ أنْ يَكونَ؛ لِأنَّ تَعَلُّقَ الخَلْقِ بالخالِقِ مِنْ ضَرورةِ الِاسمِ، فَإِنْ أنكَروا الخالقَ لَمْ يَجُزْ أنْ يوجَدوا بِلا خالِقٍ.

أَو هُمُ الخالِقونَ لِأنفُسِهِم ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ وَهذا أيضًا مُحالٌ، وفي البُطلانِ أَشَدُّ؛ فَإنَّه لا يُتَصَوَّرُ أنْ يوجِدوا أنفُسَهُم، وما لا وُجودَ لَهُ كيفَ يَخْلُقُ؟!

وَهُـمْ يعلَمونَ أنَّهُم لَمْ يكونوا مِنْ غَيرِ مُكَوِّنٍ، ويعلَمونَ أنَّهُمْ لَمْ يَخلُقوا أنفسَـهُم، وعِلْمُهُم بِحُكمِ أنفُسِـهِم مَعلومٌ بالفِطْرةِ بِنَفسِـهِ، لا يَحتاجُ أنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيهِ: بِأنَّ كلَّ كائِنٍ مُحْدَثٍ لا يوجَدُ بِنَفسِهِ، ولا يوجَدُ مِنْ غَيرِ موجِدٍ.

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٦٧٦٢)، وضعَّفه محقِّقو المسند.

فَإذا بَطَلَ هذانِ الأمرانِ، وَبانَ استِحالتُهما؛ قامَتِ الحُجَّةُ عليهِمْ، وتَعَيَّن القِسمُ الثَّالثُ: أنَّ اللهَ هو الذي خَلَقَهُم.

فالمعنى: أوُجِدوا مِنْ غيرِ موجِدٍ؟ أمْ هُمْ أَوْجَدوا أنفُسَهُم؟ أيْ: لا هذا، ولا هذا، بلِ اللهُ هوَ الذي خلقَهُم، وأنْشَأَهُمْ بعدَ أنْ لمْ يكونوا شَيْئًا مَذكورًا.

وَإذا تَعيَّنَ ذَلكَ؛ عُلِمَ أنَّ اللهَ تعالى هوَ المعبودُ وَحْدَهُ، الذي لا تَنْبَغي العِبادةُ، ولا تَصْلُحُ إلَّا لَهُ تعالى، فَلْيُؤْمِنوا بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٦]: هذا استِفْهامٌ يدُلُّ على تقريرِ النَّفيِ، أيْ: ما خَلَقوا السَّماواتِ، والأَرْضَ، فَيكونوا هُمُ الخالِقينَ، ويَكونوا شُركاءَ للهِ.

أي: إنْ جازَ لَهُم أَنْ يَدَّعوا خَلْقَ أنفُسِهِم في تِلكَ الحالِ، فَلْيَدَّعوا خَلْقَ السَّماواتِ والأَرْضِ، وَذلكَ لا يُمكِنُهم أَنْ يدَّعوه بوَجْهٍ مِنَ الوُجوهِ، فَقامتِ الحُجَّةُ عليهِمْ.

وَهذا إنكارٌ عليهِمْ في شِرْكِهِمْ باللهِ، وَهُمْ يعلَمونَ أنَّه الخالِقُ وَحْدَه لا شَريكَ لَهُ، وَهذا أمرٌ واضِحٌ جِدًّا، وَلَكِنَّ عدمَ إيقانِهِم هوَ الذي يَحْمِلُهُم على ذلِكَ، فالمُكذِّبونَ ﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦] **أي:** ليسَ عندَهُم عِلمٌ تامٌّ، ويقينٌ يوجِبُ لهم الانتِفاعَ بالأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ، والعَقليَّةِ.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٣٧] **أي:** أَعِنْدَ هؤُلاءِ المُكذِّبينَ خزائِنُ رَحمَةِ ربِّكَ، فيُعْطونَ مَنْ يشاءونَ، ويَمْنَعونَ مَنْ يُريدونَ، ويتَصَرَّفونَ في المُلكِ، وبيَدِهِمْ مَفاتيحُ الخَزائِنِ؟!

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧]: المُحاسِبونَ لِلخَلائِقِ.

أي: فلِذَلِكَ حَجَروا على اللهِ أَنْ يُعْطيَ النُّبوَّةَ عَبْدَه ورَسولَه مُحَمَّدًا ﷺ، وَكأنَّهُمُ الوُكَلاءُ المُفَوَّضونَ على خَزائِنِ رحْمَةِ اللهِ، وهُمْ أحْقرُ وَأَذلُّ مِنْ ذلكَ، فليسَ في أيديهِمْ لِأنفُسِهِمْ نَفعٌ، ولا ضَرٌ، ولا مَوْتٌ، ولا حياةٌ، ولا نُشورٌ.

فلَيــسَ الأمــرُ كذلِكَ؛ بلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هــوَ المالِــكُ المُتَصرِّفُ الفَعَّــالُ لِما يُريدُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى(١).

وَلِــذا قال جُبيرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «كادَ قَلْبي أَنْ يَطيرَ»؛ لِقوَّةِ هــذا الدَّليلِ المُفْحِمِ المُقنِعِ، حتَّى دَخلَ الإيمانُ في قلبِهِ، ثُمَّ اطمَئنَّ في قلبِهِ بعدَ ذلكَ.

لِأنَّ هذِهِ الآياتِ دَليلٌ واضِحٌ عــلى أنَّ الخَلقَ حادِثٌ بَعدَ أنْ لَمْ يَكنْ، وأنَّ الذي أحْدَثَه هوَ اللهُ؛ لِأنَّه لا يُمكِنُ لِأحَدٍ أنْ يَقولُ: أنَّه حادِثٌ مِنْ غَيرِ شَيْءٍ!

إذ إنَّ الدَّليــلَ العَقليَّ يَقتَضي أنَّ كُلَّ حادِثٍ لهُ مُحْدِثٌ؛ لأنَّهُ كانَ عَدَمًا ثمَّ حدَثَ، فلا بُدَّ له مِن مُحْدِثٍ.

وَلا يُمكنُ أنْ يقولَ قائِلٌ: إنَّ الشَّيءَ أَحْدَثَ نفسَهُ بنفسِهِ؛ لِأنَّهُ قَبْلَ الحُدوثِ كانَ عَدَمًا، والعَدَمُ لا يُحْدِثُ شــيئًا، فتَعــيَّنَ الآنَ أنَّ هناكَ مُحْدِثًا ليسَ بِحادِثٍ، وهوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وَهذا مِنَ الأدلَّةِ التي تُسَمَّى بالسَبْرِ والتَّقْسيمِ؛ يعني: أنْ نَحصُرَ الأشياءَ المُمكِنَةَ، ثمَّ نقولُ: أهذا، أو هذا، أو هذا؟ حتَّى نَصِلَ إلى البُرهانِ(٢).

قال الشَّنقيطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «السَّبْرُ والتَّقْسيمُ عِنْدَ الأُصوليِّينَ: يُسْتَعْمَلُ لاسْتِنْباطِ عِلَّةِ الحُكْمِ الشَّرْعيِّ، بِمَسْــلَكِ السَّبْرِ والتَّقْســيمِ، وَضابِطُ هذا المَسْلَكِ عِنْدَ الأُصوليِّينَ أَمْــرانِ، **الأَوَّلُ**: هوَ حَصْرُ أَوْصــافِ الأَصْلِ المَقيسِ عَلَيْهِ، **والثَّــاني**: إِبْطالُ ما لَيْسَ صالِحًا لِلْعِلَّــةِ، فَإِنْ كانَ الحَصْرُ والإِبْطالُ مَعًا قَطْعيَّيْنِ؛ فَهــوَ دَليلٌ قَطْعيٌّ، وَإِنْ كانا ظَنِّيَّيْنِ، أَوْ أَحَدُهُما ظَنِّيًّا؛ فَهوَ دَليلٌ ظَنِّيٌّ، وَمِثالُ ما كانَ الحَصْرُ والإِبْطالُ فيهِ قَطْعيَّيْنِ:

---

(١) أعلام الحديث للخطابي (٣/ ١٩١٣)، تفسير البغوي (٧/ ٣٩٢)، مجموع الفتاوى (٢/ ١١)، تفسير ابن كثير (٧/ ٤٣٧)، الصواعق المرسلة لابن القيِّم (٢/ ٤٩٣)، فتح الباري (٨/ ٦٠٣)، تفسير السعدي (ص٨١٦).

(٢) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام لابن عثيمين (٢/ ٩٠).

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]؛ لِأَنَّ حَصْرَ أَوْصافِ المَحلِّ في الأَقْســامِ الثَّلاثَةِ قَطْعيٌّ لا شَــكَّ فيهِ؛ لِأَنَّهُمْ إِمَّا أَنْ يُخْلَقوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، أَوْ يَخْلُقوا أَنْفُسَــهُمْ، أَوْ يَخْلُقَهُمْ خالِقٌ غَيْرُ أَنْفُســهِمْ، وَلا رابِعَ أَلْبَتَّةَ، وَإِبْطالُ القِسْمَيْنِ الأَوَّلَيْنِ قَطْعيٌّ لا شَــكَّ فيهِ، فَيَتَعَيَّنُ أَنَّ الثَّالِثَ حَقٌّ لا شَكَّ فيهِ، وَقَدْ حُذِفَ في الآيَةِ لِظُهورِهِ، فَدَلالَةُ هذا السَّبْرِ والتَّقْسيمِ على عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ قَطْعيَّةٌ لا شَكَّ فيها»(١).

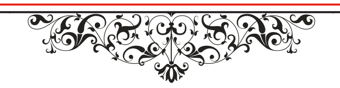


(١) أضواء البيان (٣/ ٤٩٥).





الحديث الرابع



عَـنْ أَنَـسِ بْـنِ مالِـكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قـال: نُهينا أَنْ نَسْـأَلَ رَسـولَ اللَّـهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَـيْءٍ، فَكانَ يُعْجِبُنا أَنْ يَجيءَ الرَّجُلُ مِنَ أَهْلِ البادِيَةِ العاقِلُ، فَيَسْـأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ البادِيَةِ، فَقال:

يا مُحَمَّدُ، أَتانا رَسولُكَ، فَزَعَمَ لَنا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ؟ قال: «**صَدَقَ**».

قال: فَمَنْ خَلَقَ السَّماءَ؟ قال: «**اللّهُ**».

قال: فَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ؟ قال: «**اللّهُ**».

قال: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الجِبالَ، وَجَعَلَ فيها ما جَعَلَ؟ قال: «**اللّهُ**».

قال: فَبِالذي خَلَقَ السَّـماءَ، وَخَلَقَ الأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الجِبالَ، آللَّهُ أَرْسَـلَكَ؟ قال: «**نَعَمْ**»... الحَديثَ[١]، وتمامُهُ:

قال: وَزَعَمَ رَسولُكَ أَنَّ عَلَيْنا خَمْسَ صَلَواتٍ في يَوْمِنا وَلَيْلَتِنا؟ قال: «**صَدَقَ**».

قال: فَبِالذي أَرْسَلَكَ، آللَّهُ أَمَرَكَ بِهذا؟ قال: «**نَعَمْ**».

قال: وَزَعَمَ رَسولُكَ أَنَّ عَلَيْنا زَكاةً في أَمْوالِنا؟ قال: «**صَدَقَ**».

قال: فَبِالذي أَرْسَلَكَ، آللَّهُ أَمَرَكَ بِهذا؟ قال: «**نَعَمْ**».

---

(١) رواه البخاري (٦٣)، ومسلم (١٢) واللفظ له.



قال: وَزَعَمَ رَسولُكَ أَنَّ عَلَيْنا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضانَ في سَنَتِنا؟ قال: «**صَدَقَ**».

قال: فَبِالذي أَرْسَلَكَ، آللَّهُ أَمَرَكَ بِهذا؟ قال: «**نَعَمْ**».

قال: وَزَعَمَ رَسولُكَ أَنَّ عَلَيْنا حَجَّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبيلاً؟ قال: «**صَدَقَ**».

قال: ثُمَّ وَلَّى، قال: والذي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لا أَزيدُ عَلَيْهِنَّ، وَلا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ.

فَقال النَّبيُّ ﷺ: «**لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ**».

هذا الرَّجُلُ هوَ ضِمامُ بنُ ثَعْلَبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكانَ مَعروفًا بحُسْنِ السُّؤالِ، كما قال عمرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما رَأَيْتُ أحَدًا أحسَنَ مَسألةً، ولا أوْجزَ مِنْ ضِمامِ بنِ ثَعْلَبَةَ»[1].

وَقَدْ نَهى اللهُ تعالى عَنْ كثرَةِ سُؤالِ النَّبيِّ ﷺ عنِ الأشياءِ قَبلَ كَونِها، وعَمَّا لا ضَرورةَ إِلَيهِ، ولا فائِدةَ لَهُم في السُّؤالِ، والتَّنقيبِ عنهُ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

أمَّا ما يَحتاجونَ إليهِ فلا مانِعَ منهُ، وهوَ مِنْ سُؤالِ أهلِ الذِّكْرِ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وَلِـذا كانَ يُعْجِبُ الصَّحابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أنْ يأتيَ رَجُلٌ مِنْ أهلِ الباديَةِ، مِمَّنْ لَمْ يَبْلُغْهُ النَّهْيُ عَنِ السُّؤالِ، ويَكون عاقِلًا، فَيَسْأَلَ وهُمْ يَسمَعونَ؛ لِأنَّ العاقلَ أعْرَفُ بِكيفيَّةِ السُّؤالِ، وآدابِهِ، والمُهِمِّ منهُ، وحُسْنِ المُراجعَةِ، فينتَفِعوا بالجَوابِ[2].

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٣٩٥).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٦٩)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٨٠، ٣/ ٢٠٣).

وَقَدِ اكتفَى هذا الرَّجُلُ العاقلُ بأسئِلَةٍ سَهْلَةٍ، يكونُ في جوابِها إثباتٌ لِوجودِ اللهِ تعالى، ووحْدانيَّتِهِ، واستِحْقاقِهِ لِلعبادةِ وحْدَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أيقَنَ بَعْدَها بِصِدْقِه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بما رَأَى وَشاهدَ مِنَ الدَّلائلِ الدَّالَّةِ عليه، كما قال حسَّانُ بنُ ثابتٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ:

لَوْ لَمْ تكُنْ فيهِ آياتٌ مُبيِّنةٌ ... كانت بَديهتُه[١] تأتيكَ بالخَبَرِ[٢]

فَسَألَه مَنْ خَلَقَ السَّماءَ؟ ومَنْ خَلَقَ الأرضَ؟ ومَنْ نَصَبَ الجِبالَ، وجعَلَ فيها ما جَعَلَ مِنَ المنافِعِ، والمَعادِنِ؟ فأجابَهُ: «اللهُ».

قال العُلماءُ: «وهذا مِنْ حُسْنِ سُؤالِ هذا الرَّجُلِ، وَمَلاحَةِ سياقَتِه، وترتيبِهِ؛ فَإِنَّهُ سَأَلَ أَوَّلًا عَنْ صانِعِ المَخْلوقاتِ مَنْ هوَ؟ ثُمَّ أَقْسَمَ عَلَيْهِ بِهِ أَنْ يَصْدُقَهُ في كَوْنه رَسولًا للخالِقِ، ثُمَّ لَمَّا وَقَفَ على رِسالَته وَعِلْمِها؛ أَقْسَمَ عَلَيْهِ بِه، وَهذا تَرْتيبٌ يَفْتَقِر إِلَى عَقْلٍ رَصينٍ»[٣].

وهذا استِدلالٌ بالمَخلوقاتِ على الخالِقِ، وتفكُّرٌ في خَلْقِ الإنسانِ، والأكْوانِ، يدُلُّ على وجودِ اللهِ، ووحْدانيَّتِهِ.

وهوَ مِنَ الأدلَّةِ اليقينيَّةِ على وجودِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعلى وحْدانيَّتِهِ، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

وهذا كما ذَكَّرَهُمُ اللهُ تعالى صُنْعَهُ، وعجائِبَ خَلْقِهِ، وأمرَهُمْ بالنَّظَرِ في مخلوقاتِهِ نَظَرَ اعْتِبارٍ إلى خَلْقِها البَديعِ؛ ليَستدلُّوا بما فيها مِنَ العِبَرِ على قُدرةِ اللهِ، وعَظَمَتِه،

---

(١) مظهره.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٥).

(٣) شرح النووي على مسلم (١/ ١٧١).

ووحدانيَّتِـهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليَعلَمـوا بِقُدرتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذِهِ الأمـورِ أنَّه قادِرٌ على بَعْثِهم يوْمَ القيامَةِ، فَيَسْـتدلُّوا بها على صِحَّةِ ما أَخبَرَ بِهِ مِنْ صِحَّة المَعادِ، والجَزاءِ، والحِسابِ؛ فَقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

فهذِهِ الإبِلُ خَلْقٌ عجيبٌ، وتركيبُها غَريبٌ؛ فإنَّها في غايَةِ القوَّةِ، والشِّـدَّةِ، وهيَ معَ ذلكَ تَلينُ للحِمْلِ الثقيلِ، وتنقادُ للقائِدِ الضَّعيفِ، حتَّى إنَّ الصَّبيَّ الصَّغيرَ يأخُذُ بزِمامِها، فيذْهَبُ بها حَيْثُ شـاءَ! وتُؤكَلُ، ويُنتفَع بوَبَرِهـا، ويُشرَبُ لبنُها، ونُبِّهوا بذَلِكَ؛ لأنَّ العَربَ غالِبُ دوابِّهِم كانَتِ الإبِلَ، وكانتْ أنفَسَ أموالِهِم وأكثرَها.

وهذِهِ السَّماءُ، أفلا ينظُرونَ كيفَ رفعَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ عنِ الأرضِ هذا الرَّفْعَ العَظيمَ، بغَـيْرِ عَمَدٍ، حتَّى لا ينالَهـا شَيءٌ، والعَرَبُ يَنظُرونَ إلى السـماءِ نَهارَهُم، وليلَهُم، في إقامَتِهِـم، وظَعْنِهِم؛ فكيفَ لا يَتدبَّرونَ في عظيمِ خَلْقِ السَّـماءِ؟! ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

وهذِهِ الجِبالُ، أفلا ينظُرونَ إليها كيفَ نُصِبَتْ على وَجْهِ الأرضِ نَصْبًا ثابتًا، أي: رُفِعَت، وهيَ معَ ارتفاعِها مُرْسـاةٌ، راسِخةٌ، راسيَةٌ، لا تَميلُ بأهلِها، ولا تَزولُ، ولا تتغيَّرُ، وجعَلَ فيها ما جَعلَ مِنَ المنافِعِ، والمَعادِنِ؟

وهذِهِ الأرضُ، أفلا ينظُرونَ إليها كيفَ بُسِطَتْ، وسوِّيَت، ومُهِّدَتْ، ومُدَّتْ، مَدًّا واسِـعًا، وسُهِّلت غايةَ التسهيلِ؛ ليَستَقِرَّ الخلائِقُ على ظَهْرِها، ويَتَمكَّنوا من حَرْثِها، وغِراسِها، والبُنيانِ فيها، وسُلوكِ الطُّرُق الموصِّلةِ إلى أنواعِ المَقاصِدِ فيها؟[(١)].

فَنبَّهَ القرآنُ الكريمُ الرَّجُلَ البَدَويَّ على الاسـتدلالِ بما يُشاهِدُه مِنْ: بَعيرِه الذي هوَ راكبٌ عليهِ، والسَّماءِ التي فوقَ رَأْسِهِ، والجَبلِ الذي تجاهِهِ، والأرضِ التي تحتَهُ،

(١) تفسير البغوي (٨/ ٤١٠)، زاد المسير (٤/ ٤٣٦)، تفسير القرطبي (٢٠/ ٣٦)، تفسير ابن كثير (٨/ ٣٨٧)، تفسير السعدي (ص٩٢٢).

نبَّهه بهذا على قُدْرَةِ خالقِ ذلكَ، وصانعِهِ، وأنَّه الرَّبُّ العظيمُ الخالِقُ المتصرِّفُ المالِكُ، وأنَّه الإلهُ الذي لا يَستَحِقُّ العِبادةَ سِواهُ[١].

ولِذا جاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قالَ: «يقولُ: هَلْ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَ الإِبلِ، أَوْ يَرْفَعَ مِثْلَ السَّماءِ، أَوْ يَنْصِبَ مِثْلَ الجِبالِ، أَوْ يَسْطَحَ مِثْلَ الأَرْضِ غَيْري؟!»[٢].

وهَكذا أقسَمَ ضِمامٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -هنا في سُؤالِه- على رسولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فقال: «فَبِالذي خَلَقَ السَّماءَ، وَخَلَقَ الأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الجِبالَ، آللهُ أَرْسَلَكَ؟»، فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «نَعَمْ».



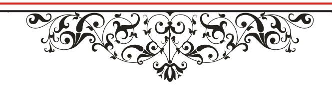
(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٨٧).

(٢) التفسير الوسيط للواحدي (٤/ ٤٧٦)، والبغوي (٨/ ٤١٠).





الحديث الخامس



عَـنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِـيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«أَخَذَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **الميثاقَ مِنْ ظَهْـرِ آدَمَ بِنَعْمانَ** -يَعْنـي: عَرَفَـةَ- **فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِـهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَها، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾** [الأعراف: ١٧٢]»[١].

«الميثاقُ» هوَ العَهْدُ.

---

(١) رواه النَّسائي في الكُبرى (١١١٢٧)، والإمام أحمد في المسند (٢٤٥٥)، والحاكم في المستدرك (٤٠٠٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، وكذا صحَّحه الألباني في الصحيحة (١٦٢٣)، وضعفه شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، وصحح الحافظ ابن كثير وغيره وقفه، وقال غير واحد من أهل العلم من السلف والخلف: «الْمُرادَ بِهذا الْإِشْهادِ إِنَّما هوَ فِطْرَتُهُمْ على التَّوْحيدِ» وقال إِسْحاق بْن راهَوَيْه في قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: «أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّها الْأَرْواحُ قَبْلَ الْأَجْسادِ، فاسْتَنْطَقَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنْفُسِهِمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾» الاستذكار (٣/ ١٠٧)، وَقال ابْن الأنباري: «مَذْهَب أهل الحَدِيث وكبراء أهل الْعلم فِي هَذِه الْآيَة: أَن الله أخرج ذُرِّيَّة آدم من صلبه وأصلاب أَوْلَاده وهم فِي صور الذَّر، فَأخذ عَلَيْهِم الْمِيثَاق أَنه خالقهم، وَأَنَّهُمْ مصنوعون، فاعْتَرفوا بذلك وقبلوا» الروح (ص١٦٣)، واستشهد هؤلاء في الجملة بما في الصّحيحين عن أَنَس بْن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَقولُ اللهُ تَعالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذابًا يَوْمَ القيامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ ما في الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدي بِهِ؟ فَيَقولُ: نَعَمْ، فَيَقولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هذا، وَأَنْتَ في صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بي**».

وذَكَرَ بعضُ أهلُ العِلمِ أنّ المَواثيقَ التي أخذَها اللهُ تعالى على بني آدمَ، ثلاثَةُ مَواثيقُ:

الأوَّلُ: الميثاقُ المَذكورُ في هذا الحَديثِ: وهوَ الميثاقُ الذي أخذَه اللهُ تعالى على بني آدَمَ، حينَ أخرجَهُمْ مِنْ ظَهْرِ أبيهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأَشْهدَهم على أنفُسِهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

وفي الحَديثِ: «**يَقولُ اللهُ تَعالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذابًا يَوْمَ القيامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ ما في الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدي بِهِ؟ فَيَقولُ: نَعَمْ، فَيَقولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هذا**[1]**، وَأَنْتَ في صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلاَّ أَنْ تُشْرِكَ بي**»[2].

والمعنى: أمرتُكَ حينَ أخذْتُ الميثاقَ، فأَبَيْتَ -إذْ أخرجْتُكَ إلى الدُّنيا- إلَّا الشِّرْكَ[3].

الثَّاني: ميثاقُ الفِطْرةِ: وهوَ أنَّ اللهَ تعالى فَطَرَهُم على توحيدِهِ، ودينِهِ، شاهِدينَ بما أخذَهُ عليهِمْ في الميثاقِ الأوَّلِ، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

فاللهُ تعالى استَخرجَ ذُريَّةَ بني آدَمَ مِنْ أصلابِهِمْ، شاهِدينَ على أنفُسِهم أنَّ اللهَ ربُّهُم، ومَليكُهُم، وأنَّه لا إلَهَ إلَّا هوَ.

كما أنَّه تعالى فَطَرَهُم على ذلكَ، وجَبَلَهُم عليهِ، كما في الحَديثِ: «ما مِنْ مَوْلودٍ إلاَّ يولَدُ على الفِطْرَةِ، فَأَبَواهُ يُهَوِّدانِهِ، أو يُنَصِّرانِهِ، أَوْ يُمَجِّسانِهِ، كَما تُنْتَجُ[4] البَهيمَةُ بَهيمَةً جَمْعاءَ[5]، هَلْ تُحُسُّونَ فيها مِنْ جَدْعاءَ[6]؟»[7].

---

(١) يعني: أمرتُك.

(٢) رواه البخاري (٦٥٥٧)، ومسلم (٢٨٠٥).

(٣) فتح الباري (١١/ ٤٠٣).

(٤) تَلِد.

(٥) مجتمعة الأعضاء سليمة من النقص.

(٦) مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء.

(٧) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

والمعنى: «أَنَّ البَهيمَةَ تَلِدُ البَهيمَةَ كامِلَةَ الأَعْضاءِ لا نَقْصَ فيها، وَإِنَّما يَحْدُثُ فيها الجَدْعُ، والنَّقْصُ، بَعْدَ وِلادَتِها»(١).

وقال تعالى في الحَديثِ القُدسيِّ: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبادي حُنَفاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّياطينُ، فاجْتالَتْهُمْ**(٢)**عَنْ دينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ ما أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكوا بي ما لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطانًا**»(٣).

الميثاقُ الثَّالثُ: ما جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وأُنزِلَتْ بِهِ الكُتُبُ، تجديدًا للميثاقِ الأوَّلِ، وتَذْكيرًا بِهِ، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

فَمَنْ أَدْرَكَ هذا الميثاقَ وَهوَ باقٍ على فِطْرَتِهِ، التي هيَ شاهِدةٌ بما ثَبَتَ في الميثاقِ الأوَّلِ؛ فإنَّه يَقْبَلُ ذلكَ مِنْ أَوَّلِ مرَّةٍ، ولا يَتَوقَّفُ؛ لِأَنَّه جاءَ موافِقًا لِما في فِطْرَتِهِ، وما جَبلَه اللهُ عليهِ، فَيَزْدادُ بذلكَ يَقينُهُ، ويَقْوى إيمانُه، فلا يتلَعْثَمُ، ولا يتردَّدُ.

ومَنْ أدْرَكَه وقَدْ تغيَّرَتْ فِطْرَتُهُ عمَّا جَبَلَه اللهُ عليهِ مِنَ الإقرارِ بما ثَبَتَ في الميثاقِ الأوَّلِ، بأنْ كانَ قدِ اجتالَتْه الشَّياطينُ عنْ دينِهِ، وهَوَّدَهُ أبواهُ، أو نَصَّراهُ، أو مجَّساهُ، فهذا إنْ تَداركَه اللهُ تعالى برَحْمَتِه، فرَجَعَ إلى فِطْرَتِهِ، وصَدَّقَ بما جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، ونَزَلَتْ بِهِ الكُتُبُ؛ نَفَعَه الميثاقُ الأوَّلُ، والثَّاني.

وإنْ كذَّبَ بهذا الميثاقِ؛ كانَ مُكَذِّبًا بالأوَّلِ، فلمْ يَنْفَعْه إقرارُه بِهِ يومَ أخذَهُ اللهُ عليهِ؛ حيثُ قالَ: ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] جوابًا لقولِهِ تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وقامَتْ عليهِ حُجَّةُ اللهِ، وغلبَتْ عليهِ الشِّقْوةُ، وحَقَّ عليهِ العَذابُ، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٢٠٩).

(٢) استَخَفَّتهم، فجالوا معهم في الضلال.

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥).

وَمَنْ لَمْ يُدْرِكْ هذا الميثاقَ الثالِثَ، بأَنْ ماتَ صَغيرًا قَبْلَ التَّكليفِ؛ ماتَ على الميثاقِ الأوَّلِ على الفِطْرةِ، فإِنْ كانَ مِنْ أولادِ المُسلمينَ، فأولادُ المُسلمينَ مَعَ آبائِهِم.

وَإِنْ كانَ مِنْ أولادِ المُشركينَ؛ فاللهُ أعلَمُ بما كانَ عامِلًا لَوْ أدْرَكَه، كما في الصَّحيحَيْنِ[١]، عَنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سُئِلَ رَسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَوْلَادِ المُشْرِكينَ؛ فَقال: «**اللهُ إِذْ خَلَقَهُمْ أَعْلَمُ بِما كانوا عامِلينَ**»[٢].

ولِذا بَطَلَتْ حُجَّةُ الكافِرينَ بأَخْذِ هذِهِ المواثيقِ عليهِمْ، ولَمْ يكُنْ لهُمْ عُذرٌ في تَرْكِ الإيمانِ، ولِذا قال تعالى: ﴿**أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢].

أيْ: لِئَلَّا يقولوا يومَ القيامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا﴾ التَّوحيدِ، والميثاقِ، والإقرارِ ﴿غَـٰفِلِينَ﴾.

فاليومَ قدِ انقطَعَتْ حُجَّتُكُمْ، وثبتَتِ الحُجَّةُ البالِغَةُ للهِ عليكُمْ، فَكلُّ أحَدٍ مفْطورٌ على ذلِكَ، وجاءَتِ الرُّسُلُ تَجديدًا، وتَذْكيرًا بهذا الميثاقِ؛ ولِئلَّا يكونَ للناسِ على اللهِ حُجَّةٌ بَعدَ الرُّسلِ[٣].



---

(١) البخاري (١٣٨٣)، ومسلم (٢٦٦٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٠)، معارج القبول لحافظ الحكمي (١/ ٩٢).

(٣) تفسير البغوي (٣/ ٢٩٩)، تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٦)، تفسير السعدي (ص٣٠٨).



الحديث السادس



عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقولُ: «قال اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقي؟ فَلْيَخْلُقوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقوا شَعيرَةً**»[١].

في هذا الحَديثِ بَيانٌ لِعظيمِ قُدْرَةِ اللهِ تعالى، وأنَّهُ الخالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَهُ، وكلُّ ما سِواهُ مخلوقٌ لَهُ، مَربوبٌ، مُدبَّرٌ.

وَفيهِ: تَحَدٍّ، وتَعجيزٌ، وتَبكيتٌ، وتَوْبيخٌ، لِمَن ذهَبَ يَخْلُقُ كخَلْقِ اللهِ، وأنَّى له ذلِكَ؟! فلا أَحَدَ أَظْلَمَ مِنْهُ.

والوَعيدُ في هذا الحَديثِ للمُصَوِّرين الذينَ يُضاهِئونَ بخَلْقِ اللهِ، وهُمُ الذينَ يَصنَعونَ تَماثيلَ وصوَرَ ذَواتِ الأَرْواحِ.

والمعنى: «**فَلْيَخْلُقوا ذَرَّةً**» يَعني: نَملَةً صَغيرةً، فيها روحٌ، تتصَرَّفُ بنفْسِها كَهَذِهِ الذَّرَّةِ التي هيَ خَلْقُ اللهِ تعالى.

«**أَوْ لِيَخْلُقوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقوا شَعيرَةً**» **أي**: حبَّةً فيها طَعْمٌ، تُؤكَلُ، وتُزرَعُ،

---

(١) رواه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

وتنبُتُ، ويوجَدُ فيها ما يوجَدُ في حبَّةِ الحِنْطةِ، والشَّعيرِ، ونَحْوِهِما مِنَ الحَبِّ الذي يَخْلُقُه اللهُ تعالى، وهَوُ أمْرُ تَعْجيزٍ[١].

«والغَرَضُ: تَعجيزُهُمْ، تارَةً بتكليفِهِم خَلْقَ حَيوانٍ، وهوَ أَشَدُّ، وأُخرى بتكليفِهِم خَلْقَ جَمادٍ، وهوَ أَهْوَنُ، ومَعَ ذلكَ لا قُدْرَةَ لَهُم على ذلِكَ»[٢].

ولِذَلِكَ مِنْ أمثالِ القُرآنِ العَظيمِ، التي يَنْبَغي على كلِّ مُسْلمٍ تَدَبُّرُها: قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يَشْمَلُ كلَّ ما يُدْعَى مِن دونِ اللهِ ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾.

وذلِكَ أنَّ المَعْبودَ أَقَلُّ دَرجاتِهِ أن يَقْدِرَ على إيجادِ ما يَنْفَعُ عابدَهُ، وإعدامَ ما يَضُرُّهُ.

والآلِهَةُ التي يَعبُدُها المُشرِكونَ مِنْ دونِ اللهِ لَنْ تَقْدِرَ على خَلْقِ الذُّبابِ، ولَوِ اجتَمَعوا كلُّهُم لخَلْقِهِ في صَعيدٍ واحِدٍ، وساعَدَ بعضُهُمْ بَعْضًا، وعاونَهُ بأبْلَغِ المُعاوَنةِ؛ لَعَجَزوا عَنْ خَلْقِ ذُبابَةٍ واحِدَةٍ، فكَيفَ ما هوَ أكبَرُ مِنهُ؟!

وَقَدْ جاءَ في بعضِ رِواياتِ هذا الحديثِ: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ خَلَقَ خَلْقًا كَخَلْقي؟! فَلْيَخْلُقوا مِثْلَ خَلْقي: ذَرَّةً، أَوْ ذُبابَةً، أَوْ حَبَّةً**»[٣].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٩١).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٣٨٦).

(٣) رواه الإمام أحمد (٩٠٨٢).

ثُمَّ بيَّنَ ضَعْفَهُم، وعَجْزَهُم عَنِ استِنقاذِ ما يَسْلُبُهُمُ الذُّبابُ إيَّاهُ، وعَنْ مُقاومَتِهِ، والانتِصارِ مِنْهُ؛ فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾؛ فَهُم لا يَقْدِرونَ على الانتِصارِ مِنَ الذُّبابِ إذا سَلَبَهُمْ شيئًا مِمَّا علَيْهِمْ، مِنْ طيبٍ ونَحْوِهِ[1]، فيَسْتَنْقِذونهُ مِنهُ!

هذا والذُّبابُ مِنْ أضعَفِ مَخلوقاتِ اللهِ، وأحقَرِها، وهذا غايةُ ما يَصيرُ مِنَ العَجْزِ!

فَلا هُم قادِرونَ على خَلْقِ الذُّبابِ الذي هوَ مِنْ أضْعَفِ الحَيَواناتِ، وأخَسِّها، ولا على الانتِصارِ مِنهُ، واستِرْجاعِ ما سَلَبَهُمْ إيَّاهُ!

فإذا كانَ هذا الذي هوَ أضْعَفُ الحَيَوانِ، وأَحقَرُهُ، لا يَقْدِرُ مَن عبَدوهُم مِن دونِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على خَلْقِ مِثْلِهِ، ودَفْعِ أذيَّتِهِ، فكَيفَ يَجوزُ أنْ يكونوا آلِهَةً مَعْبودينَ، وأرْبابًا مُطاعينَ؟! وهذا مِنْ أقوَى حُجَّةٍ، وأوضَحِ بُرْهانٍ.

فَلا أعْجَزَ مِنْ هذِهِ الآلِهَةِ، ولا أضْعَفَ مِنها، فكَيفَ يَسْتَحْسِنُ عاقِلٌ عِبادَتَها مِن دونِ اللهِ؟!

فمَنْ جَعلَ هذا إلَهًا مَعَ القَويِّ العَزيزِ؛ فَما قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ، ولا عَرَفَه حقَّ مَعْرِفَتِه، ولا عَظَّمَه حقَّ تعظيمِه، فهَلْ قَدَرَ القويَّ العَزيزَ حَقَّ قَدْرِه مَنْ أشْرَكَ مَعَهُ آلِهَةً هذا شَأنُها؟! وَلِذا قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: ٧٤][2].

وَختَمَ المَثَلَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤] **أي:** كامِلُ القوَّةِ، كامِلُ العِزَّةِ، بقُدْرَتِه، وقوَّتِه، خَلَقَ كلَّ شَيءٍ، وعَزَّ كُلَّ شيءٍ، فقَهرَهُ، وغَلبَهُ، فلا يُمانَعُ، ولا يُغالَبُ، لعَظَمَتِه، وسُلْطانِه، وهوَ الواحدُ القَهَّارُ.

---

(١) وقد يَسْلُب الحياة بنقل الميكروبات.

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٦٣٥)، تفسير الماوردي (٤/ ٤٠)، تفسير البغوي (٥/ ٤٠٠)، تفسير القرطبي (١٢/ ٩٧)، تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٣)، تفسير السعدي (ص٥٤٦)، الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٦)، إعلام الموقِّعين (٢/ ٣١٢).

وَمِنْ كَمالِ قوَّتِه وعِزَّتِهِ: أنَّ نَواصي الخَلْقِ بيدَيْهِ، وأنَّه لا يَتَحرَّكُ مُتحرِّكٌ، ولا يَسْكُنُ ساكِنٌ إلا بإرادَتِهِ، ومشيئَتِهِ، فما شاءَ اللهُ كانَ، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

ومِنْ كَمالِ قوَّتِهِ: أنَّه يُمْسِكُ السَّماواتِ والأرضَ أنْ تَزولا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

وَمِنْ كَمالِ قوَّتِهِ: أنَّه يَبْعَثُ الخَلْقَ كلَّهم، أوَّلَهم وآخِرَهُم، بصَيْحَةٍ واحدةٍ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧].

ومِنْ كَمالِ قوَّتِهِ: أنَّه أهلَكَ الجبابِرَةَ، والأممَ العاتيةَ بِشَيءٍ يَسيرٍ، وسَوْطٍ مِنْ عَذابِهِ، كرَجْفَةٍ، أو صَيْحةٍ، أو ريحٍ، أو خَسْفٍ[1].

فاللهُ جلَّتْ قُدْرَتُهُ يَخْلُقُ الخَلْقَ مِنَ العَدَمِ بأنْ يَقولَ لِلشَّيْءِ: «كُنْ»، فَيَكون، قال تعالى لعَبْدِه زَكَريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٩]، فهَلْ يَقْدِرُ البَشَرُ أنْ يَخلُقوا كائِنًا حيًّا مِنَ العَدَمِ؟ ولَوْ كانَ ذلكَ الكائنُ يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ في الصِّغَرِ، كالنَّملَةِ، أوِ الذُّبابِ؟

بَلْ هَلْ يَقْدِرونَ على أنْ يَخْلُقوا جَمادًا مِنَ العَدَمِ، مهْما كانَ صَغيرًا، كحبَّةِ شَعيرٍ، أو قَمْحٍ؟!

إنَّ غايةَ ما يَقْدِرُ عليهِ البَشَرُ أَنْ يَصنَعوا شَيئًا مِنَ العناصِرِ، والمَوادِّ، التي خلقَها اللهُ تعالى لعِبادِهِ في الكَونِ، وهُم يُحوِّلونَها مِنْ صورَةٍ إلى أُخرَى.

واللهُ تعالى هو الذي خَلقَها وأَوْجدَها مِنَ العَدَمِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٤)، تفسير السعدي (ص٥٤٦).

ثُمَّ بَعدَ أنْ خلقَها لَهُمْ سَخَّرَها لَهُمْ، ولَوْلا ذَلِكَ لَمْ يَقْدِروا على الانتِفاعِ بِها لا في قَليلٍ، ولا كَثيرٍ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

بَلْ إنَّ الإنْسانَ نَفْسَهُ، وعَقْلَه الذي يُفَكِّرُ بِهِ، وقوَّتَه التي يَعْمَلُ بها، وحيلتَه التي يَحتالُ بها؛ كُلُّ ذَلِكَ هوَ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

فَحَقيقةُ الأمْرِ: أنَّ كُلَّ ما وَصَلَتْ إليهِ البَشَرِيَّةُ مِنْ عُلومٍ، وَتَقدُّمٍ، وازْدِهارٍ، وتِكنولوجْيا، وَوَسائِلَ حَديثَةٍ، هيَ مِنْ خَلْقِ اللهِ، وفَضْلِه، ومِنَّتِهِ على عبادِهِ: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وَلَوْ حَجَبَ اللهُ الشَّمسَ عَنْ عبادِهِ، أو سلَّطَ علَيْهِمُ الرِّياحَ العاتيَةَ، أو مَنَعَهُمُ الماءَ، أَوِ الهَواءَ؛ فكَيْفَ سَيكونُ مَصيرُهُم؟! ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠].

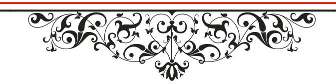
فالحَمدُ للهِ على نِعَمِهِ، ونَسْأَلُ اللهَ المَزيدَ مِنْ فضلِهِ.







الحديث السابع



عـنْ أبـي هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رَسـولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَأْتي الشَّـيْطانُ أَحَدَكُـمْ فيَقولُ: مَنْ خَلقَ كَذا؟ مَنْ خلقَ كَذا؟ حَتَّى يَقولَ: مَنْ خلقَ رَبَّك؟ فَإِذا بَلَغَهُ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَلْيَنْتَهِ»**[١].

وفي روايةٍ: **«لا يَزالُ النَّاسُ يَسْأَلونَكُمْ عَنِ العِلْمِ، حَتَّى يَقولوا: هذا اللَّهُ خَلَقَنا، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟»**[٢].

وفـي روايةٍ: **«إِنَّ الشَّـيْطانَ يَأْتي أَحَدَكُمْ، فَيَقولُ: مَنْ خَلَقَ السَّـماءَ؟ فَيَقولُ: اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَيَقولُ: مَنْ خَلَقَ الأَرْضَ؟ فَيَقولُ: اللَّهُ، فَيَقولُ: مَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟ فَإِذا أَحَسَّ أَحَدُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ»**[٣].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ، عَنْ رَسـولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قـال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «إِنَّ أُمَّتَكَ لا يَزالـونَ يَقولونَ: ما كَذا؟ ما كَذا؟ حَتَّى يَقولوا: هـذا اللهُ خَلَقَ الخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٢) رواه مسلم (١٣٥).

(٣) رواه أحمد (٨٣٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٤) رواه البخاري (٧٢٩٦)، ومسلم (١٣٦)، واللفظ له.



هذا الأمْرُ الذي أخْبَرَ عَنهُ النَّبيُّ ﷺ قَدْ وقَعَ مِنْ قَديم، ولا يزالُ يَقَعُ، ولا بُدَّ أنْ يُلقيَ الشَّيطانُ هذا الإيرادَ الباطِلَ، إمَّا وَسْوسةً مَحْضَةً، أو على لِسانِ شَياطينِ الإنسِ، وَمَلاحِدَتِهِمْ.

وقَدْ قال أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه بَعدَ رِوايتِهِ لِهذا الحَديثِ: «فَبَيْنا أَنا في المَسْجِدِ؛ إذْ جاءَني ناسٌ مِنَ الأَعْرابِ، فَقالوا: يا أَبا هُرَيْرَةَ، هذا اللهُ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ قال: فَأَخَذَ حَصًى بِكَفِّهِ فَرَماهُمْ، ثُمَّ قال: قوموا قوموا، صَدَقَ خَليلي»[1].

وقَدْ وقَعَ كما أَخْبرَ ﷺ؛ فإنَّ الأمرَيْنِ وَقَعا، لا يَزالُ الشَّيطانُ يَدْفَعُ إلى قُلوبِ مَنْ لَيسَتْ لهُمْ بَصيرةٌ هذا السُّؤالَ الباطِلَ، ولا يَزالُ أهلُ الإلْحادِ يُلْقونَ هذِهِ الشُّبهَةَ التي هيَ أَبْطَلُ الشُّبَهِ، ويتكلَّمونَ عَنِ العِلَلِ، وعنْ مَوادِّ العِلْمِ، بِكلامٍ سَخيفٍ مَعْروفٍ[2].

يَقولُ المَلاحِدَةُ: «سلَّمنا أنَّ اللهَ خالقُ كلِّ شيءٍ؛ فمَنْ خلَقَ اللهَ»؟!

وهذا سُؤالٌ فاسِدٌ مِنْ أساسِهِ، ومُغالَطةٌ؛ «فالمُلْحِدُ يُسَلِّم بأنَّهُ خالِقٌ، ثمَّ يقولُ: مَنْ خلقَهُ؟ فيجعَلُ مِنهُ خالِقًا ومَخْلوقًا في نَفْسِ الجُملَةِ!

وهذا تَناقُضٌ واضِحٌ في بَدائَةِ العُقولِ؛ لِأنَّ الخالِقَ لا يُمكِنُ أنْ يَكونَ مَخْلوقًا، والمَخْلوقَ لا يُمكِنُ أنْ يَكونَ خالِقًا»[3].

ثُمَّ إنَّنا لَوْ سلَّمْنا بِهذا؛ فهذا يلزَمُ منهُ التَّسَلْسُلَ، وهذا مُحالٌ عَقْلًا.

فَلَوْ أجبْنا عَنْ سُؤالِكَ: مَنْ خَلقَ اللهَ؟ بأنَّهُ: خالِقٌ آخَرُ، سَيَرِدُ نَفْسُ السُّؤالُ على الخالِقِ الآخَرِ؛ فيُقالُ: مَنْ خَلَقَهُ؟ وهكَذا إلى ما لا نِهايَةَ لَهُ. فَيَلْزَمُ مِنْ هذا نَفْيُ الخالِقِ!

(١) رواه مسلم (١٣٥).

(٢) بهجة قلوب الأبرار للسعدي (ص٢٧).

(٣) الإلحاد، للدكتور صالح بن عبد العزيز سندي (ص٥٣).

يَقولُ الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخالقُ يَستَحيلُ أنْ يكونَ مَخلوقًا، ثُمَّ لَوْ كانَ السُّؤالُ[1] مُتَّجِهًا؛ لاستَلْزمَ التَّسَلْسُلَ، وهوَ مُحالٌ.

وقَدْ أثبتَ العَقْلُ أنَّ المُحْدَثاتِ مُفتَقِرَةٌ إلى مُحْدِثٍ، فلَوْ كانَ هوَ مُفْتَقِرًا إلى مُحْدِثٍ؛ لكانَ مِنَ المُحْدَثاتِ»[2].

وَمِنْ تَلبيساتِهِمْ أيضًا: قولُهُمْ: «هَلْ يَسْتَطيعُ اللهُ أنْ يَخْلُقَ صَخْرَةً لا يَستَطيعُ حَمْلَها؟!».

وهذا السُّؤالُ وَأَمْثالُه فيهِ مُغالَطةٌ كَبيرةٌ، ويُحاوِلُ كَثيرٌ مِنَ المُلْحِدينَ أنْ يَسْتعمِلوهُ في حِواراتِهِم مَعَ المُسلِمينَ، وهُمْ يُريدونَ إلْزامَ المُجيبِ بالباطِلِ:

فَإنْ قال: لا يَستَطيعُ، قالوا: كيفَ يَكونُ إلَهًا وَهوَ عاجِزٌ عَنِ الخَلْقِ؟!

وَإنْ قال: يَستَطيعُ، قالوا: كَيْفَ يكونُ إلَهًا وَهوَ عاجِزٌ عَنِ الحَمْلِ والرَّفعِ لِهذِهِ الصَّخْرةِ؟!

والجَوابُ: أنَّ هذا السُّؤالَ غَيْرُ صَحيحٍ في الأصْلِ، فَقُدْرَةُ اللهِ تعالى لا تَتعلَّقُ بالمُستَحيلاتِ؛ فكَيْفَ يكونُ إلَهًا وهوَ عاجِزٌ عَنْ رَفْعِ «صَخْرَتِهِم»، ومِنْ صِفاتِ اللهِ تعالى القُدْرَةُ؟! وهلْ سَيوجدُ في صفاتِ المَخلوقاتِ ما هوَ أعظَمُ مِنْ صِفاتِ خالِقِها؟

فقُدْرَةُ اللهِ مُطْلَقةٌ، وغيرُ مَحدودَةٍ، لَكنَّها تَتعلَّقُ بالمُمْكِناتِ العقليَّةِ، لا بالمُستَحيلاتِ العَقليَّةِ، فالقُدْرَةُ مهما كانَتْ مُطلَقةً، ولا حُدودَ لها، تَبْقَى في دائِرَةِ مُمْكِناتِ الوُجودِ، ولا تَتعلَّقُ بالمُستَحيلاتِ.

فسُؤالُ «مَنْ خَلَقَ اللهَ؟» فاسِدٌ مِنْ أصلِهِ، وأصْلُهُ ومَصدَرُه مِنَ الشَّيطانِ، كما دَلَّ على ذلِكَ هذا الحَديثُ.

---

(١) يعني سؤال: مَن خلقَ ربَّك.

(٢) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٤١).

وقَدْ أَرْشَـدَ النَّبيُّ ﷺ **في هذا الحَديثِ العَظيمِ إلى دَفْعِ هذا السُّؤالِ بأمورٍ ثَلاثَةٍ**: بِالانتِهاءِ، والتَّعوُّذِ مِنَ الشَّيطانِ، وبالإيمانِ: «**فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ، وَلْيَنْتَهِ**»، و«**لِيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، وَرُسُلِهِ**».

أمَّـا الانتِهاءُ: فـإنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ لِلأفْـكارِ، والعُقولِ، حَدًّا تنتَهـي إلَيْهِ، ولا تَتجاوَزُهُ، ويَسـتَحيلُ لَوْ حاوَلْتَ مجاوزَتَه أنْ تَسـتَطيعَ؛ لأَنَّهُ مُحالٌ، ومُحاوَلَةُ المُحالِ مِنَ الباطِلِ، والسَّفَهِ.

والمَخلوقاتُ لها ابتِداءٌ، ولها انتِهاءٌ، وقَدْ تَتَسَلْسَلُ في كَثيرٍ مِنْ أمورِها حتَّى تَنْتَهيَ إلى اللهِ الذي أَوْجَدَهـا وأَوْجَدَ ما فيها مِنَ الصِّفاتِ، والمَوادِّ، والعَناصر ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

فـإذا وصَلَتِ العُقولُ إلى اللهِ تعالى وَقفَتْ وانتَهَتْ؛ فإنَّـه الأوَّلُ الذي لَيسَ قَبْلَه شَيْءٌ، والآخِرُ الذي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، فأوَّلِيَّتُهُ تعالى لا مُبتَدَأَ لها مَهْما فرضَتِ الأزمانُ، والأَحْوالُ، وهوَ الذي أوْجَدَ الأزْمانَ، والأَحْـوالَ، والعُقولَ التي هيَ بَعْضُ قوَى الإنسانِ، فكَيفَ يُحاوِلُ العَقلُ أنْ يَتَشَبَّثَ بإيرادِ هذا السُّؤالِ الباطِلِ؟!

فالفَرْضُ علَيْهِ المُحَتَّمِ في هذِهِ الحالِ: الوُقوفُ، والانتِهاءُ.

الأمْرُ الثَّاني: التَّعوُّذُ باللهِ **مِنَ الشَّيطانِ**: فإنَّ هذا مِنْ وَساوِسِهِ، وإلقائِهِ في القُلوبِ؛ لِيُشَكِّكَ النَّاسَ في الإيمانِ بِرَبِّهِمْ.

فعَلَى العَبْدِ إذا وَجَدَ ذَلِكَ: أَنْ يَسـتَعيذَ باللهِ مِنْهُ، فمَـنْ تَعوَّذَ باللهِ بصِدْقٍ، وقوَّةٍ؛ أعاذَهُ اللهُ، وطَرَدَ عنْهُ الشَّيطانَ، واضْمَحَلَّتْ وَساوِسُه الباطِلَةُ.

«فأَمَرَه بالاسـتِعاذَةِ مِنهُ؛ ليقطَعَ اللهُ عنهُ الوَساوِسَ الفاسِدَةَ التي يُلْقيها الشَّيطانُ بِغَيرِ اختيارِه، ويُؤْذيهِ بها، حتّى قد يَتَمنَّى المَوتَ، أو حتَّى يَختارَ أنْ يَحْتَرِقَ ولا يَجِدَها!

وهيَ الوَسْوَسَةُ التي سَأَلَ عنها الصَّحابَةُ، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ أَحَدَنا يَجِدُ في

نَفْسِهِ، يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ[1]، لَأَنْ يَكونَ حُمَمَةً[2] أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ!

وفي رِوايةٍ: إِنِّي أُحَدِّثُ نَفْسي بِالشَّيْءِ، لَأَنْ أخِرَّ مِنَ السَّماءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ!

فَقال: «اللهُ أَكْبَر، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الحَمْدُ للهِ الذي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الوَسْوَسَةِ»[3].

وفي حديثٍ آخرَ: إِنَّا نَجِدُ في أَنْفُسِنا ما يَتَعاظَمُ أَحَدُنا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ! قال: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**»، قالوا: نَعَمْ، قال: «**ذاكَ صَريحُ الإيمانِ**»[4].

وأرادَ بذلكَ: أنَّ كراهتَه هذِهِ الوَسْوَسةَ، ونفيَها، هوَ مَحْضُ الإيمانِ وصَريحُهُ»[5].

الأَمْرُ الثالِثُ: أن يَدْفَعَه بما يُضادُّه مِنَ الإيمانِ باللهِ ورُسُلِه: «**فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، وَرُسُلِهِ**».

فإنَّ اللهَ ورُسُلَه أخبَروا بأنَّه تعالى الأوَّلُ الذي لَيسَ قَبْلَه شَيءٌ، وأنَّه تعالى المُتفرِّدُ بالوَحدانيَّةِ، وبِالخَلْقِ، والإيجادِ لِلمَوجوداتِ السَّابقَةِ، واللَّاحقَةِ.

فهذا الإيمانُ الصَّحيحُ الصَّادقُ اليَقينيُّ، يَدْفَعُ جَميعَ ما يُضادُّه مِنَ الشُّبَهِ المُنافيةِ لَهُ؛ فإِنَّ الحقَّ يَدْفَعُ الباطِلَ، والشُّكوكَ لا تُعارِضُ اليَقينَ.

فهَذِهِ الأمورُ الثَّلاثَةُ التي ذَكَرَها النَّبيُّ ﷺ تُبْطِلُ هذِهِ الشُّبَهَ التي لا تَزالُ على ألسِنَةِ المَلاحِدَةِ، يُلْقونَها بعِباراتٍ مُتنوِّعَةٍ.

فأَمَرَ بـ: الانتِهاءِ الذي يُبْطِلُ التَّسَلْسُلَ الباطِلَ، وبالتَّعَوُّذِ مِنَ الشيطانِ الذي

---

(١) أي: القبيح.

(٢) فَحْمًا.

(٣) رواه أبو داود (٥١١٢)، والإمام أحمد (٢٩٧)، وصحَّحه الألباني.

(٤) رواه مسلم (١٣٢).

(٥) دَرءُ تعارضِ العقل والنقل لابن تيميَّة (٣/ ١١٧)، بتصرُّفٍ وزياداتٍ.

هوَ المُلْقي لهَذِهِ الشُّبْهَةِ، وبالإيمانِ الصَّحيحِ الذي يَدْفعُ كُلَّ ما يُضادُّهُ مِنَ الباطِلِ، والحَمْدُ للهِ.

فَبالانتِهاءِ: قَطْعُ الشَّرِّ مُباشَرَةً.

وبِالاستِعاذَةِ: قَطْعُ السَّببِ الدَّاعي إلى الشَّرِّ.

وَبِالإيمانِ: اللُّجوءُ والاعتِصامُ بالاعتِقادِ الصَّحيحِ اليَقينيِّ، الذي يَدْفعُ كُلَّ مُعارِضٍ.

وهَذِهِ الأمورُ الثلاثَةُ هيَ جِماعُ الأسبابِ الدَّافِعَةِ لِكُلِّ شُبْهةٍ تُعارِضُ الإيمانَ؛ فيَنْبَغي العِنايَةُ بها في كُلِّ ما يَعْرِضُ للإيمانِ مِنْ شُبْهَةٍ، واشتِباهٍ، يَدْفَعُه العَبْدُ مُباشَرَةً بِالبَراهينِ الدَّالَّةِ على إبطالِهِ، وبإثباتِ ضِدِّهِ، وهوَ الحَقُّ الذي لَيسَ بَعْدَه إلَّا الضَّلالُ، وبِالتعوُّذِ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الذي يَدْفَعُ إلى القُلوبِ فِتَنَ الشُّبُهاتِ، وفِتَنَ الشَّهَواتِ؛ لِيُزَلْزِلَ إيمانَهُم، ويوقِعَهم بِأنْواعِ المَعاصي.

فَبِالصَّبرِ، واليَقينِ، يَنالُ العَبْدُ السَّلامةَ مِنْ فِتَنِ الشَّهَواتِ، ومِنْ فِتَنِ الشُّبُهاتِ، واللهُ هوَ الموَفِّقُ الحافِظ[1].

وَقَدْ لَخَّصَ الشَّيخُ الألْبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **تعالى ما جاءَ في السُّنَّة لِمَنْ وَسْوَسَ إلَيهِ الشَّيطانُ بقَوْلِهِ:** «**مَن خَلَقَ اللهَ؟**»، فَقال: «وخُلاصَتُها أنْ يقولَ: آمنْتُ باللهِ ورُسُلِه، ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، ثم يَتْفُل عَنْ يَسارِهِ ثلاثًا، ويَستَعيذ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ، ثُمَّ ينتَهي عَنِ الانسياقِ مَعَ الوَسْوَسَةِ».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأَعْتقدُ أنَّ مَنْ فَعَلَ ذلكَ طاعةً للهِ، ورسولِهِ، مُخْلِصًا في ذَلِكَ: أنَّه لا بُدَّ أَنْ تَذْهَبَ الوَسْوَسةُ عنهُ، ويَنْدَحِرَ شيطانُهُ؛ لِقولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإنَّ ذلكَ يُذْهِبُ عَنْهُ**»[2].

---

(١) بهجة قلوب الأبرار للسعدي (ص٢٧).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٦٢٠٣)، وحسّنه الألباني في الصحيحة (١١٦).

وهذا التَّعليمُ النَّبويُّ الكَريمُ أنفَعُ وأقْطَعُ لِلوَسْوَسَةِ مِنَ المُجادَلةِ العَقليَّةِ في هذِهِ القَضيَّةِ؛ فإِنَّ المُجادلَةَ قَلَّما تَنفَعُ في مِثْلِها.

وَمِنَ المُؤسِفِ: أنَّ أكْثَرَ النَّاسِ في غَفْلَةٍ عَنْ هذا التَّعليمِ النَّبويِّ الكَريم؛ فَتَنَبَّهوا أيُّها المُسلمونَ، وتَعرَّفوا إلى سُنَّةِ نبيِّكُمْ، واعْمَلوا بِها؛ فإِنَّ فيها شِفاءَكُمْ، وعِزَّكُمْ»[1].

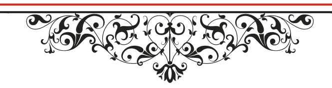


(١) السلسلة الصحيحة (١/ ٢٣٦).





الحديث الثامن



عَنْ أَبِي موسى الأشْعَريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قامَ فينا رَسولُ اللّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِماتٍ، فَقال:

«إِنَّ اللّهَ عَزَّوَجَلَّ لا يَنامُ، وَلا يَنْبَغي لَهُ أَنْ يَنامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ، وَعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[(١)].

هذا حَديثٌ عظيمٌ جليلٌ، فيهِ كثيرٌ مِنْ معاني عَظَمَةِ اللهِ تعالى، وَقيُّوميَّتِهِ على خَلْقِهِ.

وقوله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «قامَ فينا رَسولُ اللّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِماتٍ».

«الكَلِمَةُ» في كَلامِ رَسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تَعْني الجُملَةَ التَّامَّةَ، وكذَلِكَ هيَ في لُغَةِ العَرَبِ، إلَّا أَنَّ النُّحاةَ لا يُريدونَ بالكَلِمَةِ الكَلامَ، إنَّما يُريدونَ بالكلِمَةِ القَوْلَ المُفْرَدَ، فيَجْعَلونَ مِثلَ: «قامَ مُحَمَّدٌ» كَلِمَتَيْنِ.

قال شَيْخُ الإسلامِ ابْنُ تيميَّةَ رَحِمَهُٱللَّهُ: «الكَلِمَةُ في لُغَتِهِمْ -يعني لُغَةَ العَرَبِ- هيَ الجُمْلَةُ التَّامَّةُ، الجُمْلَةُ الاِسْميَّةُ، أَوِ الفِعْليَّةُ، كَما قال النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحَديثِ المُتَّفَقِ على صِحَّتِهِ: «**كَلِمَتانِ خَفيفَتانِ على اللِّسانِ، ثَقيلَتانِ في الميزانِ، حَبيبَتانِ إلى الرَّحْمَنِ:**

---

(١) رواه مسلم (١٧٩).

سُبْحانَ اللهَّ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحانَ اللهَّ العَظيم»، وَقال ﷺ: «**إنَّ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قالها الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبيدٍ: أَلا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللهَّ باطِلُ**»، وَقال: «**إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمَ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوانِ اللهَّ ما يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ، يُكْتَبُ لَهُ بِها رِضْوانُهُ إلى يَوْمِ القيامَةِ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهَّ ما يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ، يُكْتَبُ لَهُ بِها سَخَطُهُ إلى يَوْمِ القيامَةِ**»، وَقال لِأُمِّ المُؤْمِنينَ «**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِماتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِما قُلْت مُنْذُ اليَوْمَ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحانَ اللهَّ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحانَ اللهَّ رِضا نَفْسِهِ، سُبْحانَ اللهَّ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحانَ اللهَّ مِدادَ كَلِماتِهِ**»، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا**﴾ [الكهف: ٥] وَقَوْلُهُ: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا**﴾ [الفتح: ٢٦]، وقَوْلُهُ تعالَى: ﴿**يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ**﴾ [آل عمران: ٦٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿**وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا**﴾ [التوبة: ٤٠]، وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ قاتَلَ لِتكونَ كَلِمَةُ اللهَّ هيَ العُلْيا؛ فَهوَ في سَبيلِ اللهَّ**»، وَنَظائِرُهُ كَثيرَةٌ.

وَلا يوجَدُ قَطُّ في الكِتابِ، والسُّنَّةِ، وَكَلامِ العَرَبِ، لَفْظُ الكَلِمَةِ إلَّا والمُرادُ بِهِ الجُمْلَةُ التَّامَّةُ.

فَكَثيرٌ مِنْ النُّحاةِ أَوْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْرِفونَ ذَلِكَ؛ بَلْ يَظُنُّونَ أَنَّ اصْطِلاحَهُمْ في مُسَمَّى الكَلِمَةِ يَنْقَسِمُ إلى اسْمٍ، وَفِعْلٍ، وَحَرْفٍ، هوَ لُغَةُ العَرَبِ»[١].

«وَلا حَجْرَ في الاِصْطِلاحِ، ما لَمْ يَتَضَمَّنْ حَمْلَ كَلامِ اللهِ، وَرَسولِهِ، عَلَيْهِ، فَيَقَعُ بِذَلِكَ الغَلَطُ في فَهْمِ النُّصوصِ، وَحَمْلِها على غَيْرِ مُرادِ المُتَكَلِّمِ مِنْها، وَقَدْ حَصَلَ بِذَلِكَ لِلْمُتَأَخِّرينَ أَغْلاطٌ شَديدَةٌ في فَهْمِ النُّصوصِ»[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٠٤).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٧١).

وهذا يُبيِّنُ لكَ أنَّ النَّبـيَّ ﷺ أوتيَ جَوامِعَ الكَلِمِ، حتَّى إنَّهُ لَيَجْمَعُ أُصولَ العِلْمِ، وأُصولَ التَّوحيدِ، في كَلِماتٍ يَسيراتٍ جامِعاتٍ.

وَهذا الحَديثُ مِنْ ذَلِكَ.

وقولُه ﷺ: «إنَّ اللّهَ عَزَّوَجَلَّ لا ينامُ، وَلا يَنْبَغي لَهُ أَنْ يَنامَ»:

فـالله تعالى حيٌّ قيُّومٌ، والحَيُّ: ذو الحياةِ الكامِلةِ، لَمْ يَزَلْ ولا يَزالُ حيًّا، لَمْ يَسبِقْ حياتَه مَوتٌ، ولا يَلْحَقُها مَوتٌ، فهوَ الأوَّلُ، والآخِرُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والقَيُّومُ: القائمُ بذاتِهِ، لا يَحتاجُ إلى أحدٍ، والقائِمُ على غيرِه، يَحتاجُ إليْهِ كلُّ أحَدٍ، يَقومُ بأمورِ السَّماواتِ، والأرضِ، ومَنْ فيهِنَّ، وهوَ القائمُ على كلِّ شَيءٍ.

فقامَتْ بِهِ الأرضُ، والسَّمواتُ، وما فيهما مِنَ المَخلوقاتِ، فهوَ الذي أوْجدَها، وأمَدَّها، وأعَدَّها، لكلِّ ما فيهِ بقاؤُها، وصَلاحُها، وقيامُها، فهوَ الغَنيُّ عنها مِنْ كلِّ وَجهٍ، وهيَ التي افتقَرَتْ إليه مِنْ كلِّ وَجْهٍ(١).

فالحَيُّ: مَـنْ لَهُ الحياةُ الكامِلَةُ، المُستلزِمَةُ لِجميعِ صِفاتِ الذَّاتِ، كالسَّـمعِ، والبَصَرِ، والعِلْم، والقُدرَةِ، ونَحوِ ذلكَ.

والقيُّومُ: هوَ الذي قامَ بنَفْسِـه، وقـامَ بِهِ غَيرُهُ، وذلِكَ مُسـتلْزِمٌ لِجميعِ الأفعالِ التي اتَّصَفَ بها رَبُّ العالَمينَ، مِنْ فِعلِهِ ما يَشـاءُ، مِنَ الاستِواءِ، والنُّزولِ، والكَلام، والقَوْلِ، والخَلْقِ، والرِّزقِ، والإماتَةِ، والإحياءِ، وسـائِرِ أنـواعِ التدبيرِ، كُلُّ ذلكَ داخِلٌ في قَيُّوميَّةِ الباري.

ومِـنْ تمامِ حياتِهِ، وقيُّوميَّتِهِ: أنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا ينام ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فـلا ينـامُ، ولا يَنبغي له أنْ ينامَ، والنَّومُ أخو المَوْتِ، واللهُ تعالى حيٌّ كامِلُ الحَياةِ.

---

(١) الحقُّ الواضح المبين للسعدي (ص٨٧)، تفسير سورة البقرة لابن عثيمين (٣/ ٢٥١).

فَلا تعتَريهِ ﴿سِنَةٌ﴾ أي: نُعاسٌ، وَهو مقدِّمةُ النَّومِ، ﴿وَلَا نَوۡمٌ﴾؛ لأنَّ هذا نقْصٌ لا يَليــقُ باللهِ تعالى، واللهُ تعالى مُنزَّهٌ عنْ ذلكَ، ويَســتحيلُ في حقِّهِ النَّومُ؛ لأنَّ النائِمَ يَغيبُ عمَّا حولَهُ، ولا يَغيبُ على اللهِ شَيءٌ.

والنَّومُ غَفلةٌ، واللهُ لا يَغفُلُ عــنْ شَيءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والنَّومُ راحةٌ مِنَ التَّعَبِ، واللهُ تعالى مُنزَّهٌ عنْ ذلكَ، فلا يَمَسُّه إعياءٌ، ولا تَعَبٌ.

فاللهُ تعالى كامِلُ الحياةِ، كامِلُ القيُّوميَّةِ، قيُّومٌ على خلقِهِ، يُدبِّرُ أمورَهُمْ، فلا يَنبَغي لَه أنْ ينامَ، «يُدَبِّرُ الأمورَ في العالَمِ العُلويِّ، والسُّفليِّ، فيخلُقُ، ويرزُقُ، ويُغني، ويُفقِرُ، ويَرفعُ أقوامًا، ويضَعُ آخريــنَ، ويُعِزُّ، ويُذِلُّ، ويَخْفِضُ، ويَرْفَــعُ، ويُقيلُ العَثراتِ، ويُفرِّج الكُرُباتِ، ويُنفِذ الأقدارَ في أوقاتِها التي سَــبَقَ بهــا عِلْمُه، وجَرَى بها قَلَمُه، ويُرْسِلُ ملائكتَهُ الكِرامَ؛ لتدبيرِ ما جعلَهُم على تدْبيرِهِ»[1].

فكيفَ ينامُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهوَ القائِمُ على أمورِ الكَونِ، ومَن فيهِ، المُدَبِّرُ شــؤونَهُم، وأحوالَهُم؟

ولَوْ غَفَلَ لَحْظَةً -وحاشاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-؛ لَفَسَدَ الكَونُ كلُّه بمَنْ فيهِ، وما فيهِ.

وقوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَخْفِضُ القِسْطَ، وَيَرْفَعُهُ»:**

«القِسْطُ»: هو العَدْلُ، أو الميزانُ، وسُمِّي الميزانُ قِسْطًا؛ لأنَّه بالميزانِ يقعُ العَدْلُ.

والمُــرادُ بالميزانِ الذي يَخْفِضُه اللهُ تعالى ويَرفَعُه هوَ: الشَّيءُ المَوزونُ، فاللهُ تعالى يَخْفِضُ الميزانَ، ويَرْفَعُه بما يوزنُ مِنْ أرزاقِ العِبادِ النازِلَةِ مِنْ عِندِه، وأعمالِهم المُرتفِعَةِ إلَيْهِ.

فَيَخفِضُ الميزانَ تارةً بتقْتيرِ الرِّزقِ، والخِذلانِ بالمَعْصيةِ، ويَرفَعُه تارةً بتوســيعِ

---

(١) تفسير السعدي (ص٤١٢).

الرِّزقِ، والتَّوفيقِ للطَّاعةِ، عَدْلًا، وحِكمةً، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١][١].

فاللهُ تعالى يَحْكُمُ في خَلْقِه بميزانِ العَدْلِ، فمَن عَمِلَ ما يَسْتَحِقُّ الرَّفعَ رفعَهُ، ومَن عَمِلَ ما يَسْتَحِقُّ الخَفْضَ خفضَهُ.

ويُؤيِّد ذلكَ: ما ثبتَ في حَديثِ أبي هُريرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرفوعًا: «**عَرْشُهُ على الماءِ، وَبيَدِهِ الأُخْرَى الميزانُ، يَخْفِضُ، وَيَرْفَعُ**»[٢].

وَقال أَبو الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قولِه تَعالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال: «يَغْفِرُ ذَنْبًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيَرْفَعُ قَوْمًا، وَيَضَعُ آخَرينَ»[٣].

وقال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ: «**يَخفِضُ القِسطَ، ويرفَعُه**» أرادَ بِهِ أنَّه يُراعي العَدلَ في أعمالِ العِبادِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]»[٤].

وقيل: القِسْطُ هو «الرِّزقُ»، **والمعنى:** يَخْفِضُ الرِّزقَ بتَضييقِهِ، ويَرفَعُه بتَوْسيعِهِ، فيُضَيِّقُ ويوَسِّعُ؛ لِأنَّ الرِّزقَ هو «قِسْطُ» كُلِّ مَخلوقٍ، **أي:** نَصيبُه: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢][٥].

وقيلَ: «القِسْطُ» هو العَدْلُ نفسُهُ، ويُرادُ بِهِ: الشَّرائعُ، والأحْكامُ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ

---

(١) المُفهِم للقرطبي (١/ ٤٠٩)، شرح النووي على مسلم (٣/ ١٣)، مرقاة المفاتيح (١/ ١٦٥).

(٢) رواه البخاري (٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣).

(٣) علّقه البخاري في صحيحه (٦/ ١٤٤)، ووصله البيهقي في الشعب (١٠٦٧)، موقوفًا، ورواه أيضًا مرفوعًا (١٠٦٦)، وكذا رواه ابن ماجة مرفوعًا (٢٠٢)، وصوّب الدارقطني وقفه، كما في العلل (٦/ ٢٢٩).

(٤) بيان تلبيس الجهمية (٨/ ٧٨)

(٥) المُفهِم (١/ ٤٠٩)، وشرح النووي على مسلم (٣/ ١٣)، ومرقاة المفاتيح (١/ ١٦٥).

بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، أي: النَّصَفةُ في الأحكامِ، والعَدْلُ المَأمورُ بهِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

فتارةً يَرْفَعُه بمعنى: يُغَلِّبُه، ويُظْهِرُه، بوُجودِ الأنبياءِ، وأصحابِهِم، وأتباعِهِم العاملينَ بهِ، وتارةً يَخْفِضُه بمعنى: أنَّه يُذْهِبُه ويُخفيهِ بذَهابِ الشرائعِ، ورُجوعِ أكثرِ الناسِ عنِ المَشْيِ على مِنهاجِها[1].

وقولُهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عَنِ اللهِ تَعالَى: «يَخْفِضُ القِسْطَ، وَيَرْفَعُهُ» مُناسِبٌ لقولِهِ: «وَلا يَنْبَغي لَهُ أَنْ يَنامَ»**؛ إذْ كيفَ يَجوزُ عليهِ ذلكَ، وهوَ الذي يتَصرَّفُ أبدًا في مُلْكِهِ بميزانِ العَدْلِ؟![2].

فاللهُ تعالى يَخْفِضُ مَنْ يشاءُ، ويَرْفَعُ مَنْ يشاءُ، ويوَسِّعُ الرِّزقَ على مَنْ يشاءُ، ويُضَيِّقُ على مَنْ يشاءُ، ويُعِزُّ مَنْ يَشاءُ، ويُذِلُّ مَنْ يَشاءُ، بيَدِه الخيرُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا المَشهدُ يُسمِّيهِ العلماءُ: **مشهَدَ القيُّوميَّةِ**، الجامعَ لِصفاتِ الأفعالِ، وهوَ مِنْ أرفَعِ مَشاهِدِ العُلماءِ الرَّبانيِّينَ، وهوَ مَشهَدٌ مِنْ مَشاهِدِ الرُّبوبيَّةِ[3].

وقولُهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ، وَعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ»:**

وفي روايةٍ لمُسلمٍ أيضًا: «وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهارِ بِاللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهارِ».

فمعنى الرِّوايةِ الأولَى: يُرْفَعُ إليهِ عَمَلُ الليلِ قَبْلَ عملِ النَّهارِ الذي بَعدَهُ، وعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيلِ الذي بَعْدَهُ.

ومعنى الرِّوايةِ الثانيةِ: يُرْفَعُ إليهِ عَمَلُ النهارِ في أولِ اللَّيلِ الذي بَعدَهُ، ويُرْفَعُ إليهِ عَمَلُ اللَّيلِ في أولِ النَّهارِ الذي بَعدَهُ.

---

(١) المُفهِم (١/ ٤٠٩).

(٢) مرقاة المفاتيح (١/ ١٦٥).

(٣) انظر: طريق الهجرتين (ص٤٤).

فإنَّ المَلائكــةَ يَصْعَدونَ بأعمالِ اللَّيلِ بَعد انقضائِــه في أوَّلِ النَّهارِ، ويَصْعَدونَ بأعمالِ النَّهارِ بَعدَ انقضائِهِ في أوَّلِ اللَّيلِ[١].

كما في الحَديثِ: «**يَتعاقَبونَ فيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهارِ، وَيَجْتَمِعونَ في صَلاةِ الفَجْرِ، وَصَلاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الذينَ باتوا فيكُمْ، فَيَسْــأَلُهُمْ وَهوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُــمْ عِبادي؟ فَيَقولــونَ: تَرَكْناهُمْ وَهُمْ يُصَلُّــونَ، وَأَتَيْناهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»[٢].

وفي رَفْــعِ الأعمالِ إشــارَةٌ إلى **عُلوِّ اللهِ تعالى**؛ كما قــال تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ**﴾ [فاطر: ١٠]، وقــال: ﴿**ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ**﴾ [طه: ٥]، وقــال: ﴿**ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ**﴾ [الملك: ١٦]، وقــال: ﴿**سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى**﴾ [الأعلى: ١]، وقال عَنِ الملائكةِ: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ**﴾ [النحل: ٥٠].

أنواعُ رَفْعِ الأعمالِ وعرضِها على اللهِ تعالى:

دلَّتِ النُّصوصُ الشَّرعيَّةُ على أنَّ رَفْعَ الأعمالِ، وعَرضَها على اللهِ تعالى، ثلاثَةُ أنْواعٍ:

النَّــوعُ الأوَّلُ: الرَّفعُ اليوميُّ: في كلِّ يومٍ مرَّتيْنِ، مرَّة باللَّيلِ ومرَّة بالنَّهارِ، كما دلَّ عليــهِ ذلكَ الحَديثُ، فالملائكَةُ تَصعَدُ بأعمالِ اللَّيلِ في آخرِهِ في أوَّلِ النَّهارِ، وتَصعَدُ بأعــمالِ النَّهارِ بَعدَ انقضائِــهِ في أوَّلِ اللَّيلِ، فمَنْ كانَ في طاعَةٍ، بــورِكَ لَه في رِزقِهِ وعَمَلِهِ.

النَّوعُ الثَّاني: العَرْضُ الأُســبوعيُّ: فتُعــرَضُ الأعمالُ كلَّ أُســبوعٍ مرَّتينِ، يَوْمَ الاثنــيْنِ، والخَميسِ: «**تُعْرَضُ أَعْمالُ النَّاسِ في كُلِّ جُمُعَةٍ**[٣] **مَرَّتَيْنِ: يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَيَوْمَ**

---

(١) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٣).

(٢) رواه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(٣) أي: أسبوع.

الخَميسِ، فَيُغْفَرُ لِـكُلِّ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ، إلاَّ عَبْدًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخيهِ شَـحْناءُ، فَيُقالُ: اتْرُكوا هَذَيْنِ حَتَّى يَفيئا[(١)]»[(٢)].

وكانَ إبراهيمُ النَّخَعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَبكي إلى امرَأَتِهِ يَوْمَ الخَميسِ، وتبكي إلَيْهِ، ويقولُ: «اليومَ تُعرَضُ أعمالُنا على اللهِ عَزَّوَجَلَّ»[(٣)].

والنَّوعُ الثَّالثُ: العَرْضُ السَّـنويُّ: فترفَعُ أعمالُ العامِ كلِّهِ جُملةً واحِدَةً في شَـهْرِ شَعبانَ؛ كما دلَّ عليهِ حَديثُ أُسامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قُلتُ: يا رَسولَ الله، لَمْ أَرَكَ تَصومُ شَهْرًا مِنَ الشُّهورِ ما تَصومُ مِنْ شَعْبانَ؟ قال: «**ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ، وَرَمَضانَ، وَهوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فيهِ الأَعْمالُ إِلَى رَبِّ العالَمينَ؛ فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلي وَأَنا صائِمٌ**»[(٤)].

«**وَإِذا انْقَضَى الأَجَلُ؛ رُفِعَ عَمَلُ العُمُرِ كُلِّه، وَطويَتْ صَحيفَةُ العَمَلِ**»[(٥)].

ولكلِّ عَرْضٍ حِكْمَـةٌ يَعلمُها ربُّنـا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومِنَ اللهِ تعالى الرِّسـالَةُ، وَعَلَى الرَّسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البَلاغُ، وعلَيْنا التَّسليمُ.

ويُسْتحبُّ لِلمُسـلِمِ الازْديادُ مِنَ الطَّاعاتِ في أوْقاتِ الرَّفعِ، والعَرْضِ؛ فَيَصومُ يَوْمَ الاثنَيْنِ، والخَميسِ، كما كانَ هَدْيُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُكثِر الصِّيامَ في شَعبانَ، ويَتزوَّدُ بالأعمالِ الصَّالحةِ في اللَّيلِ، والنَّهارِ.

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حِجابُهُ النُّورُ**»، وفي روايةٍ: «**النَّارُ**»:

قـال اللهُ تعالى عـنْ نفسِـهِ: ﴿**ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥]، والنُّورُ

---

(١) يرجعا ويتصالحا.

(٢) رواه مسلم (٣٦).

(٣) لطائف المعارف (ص١٢٧).

(٤) رواه النسائي (٢٣٥٧)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٨٩٨).

(٥) تهذيب السنن لابن القيِّم (٢/ ٣٥٤).

مِنْ أفعالِهِ؛ فهوَ الذي يُنَوِّرُ السَّماواتِ، والأرْضَ، ومَنْ فيهنَّ، وبنورِه يَهْتَدي أهلُ السَّماواتِ، والأرضِ، وبهِ استَنارَ العَرْشُ، والكُرسيُّ، والشَّمسُ، والقَمرُ، وبهِ استنارتِ الجَنَّةُ.

والنُّورُ أيضًا مِنْ أوصافِهِ؛ فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذاتِهِ نورٌ، كما قال الإمامُ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «نونيَّتِهِ»:

نورُ السَّمواتِ العُلَى مِنْ نورِه	**والأرضُ، كيفَ النُّجومُ والقَمَرانِ**
مِنْ نورِ وَجْهِ الرَّبِّ جلَّ جلالُه	**وكذا حكاهُ الحافِظُ الطَّبَراني**
فبِهِ استنارَ العَرْشُ والكُرْسيُّ مَع	**سَبْعِ الطِّباقِ وسائرِ الأكْوانِ**
وكتابُهُ نورٌ، كذلكَ شَرْعُهُ	**نورٌ، كذا المَبعوثُ بالفُرْقانِ**
وكذلكَ الإيمانُ في قَلْبِ الفَتَى	**نورٌ على نورٍ معَ القُرآنِ**
وحِجابُهُ نورٌ، فلَوْ كَشَفَ الحِجا	**بَ لأحْرَقَ السُّبُحاتُ للأكْوانِ**
وإذا أَتَى للفَصْلِ يُشْرِقُ نورُه	**في الأرضِ يومَ قيامةِ الأبْدانِ**
وكذاكَ دارُ الرَّبِّ جنَّاتُ العُلى	**نورٌ تَلألأَ ليسَ ذا بُطْلانِ**

وقدِ احْتَجَبَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَن خَلْقِه بالنُّورِ، أوِ النَّارِ؛ لأنَّهما يَمنعانِ مِنَ الإدراكِ في العادَةِ لشُعاعِهِما، كما قال: «**حِجابُهُ النُّورُ**».

فهذا الحِجابُ الذي هوَ النُّورُ مَخلوقٌ، وهوَ الذي رَآهُ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ المِعْراجِ، وقال: «**رأيتُ نورًا**»[١].

أمَّا نورُ وَجْهِه وذاتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: فهوَ مِنْ أوصافِهِ، وصِفاتُهُ غَيرُ مَخلوقةٍ[٢].

ولِذا قال: «**لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»:

---

(١) رواه مسلم (١٧٨).

(٢) بيان تلبيس الجهميَّة لابن تيميَّة (٥/ ٤٩٠)، التبيان في أقسام القرآن لابن القيِّم (ص٢٥٧)، اجتماع الجيوش الإسلاميَّة (٢/ ٤٩).

ومعنى: «سُبُحاتُ وَجْهِه»: نورُه، وجَلالُه، وبَهاؤهُ.

وبَصَرُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحيطٌ بجَميعِ المَخلوقاتِ، لا يَفوتُه شَيْءٌ، ولا يَستُرُهُ ساتِرٌ، ولا يَحولُ دونَهُ حائِلٌ؛ فالمُرادُ بقولِهِ: «ما انْتَهى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»: جَميعُ المَخلوقاتِ.

فلَوْ كَشَفَ هذا الحِجابَ المانِعَ مِنْ رُؤيتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتَجَلَّى لخَلْقِه؛ لأَحْرَقَ نورُ وَجْهِه وجَلالُه جَميعَ مَخلوقاتِه.

ولِهذا لَمَّا تَجَلَّى تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلجَبَلِ، وكشَفَ مِنَ الحِجابِ شيئًا يَسيرًا؛ ساخَ الجَبَلُ في الأَرْضِ، وتَدَكْدَكَ، ولَمْ يقُمْ لربِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فأَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه تعالى احْتَجبَ عَنِ المَخلوقاتِ بحِجابِه النُّور، وأَنَّه لَوْ كَشفَ هذا الحِجابَ؛ لَأحرقَ نورُ وَجْهِه جَميعَ مَخلوقاتِه[١].

يَقولُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا كانَتْ سُبُحاتُ وَجْهِه الأَعْلَى لا يَقومُ لها شَيءٌ مِنْ خَلْقِه، ولَوْ كَشَفَ حِجابَ النُّورِ عنْ تِلكَ السُّبُحاتِ؛ لاحْتَرَقَ العالَمُ العُلويُّ، والسُّفليُّ؛ فما الظنُّ بجَلالِ ذلكَ الوَجْهِ الكريمِ، وعَظَمَتِه، وكِبريائِه، وكمالِه وجَلالِه؟!»[٢].

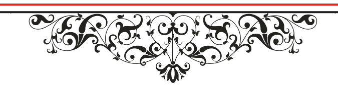


(١) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٣)، الوابل الصيِّب لابن القيِّم (ص٥١)، شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغُنيمان (١/ ١٧٣).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٨٢).



الحديث التاسع



عَـنْ أَبـي إِدْريسَ الخَـوْلانيِّ، عَـنْ أبي ذَرٍّ، عَنِ النَّبـيِّ ﷺ، فيما رَوَى عَنِ اللّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّـه قـال: «**يا عِبادي، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلمَ على نَفسي، وجَعَلْتُهُ بَينَكم مُحَرَّمًا؛ فلا تَظالَموا.**

يا عِبادي، كُلُّكم ضالٌّ إلا مَنْ هَديتُهُ؛ فاسْتَهدوني أهْدِكُم.

يا عِبادي، كُلُّكم جائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فاسْتَطْعِموني أُطعِمْكُم.

يا عِبادي، كُلُّكم عارٍ إلا مَنْ كَسوتُهُ؛ فاستَكْسوني أكْسُكُمْ.

يا عِبادي، إنَّكُم تُخْطِئونَ باللَّيلِ، والنَّهارِ، وأنا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا؛ فاستَغفِروني أَغفِرْ لكُمْ.

يا عِبادي، إنَّكم لَنْ تَبلُغوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني، ولَن تَبلُغوا نَفْعي فَتَنفَعوني.

يا عِبادي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجِنَّكُمْ، كانوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُمْ؛ ما زادَ ذَلِكَ في مُلْكي شَيْئًا.

يا عِبادي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجِنَّكُمْ، كانوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ؛ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكي شَيْئًا.

يا عِبادي، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإنْسَكُمْ، وَجِنَّكُمْ، قاموا في صَعيدٍ واحِدٍ، فَسَألوني، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْألَتَهُ؛ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدي، إلا كَما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ.

يا عِبادي، إنَّما هِيَ أَعْمالُكُمْ أُحْصيها لَكُمْ، ثُمَّ أوَفِّيكُمْ إيَّاها، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلا يَلومَنَّ إلا نَفْسَهُ»[١].

هذا حَديثٌ عَظيمٌ جَليلٌ، شَريفُ القَدْرِ، فيهِ مِنْ عَظَمةِ اللهِ، وجَلالِه، وكَمالِه، ما يَنبَغي على كلِّ مُسلمٍ تأمُّلُه، وتَدبُّره، وكانَ أَبو إِدْريسَ الخَوْلانيُّ راوي هذا الحديثِ عَنْ أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إذا حَدَّثَ بِهذا الحَديثِ؛ جَثا على رُكْبَتَيْهِ[٢].

وقال الإمامُ أحمَدُ: «هوَ أشرفُ حديثٍ لأهلِ الشَّامِ[٣]»[٤].

قوله: «يا عِبادي، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلمَ على نَفسي»:

يعني: أنَّه مَنعَ نفسَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الظُّلْم لِعبادِه؛ فاللهُ تعالى مقدَّسٌ، ومنزَّهٌ، عنِ الظُّلمِ، والظُّلْمُ مُحالٌ في حقِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

و«الظُّلْمُ»: وَضْعُ الأشياءِ في غيرِ مَوْضِعِها[٥].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ [يونس: ٤٤]، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ

(١) رواهُ مسلم (٢٥٧٧).
(٢) مسلم (٢٥٧٧).
(٣) يعني: رواته شاميُّون، وهو حديثٌ مُسلْسَل بالدِّمشقيِّين.
(٤) الأذكار للنووي (ص٤١٣)، جامع العلوم والحِكَم (٢/ ٣٤).
(٥) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٣٢)، جامع العلوم والحِكَم (٢/ ٣٥).

ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

«فأَخْبرَ عنْ تَحْريمِه على نَفْسِه، ونَفَى عنْ نفسِه فِعْلَهُ، وإرادَتَهُ»[١].

«وقدِ اتَّفَقَ أَهْلُ الأَرْضِ، والسَّماواتِ، على أَنَّ اللهَ تَعالَى عَدْلٌ لا يَظْلِمُ أَحدًا، حَتَّى أَعْـداءَهُ المُشْرِكينَ الجاحِدينَ لِصِفاتِ كَمالِهِ، فَإِنَّهُمْ مُقِـرُّونَ لَهُ بِالعَدْلِ، وَمُنَزِّهونَ لَهُ عَنِ الظُّلْمِ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَدْخُلونَ النَّارَ وَهُمْ مُعْتَرِفونَ بِعَدْلِهِ، كَما قال تَعالَى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الملك: ١١]، وَقـال تَعـالَى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]»[٢].

وعَنْ جابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسـولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُهاجِرَةُ البَحْرِ[٣]؛ قال: «**أَلا تُحَدِّثوني بِأَعاجيبِ ما رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ؟**».

قال فِتْيَةٌ مِنْهُمْ: بَلَى يا رَسـولَ الله، بَيْنا نَحْـنُ جُلوسٌ مَرَّتْ بِنا عَجوزٌ مِنْ عَجائِزِ رَهابينِهِمْ، تَحْمِلُ على رَأسِـها قُلَّةً مِنْ ماءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْها، ثُمَّ دَفَعَها فَخَرَّتْ على رُكْبَتَيْها، فانْكَسَرَتْ قُلَّتُها، فَلَمَّا ارْتَفَعَت[٤] التَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقالتْ: سَـوْفَ تَعْلَمُ يا غُدَرُ[٥] إذا وَضَعَ اللهُ الكُـرْسِيَّ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ، والآخِرينَ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدي، والأَرْجُلُ، بِما كانوا يَكْسِـبونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْري وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا!

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٦).
(٢) مختصر الصواعق المرسلة (ص٢٣١).
(٣) الذين هاجروا إلى الحَبَشَة.
(٤) يعني: المرأة.
(٥) يا غادر.

فقال رَسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَدَقَتْ، صَدَقَتْ! كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لا يُؤْخَذُ لِضَعيفِهِمْ مِنْ شَديدِهِمْ؟**»(١).

وقال تعالى: ﴿**شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ**﴾ [آل عمران: ١٨].

واللهُ تعالى أقامَ السَّمواتِ والأرضَ على أساسِ العَدْلِ، والحقِّ، قال تعالى: ﴿**مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ**﴾ [الأحقاف: ٣]، وقال: ﴿**وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ**﴾ [الرحمن: ٧-٩]؛ أي: «خلقَ السَّمواتِ، والأرضَ، بالحقِّ، والعَدلِ؛ لتكونَ الأشياءُ كلُّها بالحَقِّ، والعَدلِ»(٢).

وكَلِماتُه كلُّها عَدْلٌ: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا**﴾ [الأنعام: ١١٥]، قال قَتادةُ: «صِدْقًا فيما قال، وَعَدْلًا فيما حَكَمَ»(٣).

وأحْكامُه عَدْلٌ، وحقٌّ، وشريعتُه كلُّها عَدْلٌ، وسماحةٌ، وحِكْمةٌ، ومصلحةٌ: ﴿**وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ**﴾ [غافر: ٢٠].

وأمرُه ونهيُهُ عَدْلٌ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٩٠].

ويومَ القيامةِ يجمعُ اللهُ عبادَه، ويفْصِلُ بينَهُم بالحُكمِ العادِلِ: ﴿**وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ**﴾ [الأنبياء: ٤٧].

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١١)، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٢).

ولَمَّا حرَّمَ اللهُ تعالى الظُّلْمَ على نفسِهِ، حرَّمَه على عبادِهِ:

«وجَعَلْتُهُ بَينَكُم مُحَرَّمًا، فلا تَظالَموا»:

أي: لا تَتَظالَموا، والمُرادُ: لا يَظْلِمْ بَعضُكُم بَعضًا، وهوَ تَوْكيدٌ لِقَوْلِهِ: **«وجَعلتُه بينَكُم مُحرَّمًا»**، وزيادةُ تغليظٍ في تحريمِهِ[1].

فَحرَّمَ اللهُ تعالى الظُّلْمَ على عبادِهِ، ونهاهُم أنْ يَتَظالَموا فيما بينَهُمْ، فحَرامٌ على كلِّ عَبْدٍ أنْ يَظْلِمَ غَيْرَه، مَعَ أنَّ الظُّلْمَ في نفسِهِ مُحَرَّمٌ مُطلقًا، **وهوَ نَوعانِ:**

أَحَدُهُما: ظُلْمُ النَّفسِ بالذُّنوبِ، والمَعاصي، على اختِلافِ أنواعِها، وأعظَمُهُ الشِّرْكُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؛ فإنَّ المُشْرِكَ جَعَلَ المَخلوقَ في مَنزِلَةِ الخالقِ، فعَبَدَه، وتَأَلَّهَه، فهوَ وَضْعُ الأشياءِ في غَيرِ مَوْضِعِها.

والثاني: ظُلْمُ العبدِ لِغَيرِه، وهوَ المَذكورُ في هذا الحَديثِ[2].

وفي حَديثٍ آخرَ: «**الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يَوْمَ القيامَةِ**»[3]، وفي حَديثٍ آخرَ: «مَنْ كانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخيهِ، مِنْ عِرْضِهِ، أَوْ شَيْءٍ؛ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لا يَكونَ دينارٌ، وَلا دِرْهَمٌ، إنْ كانَ لَهُ عَمَلٌ صالِحٌ، أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَناتٌ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئاتِ صاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ»[4].

قولُه: «يا عِبادي، كُلُّكُم ضالٌّ إلا مَنْ هَديتُهُ؛ فاسْتَهدوني أهدِكُم.

يا عبادي، كُلُّكُم جائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فاسْتَطْعِموني أُطعِمْكُم.

يا عِبادي، كُلُّكُم عارٍ إلا مَنْ كَسوتُهُ؛ فاستَكْسوني أكْسُكُمْ.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٣٢).
(٢) جامع العلوم والحِكَم (٢/ ٣٦).
(٣) رواه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩).
(٤) رواه البخاري (٢٤٤٩).

يا عِبادي، إنَّكُم تُخْطِئونَ باللَّيلِ، والنَّهار، وأنا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا؛ فاستَغفِروني أغفِرْ لكُمْ»:

وفي روايةٍ: «يا بَني آدَمَ، كُلُّكُمْ كانَ ضالًّا إلَّا مَنْ هَدَيْتُ، وَكُلُّكُمْ كانَ عاريًا إلَّا مَنْ كَسَوْتُ، وَكُلُّكُم كانَ جائِعًا إلَّا مَنْ أَطعَمْتُ، وَكُلُّكُمْ كانَ ظَمْآنًا إلَّا مَنْ سَقَيْتُ؛ فاسْتَهْدوني أَهْدِكُمْ، واسْتَكْسوني أَكْسُكُمْ، واسْتَطْعِموني أُطْعِمْكُمْ، واسْتَسْقوني أَسْقِكُمْ»[1].

فبيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ جميعَ الخَلْقِ مُفتَقِرونَ إليْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في جَلْبِ مَصالِحِهم، ودَفْعِ مَضارِّهم، في أمورِ دينِهم، ودُنياهُم.

وأنَّ العِبادَ لا يَمْلِكونَ لأنفُسِهم شَيئًا مِنْ ذلِكَ كُلِّه، وهو يَرجِعُ إلى معنى: «لا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ».

وأنَّ مَنْ لَمْ يتفضَّلِ اللهُ عليهِ بالهُدَى، والرِّزقِ؛ فإنَّه يُحْرَمُهُما في الدُّنيا، ومَن لَمْ يتفضَّلِ اللهُ عليهِ بمَغْفِرَةِ ذنوبِهِ؛ أوبَقَتْهُ خَطاياهُ في الآخِرَةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، وقال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال تعالى حاكيًا عن آدمَ وزوجِه أنَّهما قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقد استدلَّ إبراهيمُ الخَليلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بتفرُّدِ اللهِ بهذِهِ الأمورِ على أنَّه لا إلهَ غيرُه، وأنَّ كلَّ ما أُشْرِكَ معه فباطِلٌ؛ فقال لقَوْمِهِ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢١٤٢٠)، وصحَّحَ إسنادَه محقِّقو المسند.

﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢].

فـإِنَّ مَنْ تفرَّدَ بخَلْـقِ العبدِ، وبهدايتِـهِ، وبرِزْقِهِ، وإحيائِهِ، وإماتَتِـهِ، في الدُّنيا، وبمَغْفِرَةِ ذنوبِه في الآخِرَةِ؛ مُسْـتَحِقٌّ أن يُفرَدَ بالإِلَهيَّةِ، والعِبادةِ، والسُّؤالِ، والتضرُّعِ إليْهِ، والاستكانَةِ لَهُ.

قـال تعـالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠][1].

فخَزائِنُ الأشياءِ كلِّها بَيدِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]، يُدبِّرُ الأمْرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فاللهُ تعالى يَهْدي مَنْ يَشـاءُ، ويُضِلُّ مَنْ يَشاءُ، ويَغفِر لَمنْ يَشـاءُ، ويُعذِّبُ مَنْ يَشـاءُ، ويَرْحَمُ مَن يَشاءُ، ويُعْطي مَنْ يَشـاءُ، ويَمنَعُ مَنْ يَشاءُ، ويَخْفِضُ مَنْ يَشـاءُ، ويَرْفَعُ مَنْ يَشاءُ، ويوَسِّعُ الرِّزقَ على مَنْ يَشاءُ، ويُضَيِّقُ على مَن يَشاءُ، ويُعِزُّ مَن يَشاءُ، ويُذِلُّ مَنْ يَشاءُ، بيَدِه الخيرُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا يوجِبُ مِنَ العِبادِ أنْ يُفْرِدوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعِبادةِ، وأنْ يَتوكَّلوا عليْهِ في جَلْبِ النَّفعِ، ودَفْعِ الضَّرِّ، وأنْ يُعَلِّقوا آمالَهُم ورجاءَهُم بِهِ وحدَه في حُصولِ كُلِّ ما يُحِبُّونَ، ودَفْعِ كلِّ ما يَكرَهونَ، وأنْ لا يَسألوا أحَدًا غيرَه[2].

وفي قَوْلِ اللهِ تَعالَى: «**فاسْتَهدوني أهدِكُم**»، «**فاسْتَطْعِموني أُطعِمْكُم**»، «**فاستَكْسوني أكْسُكُمْ**»، «**فاستَغفِروني أغفر لكُمْ**» دليلٌ على:

أنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ أنْ يسـألَه العِبادُ جميعَ مَصالِح دينِهِـم، ودُنياهُمْ، مِنَ الطَّعامِ، والشَّرابِ، والكِسْوةِ، وغيرِ ذلكَ، كما يَسألونَهُ الهِدايةَ، والمَغفِرةَ.

---

(١) جامع العلوم والحِكَم (٢/ ٣٧)، وشرح الأربعين المنسوب لابن دقيق العيد (ص٨٨).

(٢) القواعد الحِسان للسعدي (ص٥٠).

وقَدْ رويَ في الحَديثِ: «**لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حاجَتَهُ كُلَّها، حَتَّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إذا انْقَطَعَ**»[١].

وكانَ بعضُ السَّلَفِ يسألُ اللهَ في صلاتِه كلَّ حوائِجِهِ، حتى مِلْحَ عَجينِه، وعَلَفَ شاتِهِ[٢].

وقولُـهُ تعالى: «يا عِبـادي، كُلُّكم ضـالٌّ إلا مَنْ هَديتُهُ؛ فاسْـتَهدوني أهدِكُم»:

كَرَّر قولَه: «**يا عبادي**»؛ للتنبيهِ على فخامَتِه، والاعتناءِ بشـأنِهِ، وأنَّ مِن مُقتَضَى عبوديَّةِ العبادِ: الافتقارَ إلى مُراعاةِ حقِّ الرُّبوبيَّةِ[٣].

ودَلَّ هذا على: أنَّ الشَّـأنَ في الناسِ الضَّلالُ إلَّا مَنْ هَدَى اللهُ تعالى، فيترَتَّبُ على ذلِكَ: أنَّ الإنسانَ إذا رَأَى عندَهُ آثارَ هُدى، فَلْيَعْلَمْ أنَّ ذلكَ مِنْ عندِ اللهِ تعالى، وكُلَّما ازدادَ هدًى، تَعيَّنَ عليْهِ أنْ يَزدادَ شُكرًا، وحمدًا، للهِ تعالى؛ فلا هاديَ إلا اللهُ:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ ما اهْتَدَيْنا وَلاَ تَصَـدَّقْنا وَلاَ صَـلَّيْنا

ولِذا قال: «**فاسْتَهدوني أهدِكُم**» **أي**: اطلُبوا منِّي الهِدايةَ؛ أَهْدِكُمْ.

والمعنى: أَهديكُم إذا استَهْدَيتُموني، فإذا استهديتَني أيُّها العبدُ فهَدَيتُك؛ عرَّفتُك أنِّي أجَبْتُ الدُّعاءَ، وأَعْطيتُك ما سَـأَلتَ، فتعرَّفتُ إليْكَ بذَلِك، ولَمْ تَغْتَرَّ بنفسِكَ، وتقُلْ كما قال القائلُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨][٤].

فكلُّ أحَدٍ مُضطرٌّ إلى هِدايةِ ربِّه في جَميعِ أحوالِه، بأنْ يُسَدِّدَه في أخلاقِه، وأقوالِه،

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٠٤)، وضعَّفه الألباني.

(٢) جامع العلوم والحِكَم (٢/ ٣٨).

(٣) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦١١).

(٤) الإفصاح لابن هُبيرة (٢/ ١٨٦).

وأفعالِـه، وكانَ مِنْ دُعاءِ النَّبـيِّ ﷺ: «**اهْدِنِي لِأَحْسَـنِ الأَخْلاقِ، لا يَهْدِي لِأَحْسَنِها إِلَّا أَنْتَ، واصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَها، لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَها إِلَّا أَنْتَ**»[1].

ودعا بأرْبَعِ كَلِماتٍ تَجْمَعُ للعَبْدِ خيرَيِ الدِّينِ، والدُّنيا: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى، والتُّقَى، والعَفافَ، والغِنَى**»[2].

فالهُدَى هوَ: العِلْـمُ النَّافعُ، والتُّقى: العَملُ الصَّالحُ، وتَـرْكُ المُحرَّماتِ كلِّها. وهذا صَلاحُ الدِّينِ، فالهِدايةُ التامَّةُ هيَ الهِدايةُ للعِلْمِ النَّافعِ، والعَملِ الصَّالحِ.

وتمامُ ذلكَ بصَلاحِ القَلْبِ، وطُمأنينَتِه، بالعفافِ عنِ الخَلْقِ، والغِنى باللهِ، وعَدمِ تعلُّقِ القلبِ بالنَّاسِ، وبِالعَفافِ، والغِنى، يتمُّ للعبدِ الحياةُ الطيِّبةُ، والنعيمُ الدُّنيويُّ، والقناعةُ بما آتاهُ اللهُ[3].

وقولُهُ تعالى: «يا عبادي، كُلُّكُم جائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فاسْـتَطْعِموني أُطعِمْكُم»:

يَعنـي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أنَّه خَلقَ الخَلْـقَ ذَوي فَقْرٍ إلى الطَّعـامِ، وأنَّ كلَّ طاعِمٍ، فإنَّه كانَ جائعًا حتَّـى أطعمَهُ اللهُ تعالى بأنْواعٍ، مِنها: سَـوْقُ الـرِّزقِ، ومِنها: تَصحيحُ الآلةِ المُتناولةِ لذلكَ الرِّزقِ، فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَســوقُ إليـكَ الأطعِمةَ، ويُهَيِّئُ آلاتِ استِطْعامِكَ لتناوُلِها، ويَلْطُفُ بكَ حتَّى يُخَلِّصَكَ مِنْ أثقالِها.

وقولُهُ: «اسْـتَطْعِموني» أي: اطلُبوا الرِّزقَ مِنِّي، ولا يَسـتَنْكِفْ حَيٌّ، ولا ذو كَثْرَةٍ أن يَسْـتَطْعِمَني؛ فإنَّ ذلكَ جَهْلٌ منهُ، وظنٌّ باطِلٌ أنَّ ذلكَ الذي في يدِهِ مِنَ الرِّزقِ، والطَّعامِ، يُطْعِمُه إيَّاهُ غَيري.

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٣) الفواكه الشهيَّة للسعدي (ص٢٧٧)، وبهجة قلوب الأبرار له (ص٨٩، ٢٠٥).

وفيهِ: تَوجيهٌ وتَأديبٌ للفُقراءِ، وكأنَّه قال: لا تَطلُبوا الطَّعامَ مِنْ غيري، فكلُّ هؤلاءِ الذينَ تَطلبونَ مِنْهُم أنا أطْعِمُهم؛ «فاسْتَطْعِموني أُطْعِمْكم»[(١)].

وقولُه تعالى: «يا عِبادي، كُلُّكُم عارٍ إلا مَنْ كَسَوتُهُ؛ فاستَكْسُوني أكْسُكُمْ»:

فالكُلّ مُحتاجٌ إلى سترِ عَوْرَتِه، والتنعُّم بأنواعِ اللِّباسِ، والزِّينةِ، واللهُ تعالى هوَ الذي يَكْسو مِنْ عُرْيِ الجَسَدِ، وقد يكْسو بالسَّتْرِ الجَميلِ، ويكْسو بالتَّقوى، وهي خَيرُ لِباسٍ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فاطْلُبوا مِنَ اللهِ تعالى الكِساءَ الجَميلَ الطَّاهِرَ، لا مِنْ غَيْرِهِ، ومَنْ كَساهُ اللهُ تعالى لِباسَ التَّقوى لَمْ يَقْدِرْ أحَدٌ أنْ يَنْزِعَه عنْهُ[(٢)].

وقولُهُ تعالى: «يا عِبادي، إنَّكُم تُخْطِئونَ باللَّيلِ، والنَّهارِ، وأنا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا؛ فاستَغْفِروني أغفِرْ لكُمْ»:

ومعنى الاسْتِغفارِ: طَلَبُ المغفِرَةِ، والعبدُ أحْوَجُ شَيءٍ إلى ذلكَ؛ لأنَّه يُخْطِئُ باللَّيلِ، والنَّهارِ[(٣)].

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]،

---

(١) الإفصاح (٢/ ١٨٦).

(٢) الإفصاح (٢/ ١٨٧)، مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦١١).

(٣) جامع العلوم والحِكَم (٢/ ٤١).

﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء: ١١٠]، وقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢].

وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**واللهِ، إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتوبُ إِلَيْهِ في اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعينَ مَرَّةً**»(١).

وفي روايةٍ: «**وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ في اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(٢).

وفي الحَديثِ: «**والذي نَفْسي بيَدِهِ، لَوْ أَخْطاتُمْ حَتَّى تَمْلَأَ خَطاياكُمْ ما بَيْنَ السَّماءِ، والأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمُ اللهَ؛ لَغَفَرَ لَكُمْ، والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُخْطِئوا؛ لَجاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُخْطِئونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»(٣).

وفي الحَديثِ القُدسيِّ: «**يا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ ما دَعَوْتَني، وَرَجَوْتَني، غَفَرْتُ لَكَ على ما كانَ فيكَ وَلا أُبالي، يا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ(٤) ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَني؛ غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبالي، يا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَني بِقُرابِ الأَرْضِ(٥) خَطايا، ثُمَّ لَقيتَني لا تُشْرِكُ بي شَيْئًا؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرابِها مَغْفِرَةً**»(٦).

وتَأَمَّلْ قَولَه: «**وَأَنا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا؛ فاستَغفِروني**»، كيفَ ذكَرَ «الذُّنوبَ» بالألفِ واللامِ التي تُفيدُ الاستِغراقَ، وأكَّدَها بقولِهِ: «جميعًا»، ذكَرَ ذلك قبلَ أنْ يأمُرَنا باستغفارِهِ؛ حتَّى لا يَقْنَطَ أحدٌ مِنْ رحمةِ اللهِ، لعظيمِ ذنبٍ ارتكبَهُ!(٧).

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢)، من حديث الأغرّ المزني رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٣) رواه الإمام أحمد (١٣٥١٨)، وحسَّنه لغيره الألبانيُّ في الصحيحة (١٩٥١)، وشطره الثاني أصله في صحيح مسلم (٢٧٤٩).

(٤) سَحابها وما ظهرَ لك منها.

(٥) مِثلها وما يُقارِبها.

(٦) رواه الترمذي (٣٥٤٠)، وحسَّنه لغيره الألبانيُّ في صحيح الترغيب (١٦١٦).

(٧) الإفصاح (٢/ ١٨٧).

فاللهُ تعالى غَفورٌ رَحيمٌ، يَستُرُ على المُذنِبينَ، والعاصينَ: «فمِن رحمتِه، وكرَمِه، وكمالِه، وحِلْمِه: أنَّ العبدَ يُجاهِرُ بالمَعاصي معَ فَقرِه الشَّديدِ إليْهِ، حتَّى إنَّه لا يُمكِنُهُ أنْ يَعْصيَ إلَّا أنْ يتقوَّى عليها بنِعَمِ ربِّهِ.

والرَّبُّ معَ كمالِ غِناهُ -مِنْ كرَمِهِ- يَستحيي مِنْ فَضْحِ عبدِهِ، فيَسْتُرُه بسِترِه، فهو يَتحبَّب إلى عبادِه بالنِّعَمِ، وهُمْ يتبغَّضون إليهِ بالمَعاصي»[1].

وقولُه تعالى: «يا عِبادي، إنَّكم لَـن تَبلُغوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني، ولن تَبلُغوا نَفْعي فَتَنفَعوني»:

يعنـي: أنَّ العِبادَ لا يَقْدِرونَ أن يوصِلوا إلى اللهِ تعالى نفعًا، ولا ضَرًّا؛ فإنَّ اللهَ تعالى في نَفْسِه غنيٌّ حَميدٌ، لا حاجَةَ له بطاعاتِ العِبادِ، ولا يَعودُ نفعُها إلَيْهِ، وإنَّما هُم يَنْتَفِعونَ بها، ولا يَتضرَّرُ بمَعاصيهِم، وإنَّما هُم يَتضرَّرونَ بها.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وهذِهِ الجُملةُ مِنَ الحديثِ جاءَتْ بعدَ قولِهِ: «يا عِبادي، إنَّكُم تُخْطِئونَ باللَّيلِ، والنَّهارِ، وأنا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا؛ فاستَغفِروني أغفِرْ لكُمْ»، وما قَبلَها؛ إشارةً إلى أنَّ اللهَ تعالى يغفِرُ ذنوبَ وزلَّاتِ عبادِهِ، ويُجيبُ دعوتَهُمْ، ويفرِّج كُرُباتِهِم، ويَهْديهِم، ويُطْعِمُهُم، ويكسوهُم، لا لجَلْبِ مَنفعةٍ مِنهم، ولا لِدَفعِ مَضرَّةٍ يَتوقَّعُها مِنهُمْ، كما

(١) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص١٩٣)، بتصرف.

هـيَ عادةُ المَخْلوقِ الضَّعيفِ، الـذي يَنفعُ غَيْرَه ليُكافِئَه بنفعٍ مثلِـهِ، أوْ ليَدْفَعَنهُ ضَررًا.

بَل هــوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الغَنيُّ الحَميدُ، الذي بيدِه مَقاليدُ الأمــورِ، وهوَ منزَّهٌ عنْ كلِّ نَقصٍ، وعَيْبٍ.

وإذا كانَ الخَلْــقُ عاجِزين عـمَّا يقدِرونَ عليهِ مِنَ الأفعالِ إلَّا بأمرِهِ، وتَيْســيرِهِ، فكيــفَ بما لا يَقْدِرونَ عليهِ؟! فكيفَ يبلُغون نَفْعَ الغنيِّ الحَميدِ الصَّمدِ، أو ضرَّهُ؟! حاشاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لكــنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ مِنْ عبــادِهِ أنْ يتَّقوهُ، ويُطيعوهُ، ويَكــرَهُ مِنْهُم أنْ يَعْصوه، ويُخالِفوا أمرَهُ، معَ غِناهُ عنْ طاعاتِهم، وتوبَتِهم إليْهِ، وإنَّما يَعودُ نفعُ ذلكَ إليْهِمْ دونَه.

وهذا مِنْ كمالِ جودِهِ، وإحسانِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى عِبادِهِ، ومحبَّتِه لنَفْعِهِم، ودفعِ الضَّررِ عنهُمْ؛ فهوَ يُحِبُّ مِنْ عبادِهِ أنْ يَعْرِفوه، ويُحِبُّوه، ويَخافوه، ويتَّقوه، ويُطيعوه، ويَتقرَّبوا إلَيْهِ، ويُحِبُّ أنْ يَعْلَموا أنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ غيرُهُ، وأنَّه قادِرٌ على مغفرةِ ذُنوبِ عبادِهِ[1].

وقولُــه تعالى: «يا عِبادي، لَــوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَــكُمْ، وَجِنَّكُمْ، كانوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُمْ؛ ما زادَ ذَلِكَ في مُلْكي شَيْئًا.

يا عِبادي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَــكُمْ، وَجِنَّكُمْ، كانوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ؛ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكي شَيْئًا»:

المعنــى: أنَّ مُلْكَ اللهِ تعالى لا يَزيدُ بِطاعَةِ الخَلْــقِ، ولَوْ كانوا كلُّهُم بَرَرةً أتقياءَ، قُلوبُهــم على قَلبِ أتقَى رَجُلٍ مِنهُمْ، ولا يَنقُصُ مُلْكُــه بمَعصيَةِ العاصينَ، ولَوْ كانَ الجِنُّ والإنسُ كلُّهم، عُصاةً فَجَرةً، قُلوبُهم على قَلبِ أفْجَرِ رجلٍ مِنْهُمْ.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٩٠)، جامع العلوم والحِكَم (٢/ ٤٣).

فإنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الغَنيُّ بذاتِهِ عمَّنْ سِواهُ، ولَه الكَمالُ المُطلَقُ في ذاتِه، وصِفاتِه، وأفعالِه، فمُلْكُه مُلكٌ كاملٌ، لا نَقْصَ فيهِ بوَجْهٍ مِنَ الوُجوهِ، على أيِّ وَجْهٍ كانَ.

فلَوْ أنَّ جَميعَ الخَلْقِ كانوا على صِفَةِ أكمَلِ خَلْقِه مِنَ البِرِّ، والتَّقوى؛ لَمْ يَزِد ذلكَ في مُلْكِه شيئًا، ولا قَدْرَ جَناحِ بَعوضةٍ.

ولَوْ كانوا على صِفَةِ أنقَصِ خَلْقِه مِنَ الفُجورِ؛ لَمْ ينقُصْ ذلكَ مِنْ مُلْكِه شَيئًا.

فَدَلَّ على أنَّ مُلْكَه كامِلٌ على أيِّ وجهٍ كانَ، لا يَزدادُ ولا يَكْمُلُ بالطَّاعاتِ، ولا يَنقُصُ بالمعاصي، ولا يُؤثِّر فيهِ شَيءٌ، فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الغَنيُّ الحَميدُ.

وفي قولِهِ: «عَلَى أَتْقى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُمْ»، **وقولِهِ:** «عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ» **دَليلٌ على:** أنَّ الأصلَ في التَّقوى، والفُجورِ، هوَ القلبُ، فإذا بَرَّ القلْبُ واتَّقى بَرَّتِ الجَوارحُ، وإذا فَجَرَ القَلبُ، فجَرَتِ الجَوارِحُ؛ كما قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**التَّقْوى هاهُنا**»، وأشارَ إلى صَدْرِه[1][2].

وقولُه تعالى: «يا عِبادي، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجِنَّكُمْ، قاموا في صَعيدٍ واحِدٍ، فَسَأَلوني، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدي، إلا كَما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ»:

والمَقصودُ بهذا: ذِكْرُ كَمالِ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكَمالِ مُلْكِه، وأنَّ مُلْكَه، وخزائنَه، لا تنفَدُ ولا تنقُصُ بالعَطاءِ، ولَوْ أَعطَى الأوَّلينَ، والآخِرينَ، مِن الجِنِّ، والإنسِ، جميعَ ما سألوهُ في مَقامٍ واحِدٍ.

وفي ذلكَ: حَثٌّ لِلخَلْقِ على سُؤالِه، وإنزالِ حَوائجِهِم بِهِ[3].

---

(١) مسلم (٢٥٦٤).

(٢) جامع العلوم والحِكَم (٢/ ٤٦).

(٣) جامع العلوم والحِكَم (٢/ ٤٧).

وفي الحَديثِ: «يَدُ اللهِ مَلْأَى، لا يَغيضُها[1] نَفقةٌ، سَحَّاءُ[2] اللَّيْلَ، والنَّهارَ، أَرَأَيْتُمْ ما أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمواتِ، والأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ ما في يَدِهِ»[3].

وقال ﷺ: «إذا دَعا أَحَدُكُم فَلا يَقُلْ: اللهُمَّ اغْفِرْ لي إنْ شِئْتَ؛ وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطاهُ»[4].

وقولُه: «ما نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدي، إلا كَما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ»:

هذا تقريبٌ إلى الأفهامِ، ومعناهُ: لا ينقُصُ شَيئًا أصْلًا، فإنَّ البَحْرَ إذا غُمِسَ فيهِ إبرَةٌ، ثُمَّ أُخْرِجَتْ؛ لَمْ ينقُصُ مِنَ البَحرِ بذلكَ شَيْءٌ.

وكذلِكَ لَوْ فُرِضَ أنَّه شَرِبَ مِنهُ عُصفورٌ مَثَلًا؛ فإنَّه لا يَنقُصُ البَحْرُ أَلْبَتَّةَ؛ لِأَنَّ البَحْرَ لا يَزالُ تَمُدُّه مياهُ الدُّنيا، وأنهارُها الجاريَةُ، فمَهْما أُخِذَ منهُ لَمْ ينقُصْهُ شَيءٌ؛ لأنَّه يَمُدُّه ما هوَ أزيدُ مِمَّا أُخِذَ مِنهُ.

فما عنـدَ اللهِ لا يَدْخُلُه نَقصٌ ألبتَّةَ؛ كما قال تعـالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال ﷺ: «يَدُ اللهِ مَلْأَى، لا يَغيضُها[5] نَفَقَةٌ»[6].

وإنَّما يَدخُلُ النَّقصُ المَحْدودَ الفاني، وعطاءُ اللهِ تعالى مِنْ رَحْمَتِه، وكَرَمِهِ، وليسَ فيهِما نَقصٌ بوَجْهٍ مِنَ الوُجوهِ.

فضَرَبَ المَثَلَ بالمِخْيَطِ في البَحْرِ؛ لأنَّه غايَةُ ما يُضْرَبُ به المَثَلُ في القِلَّةِ،

(١) ينقُصها.

(٢) دائمة العطاء.

(٣) رواه البخاري (٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣).

(٤) رواه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) واللفظ له.

(٥) ينقُصها.

(٦) البخاري (٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣).

والمَقصودُ التَّقريبُ إلى الأفْهامِ بما شاهَدوهُ؛ فإنَّ البَحْرَ مِنْ أعظَمِ المَرئيَّاتِ عيانًا، وأكبَرِها، والإبرَةُ مِنْ أصغَرِ المَوجوداتِ، معَ أنَّها صَقيلةٌ لا يَتعلَّق بِها ماءٌ.

واللهُ تعالى يقولُ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا أرادَ شيئًا مِنْ عَطاءٍ، أو عَذابٍ، أو غيرِ ذلكَ؛ قال له: كُنْ فكانَ، فكيفَ يُتَصَوَّر أنْ ينقُصَ هذا؟ وكذَلِكَ إذا أرادَ أنْ يَخْلُقَ شيئًا قال له: كُنْ فَيكونُ[1].

فإذا كانَ هذا عَطاءَ اللهِ، ومُلْكَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فكيفَ يُسأَلُ المَخلوقُ الفَقيرُ العاجِزُ، ويُتْرَكُ الغَنيُّ القادِرُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

وقولُه تعالى: «يا عِبادي، إنَّما هيَ أَعْمالُكُمْ أُحْصيها لَكُمْ، ثُمَّ أوَفِّيكُمْ إيَّاها»:

كانَ مِنْ تمامِ حِكمَةِ اللهِ تعالى، وحُجَّتِه على خَلْقِهِ: أنَّه أحصَى عليهِمْ أعمالَهم؛ فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحَسيبُ، الحَفيظُ، الرَّقيبُ، الشَّهيدُ، وأمرَ مَلائكتَهُ الكِرامَ الكاتِبينَ بكِتابَةِ أعمالِ العِبادِ، خَيرِها، وشَرِّها، صَغيرِها، وكَبيرِها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

فاللهُ تعالى يُحْصي أعمالَ العِبادِ، أي: يَحفَظُها، ويكتُبُها، ثُمَّ يوفِّيهِم إيَّاها، أي: يُعطيهِم جَزاءَ أعمالِهِم وافيًا تامًّا يَوْمَ القيامَةِ: إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٣٣)، جامع العلوم والحِكَم (٢/ ٤٩).

﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣][(١)].

وقولُه: «فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلا يَلومَنَّ إلا نَفْسَهُ»:

في هذا: «إشارةٌ إلى أنَّ الخيرَ كلَّهُ مِنَ اللهِ فضلٌ مِنهُ على عَبْدِهِ، مِنْ غَيرِ استِحقاقٍ لَهُ، والشَّرَّ كلَّه مِنْ عِندِ ابنِ آدَمَ، مِنِ اتِّباعِ هَوَى نفسِهِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال عَليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يَرجو عَبدٌ إلَّا رَبَّهُ، ولا يَخافَنَّ إلَّا ذنبَهُ».

فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا أرادَ تَوفيقَ عَبْدٍ، وهِدايتَهُ؛ أعانَه، ووَفَّقَهُ لطاعَتِهِ، فكانَ ذَلِكَ فَضْلًا مِنْهُ، وإذا أرادَ خِذلانَ عبدٍ؛ وكَّلَه إلى نفسِهِ، وخَلَّى بَيْنَهُ وبَيْنَها، فأَغْواهُ الشَّيطانُ؛ لِغَفْلَتِهِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، واتَّبَعَ هَواهُ، وكانَ ذلكَ عَدْلًا مِنَ اللهِ تعالى؛ فالحُجَّةُ قائمَةٌ على العبدِ بإنزالِ الكِتابِ، وإرسالِ الرَّسولِ، فما بَقيَ لأحَدٍ مِنَ الناسِ على اللهِ حُجَّةٌ بَعدَ الرُّسُلِ.

وفي الدُّنيا: المُسلِمُ مأمورٌ بحَمْدِ اللهِ على ما وَجَدَه مِنْ جزاءِ الأعمالِ الصَّالحَةِ الذي عُجِّلَ لهُ في الدُّنيا، كالحَياةِ الطيِّبةِ، وتَيْسيرِ الأمورِ، ونَحوِ ذَلِكَ، ومأمورٌ بلَوْمِ نفسِهِ على ما فَعَلَتْ مِنَ الذُّنوبِ التي وَجَدَ عاقِبَتَها في الدُّنيا، كالمَصائِبِ، والهُمومِ، والغُمومِ، وحِرْمانِ الرِّزقِ، والعِلْمِ، ونَحوِ ذلِكَ.

فالمُؤمنُ إذا أصابَهُ في الدُّنيا بَلاءٌ؛ رَجَعَ إلى نفسِهِ باللَّوْمِ، ودَعاهُ ذلكَ إلى الرُّجوعِ إلى اللهِ بالتَّوبَةِ، والاستِغْفارِ.

(١) جامع العلوم والحِكَم (٢/ ٥١).

وفي الآخِرَةِ: مَنْ وَجَدَ خَيْرًا؛ فإنَّه يَحْمَدُ اللهَ تعالى، ومَنْ وَجَدَ غَيرَ ذَلكَ يَلومُ نفسَهُ حينَ لا يَنْفَعُهُ اللَّوْم(١).

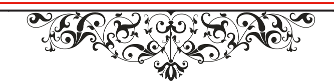
فالمُسلِمُ يُحاسِبُ نفسَه في الدُّنيا قَبْلَ القُدومِ على اللهِ تعالى، ويُقدِّمُ لنفسِه ما يَسُرُّه أنْ يَجِدَه في صَحيفَتِهِ يَوْمَ القيامَةِ، ويَتدارَكُ التَّقصيرَ، والتَّفريطَ، قَبلَ أنْ لا يَنفَعَ النَّدَمُ.



(١) جامع العلوم والحِكَم (٢/ ٥١)، باختصار وتصرُّف.



الحديث العاشر



عَـنْ سُـهَيْلِ بنِ أبي صالِحٍ، قـال: كـانَ أَبـو صالِحٍ يَأْمُرُنـا، إِذا أَرادَ أَحَدُنا أَنْ يَنامَ، أَنْ يَضْطَجِـعَ علـى شِـقِّهِ الأيْمَـنِ، ثُـمَّ يَقـولُ: **«اللهُمَّ رَبَّ السَّـماواتِ، وَرَبَّ الأَرْضِ، وَرَبَّ العَرْشِ العَظيمِ، رَبَّنا وَرَبَّ كُـلِّ شَـيْءٍ، فالِقَ الحَبِّ، والنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْراةِ، والإِنْجيلِ، والفُرْقانِ، أَعوذُ بِكَ مِنْ شَـرِّ كُـلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِناصِيَتِهِ.**

اللهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَـيْءٌ، وَأَنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دونَكَ شَـيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنا مِنَ الفَقْرِ».

وَكانَ يَرْوي ذَلِكَ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

هذا الدُّعاءُ، والذِّكـرُ، واحِدٌ مِنَ الأَدْعيَةِ والأذكارِ الكَثيرةِ التي تُقال عندَ النَّومِ، وهوَ دُعاءٌ عَظيمٌ، يَحْسُنُ بالمُسلِمِ أنْ يُحافِظَ عليهِ كُلَّ ليلَةٍ، عندَما يَأوي إلى فِراشِهِ.

وَهوَ مُشتَمِلٌ على تَوَسُّلاتٍ عظيمَةٍ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: بِربوبيَّتِهِ لكلِّ شَيءٍ، للسَّمواتِ السَّبْعِ، والأَرضينَ السَّبْعِ، والعَرْشِ العَظيمِ، وبإنزالِهِ لكلامِهِ العَظيمِ، ووحْيِهِ المُبينِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).



يَتوسَّـلُ إليهِ، ويتعوَّذُ بهِ، بأنْ يُحيطَ الإنسانَ بِرِعايَتِهِ، ويَكْلأَهُ بعِنايَتِهِ، ويَحفَظَهُ مِنْ جَميعِ الشُّرورِ.

وَمُشتمِلٌ على التَّوسُّلِ إلى اللهِ جلَّ وعَلا ببَعْضِ أسمائِهِ العظيمَةِ، الدَّالَّةِ على كَمالِهِ، وجلالِه، وعظَمَتِـهِ، وإحاطَتِهِ بِكلِّ شَيْءٍ، بأنْ يَقْضِيَ عَنِ الإنسـانِ دَيْنَهُ، ويُغْنيَهُ مِنْ فَقْرِهِ[١].

وَمِنَ اللَّطائفِ في تَرتيبِ هذِهِ التَّوسُّلاتِ:

أنَّـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَدَأ بقولِهِ: «اللَّهمَّ ربَّ السَّمواتِ، وربَّ الأرضِ، وَرَبَّ العَرْشِ العَظيمِ»؛ أي: خالقُها، ومالِكُها، ومدبِّرُ أمورِها، ومُبْدِعُها، وموجِدُها مِنَ العَدَمِ.

وقَدْ خَـصَّ هذهِ المَخلوقاتِ بالذِّكْـرِ؛ لِعظَمِها، وكِبَرِها، ولِكَثْـرةِ ما فيها مِنَ الآيـاتِ البيِّناتِ، والدَّلالاتِ الباهِراتِ، على كَمالِ خالِقهـا، وعَظَمةِ مُبْدِعِها، وإلَّا فجَميعُ المَخلوقاتِ صَغيرِها، وكبيرِها، فيها آيَةٌ بيِّنَةٌ على كمالِ الخالقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولِهذا قال بَعْدَه: «رَبَّنا وَرَبَّ كُلِّ شَـيءٍ»، فهوَ تَعْميمٌ بَعْدَ تَخْصيصٍ؛ لِئَلَّا يُظَنَّ أنَّ الأمرَ مُختَصٌّ بما ذُكِرَ.

فالسَّماءُ: مخلوقٌ عَظيمٌ، ولِذا أقسَمَ اللهُ بِها: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥]، ففيها مِنْ بديعِ الخَلقِ ما يَعْجِزُ عنهُ الوصْفُ، مِنْ حُسْنٍ وكمالِ بنائِها، «وعُلوِّها، وسَعَتِها، واستِدارَتِها، وعِظَمِ خَلْقِها، وحُسْنِ بِنائِها، وعجائبِ شَمْسِها، وقمَرِها، وكواكِبِها، ومقاديرِها، وأشكالِها، وتفاوُتِ مَشارِقِها، ومغارِبِها، فلا ذَرَّةَ فيها تَنْفَكُّ عَن حِكْمَةٍ.

بَلْ هيَ أحكَـمُ خَلْقًا، وأتْقَنُ صُنْعًا، وأجْمَعُ لِلعجائِبِ مِنْ بدَنِ الإنسـانِ، بَلْ لا نِسـبَةَ لجَميعِ ما في الأرضِ إلى عَجائبِ السَّمَواتِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨]، وقـال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

---

(١) فقه الأدعية والأذكار لعبد الرزاق البدر (٣/ ٧١).

وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

فبَدَأَ بذِكرِ خَلْقِ السَّماواتِ، وهذا كَثيرٌ في القُرآنِ، فالأرضُ، والبِحارُ، والهَواءُ، وكلُّ ما تَحتَ السَّماواتِ، بالإضافَةِ إلى السماواتِ، كَقَطرَةٍ في بَحْرٍ.

ولِهذا قلَّ أنْ تَجيءَ سورَةٌ في القرآنِ إلَّا وفيها ذِكْرُها:

إمَّا إخْبارًا عنْ عِظَمِها، وسَعَتِها.

وإمَّا إقسامًا بِها.

وإمَّا دُعاءً إلى النَّظَرِ فيها.

وإمَّا إرشادًا للعِبادِ أنْ يَستدِلُّوا بها على عِظَمِ بانيها ورافِعِها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإمَّا استِدْلالًا منهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بخَلْقِها على ما أخْبَرَ بهِ مِنَ المَعادِ، والقيامَةِ.

وإمَّا استِدْلالًا منهُ بِرُبوبيَّتِهِ لها على وَحْدانيَّتِهِ، وأنَّه اللهُ الذي لا إلهَ إلَّا هوَ.

وإمَّا استِدْلالًا منهُ بحُسْنِها، واستِوائِها، والتِئامِ أجزائِها، وعدَمِ الفُطورِ فيها، على تَمامِ حِكْمَتِهِ، وقُدرتِهِ.

وكذلِكَ ما فيها مِنَ الكَواكِبِ، والشَّمسِ، والقَمرِ، والعَجائِبِ، التي تَتَقاصَرُ عُقولُ البَشرِ عَنْ قَليلِها»[1].

والأرضُ: مَخلوقٌ عَجيبٌ، مَهَّدَها اللهُ، وسَخَّرَها لنا؛ لنعيشَ علَيْها، وجعلَها لنا قَرارًا، وثبَّتَها بالجِبالِ حتَّى لا تَضطرِبَ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيِّم (١/ ١٩٦)، بتصرُّف وزيادة.

بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥]، ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٦١]، ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ [الزخرف: ١٠].

ودعا اللهُ تعالى عبادَهُ للتَّفكُّرِ فيها، وفي انتِصابِها: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

والمُشركونَ مُعْتَرِفونَ أنَّ اللهَ تعالى هو خالقُ السَّماءِ، والأرضِ، فكيفَ يَعبُدونَ غَيرَهُ؟ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

«**أي:** فكيفَ يُصرَفونَ عَنِ الإقرارِ بتفرُّدِه تعالى في الإلَهيَّةِ، معَ إقرارِهم بتفرُّدِه تعالى فيما ذَكَرَ مِنَ الخَلْقِ، والتَّسْخيرِ»[1].

«فكَما أنَّهُ الواحِدُ في مُلْكِهِ؛ فَلْيَكُنِ الواحِدَ في عِبادَتِهِ، وَكَثيرًا ما يُقَرِّرُ تَعالَى مَقامَ الإلَهيَّةِ، بالِاعْتِرافِ بِتَوْحيدِ الرُّبوبيَّةِ»[2].

والعَرشُ العَظيمُ: أعظَمُ مَخلوقاتِ اللهِ تعالى، وأوَّلُها خَلْقًا، كما تقدَّمَ في حَديثٍ: «كانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكانَ عَرْشُهُ على الماءِ، وَكَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمواتِ، والأَرْضَ»[3].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود: ٧].

---

(١) تفسير أبي السعود (٧/ ٤٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩٤).

(٣) رواه البخاري (٣١٩١).

وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي: شَمِلَ وأحاطَ، والكُرْسيُّ أكبرُ مِنَ السَّماواتِ، والأرضِ، و«الكُرْسيُّ مَوضِعُ القدمَيْن»، كما قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(١).

والعَرْشُ أكبرُ مِنَ الكُرْسيِّ، وفي الحَديثِ: «**ما السَّماواتُ السَّبْعُ في الكُرْسيِّ إلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقاةٍ في أَرْضِ فَلاةٍ، وَفَضَلُ العَرْشِ على الكُرْسيِّ، كَفَضْلِ الفَلاةِ على تِلْكَ الحَلْقَةِ**»(٢).

فبَدَأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقَوْلِهِ: «اللَّهمَّ ربَّ السَّمواتِ، وربَّ الأرضِ، وَربَّ العَرْشِ العَظيمِ»؛ لِعظَمِ هذهِ المَخلوقاتِ، وما فيها مِنَ الآياتِ البيِّناتِ، ثُمَّ قال بَعدَهُ:

«رَبَّنا وَربَّ كُلِّ شَيءٍ»، فهوَ تَعْميمٌ بَعدَ تَخْصيصٍ؛ لِئلَّا يُظَنَّ أنَّ الأمرَ مُختصٌّ بما ذُكِرَ.

ثُمَّ عقَّبهُ بمَظهَرٍ مِنْ مظاهِرِ الرُّبوبيَّةِ، والخَلْقِ؛ فقال: **«فالِقَ الحَبِّ، والنَّوَى»**، وهوَ مِنَ «الفَلْقِ» أي: الشَّقِّ، أي: الذي يشُقُّ حبَّةَ الطَّعامِ، ونَوى التَّمرِ، وغَيْرِهِ؛ لتُخْرِجَ الأشجارَ، والزُّروعَ.

فالنّباتاتُ إمَّا أشجارٌ أصلُها النَّوَى، أو زُروعٌ أصلُها الحَبُّ، واللهُ هوَ الذي يَفْلِقِ الحَبَّ والنَّوى اليابِسَ بقُدرتِهِ؛ لِتَخرجَ منهُ الزُّروعُ العَظيمَةُ، والأشجارُ الكَبيرَةُ، وفيهِ آيةٌ باهرَةٌ على كمالِ المُبْدِعِ، وعظمَةِ الخالقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

---

(١) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٤٨)، والحاكم (٣١١٦)، وقال ابن كثير: «مَحْفوظٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَحَكاهُ ابْنُ جَريرٍ عَنْ أَبي موسَى الْأَشْعَريِّ، والضَّحَّاكِ بْنِ مُزاحِمٍ، وَإِسْماعيلَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّدِّيِّ الْكَبيرِ، وَمُسْلِمٍ الْبَطينِ» البداية والنهاية (١/ ١٣).

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦١)، ويأتي الكلام عليه.

فإذا نَظَرَ ناظِرٌ بعَينِ فَهْمِهِ إلى هذِهِ الآيــةِ العَظيمةِ، وهيَ فَلْقُ الحبَّةِ، والنَّواةِ، عن سُــنبُلَةٍ، ونَخْلةٍ؛ رَأَى كُلًّا منهُما فيــهِ أسْرار، وعجائبُ، وودائعُ، مِــنْ جِنْسِ خَلْقِ الإنسانِ؛ فعَلِمَ أنَّ فاعلَ ذلكَ لا يُعْجِزُه شَيءٌ في الأرضِ، ولا في السَّماءِ.

ثُمَّ عقَّبَ ذلكَ كلَّه بقولِهِ: «وَمُنْزِلَ التَّوْراةِ والْإِنْجيلِ، والفُرْقانِ»؛ إشــارةً إلى أنَّه لا يُمكِنُ إخراجُ الأشــياءِ مِــنَ العَدَمِ إلَى فَضاءِ الوُجــودِ إلَّا بتَعَلُّمٍ، وتَعَبُّدٍ، ولا يَحْصُلُ ذَلِكَ إلَّا بكِتابٍ يُنَزِّلُهُ، ورسولٍ يَبْعثُهُ.

كَأَنَّهُ قيلَ: يا مالِك، يا مُدَبِّر، يا خالِق، يا هادي.

وفي هذا تَوَسُّــلٌ إلى اللهِ تعالى بإنزالِهِ هذِهِ الكُتُب العظيمَة، المُشتمِلَة على هَدايةِ الناسِ، وفَلاحِهِم، وسـعادَتِهم في الدُّنيا، والآخِرَة، وخَصَّهــا بالذِّكرِ؛ لأنَّها أعظَمُ كُتُبِ اللهِ المُنزَّلةِ، وبَدَأَها حَسَب تَرْتيبِ نُزولِها الزَّمنيِّ.

وتأمَّلْ كَيفَ قال في المَخلوقاتِ «ربَّ»، فذَكَرَ: السَّماواتِ، والأرضَ، والعَرشَ العَظيمَ، وقــال في الحَبِّ، والنَّوى «فالقَ»، أمَّا في هذِهِ الكتــبِ التي هيَ كَلامُ اللهِ؛ فقال: «ومَنزِّل».

ففي هذا دَلالَــةٌ على أنَّ كلامَ اللهِ غــيرُ مَخلوقٍ، وفيهِ رَدٌّ على أهــلِ البِدَعِ الذينَ يقولونَ: إنَّ كَلامَ اللهِ مَخلوقٌ[1].

فتوسَّــلَ النَّبيُّ ﷺ إلى اللهِ تعالى بِربوبيَّتِه لِكلِّ شَيءٍ، للسَّــمواتِ السَّبْعِ، والأرضينَ السَّــبْعِ، والعَرْشِ العَظيــمِ، وبإنزالِهِ لكلامِه العَظيــمِ، ووَحْيِهِ المُبينِ، أن يُعيــذَه مِنْ جَميعِ الشُّرورِ؛ فقال: **«أَعوذُ بِكَ مِنْ شَــرِّ كُلِّ شَــيءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِناصيَتِهِ»**:

أيْ: مِــنْ شرِّ كلِّ شَيْءٍ مِــنَ المَخلوقاتِ؛ لأنَّهــا كلَّها في سُــلْطانِهِ، وهوَ آخذٌ

---

(١) الإفصاح لابن هُبيرة (٨/ ٦٨)، شرح المشكاة للطِّيبي (٦/ ١٨٨٦)، فقه الأدعية والأذكار (٣/ ٧١).

بنواصيها، و«النَّاصيَةُ» مُقدّم الرَّأسِ، فقُدْرةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فوقَ قُدْرةِ كلِّ مخلوقٍ، وبَطْشُهُ فَوقَ كُلِّ ذي بَطْشٍ.

فجَميعُ المَخلوقاتِ داخِلةٌ تَحتَ قَهْرِ اللهِ، وسُلْطانِهِ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آخذٌ بنَواصيها، قادِرٌ عليها، يَتَصَرَّفُ فيها كيفَ يَشاءُ ويَحْكمُ فيها بما يُريدُ، كما حَكَى اللهُ تعالى قَولَ هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦][1].

فالسِّرُّ في التَّعبيرِ هنا بقَوْلِهِ: «كُلِّ شيءٍ أنتَ آخذ بناصيته»: أنَّ مَنْ أخذَ بناصيةِ أحَدٍ، فقَدْ قَهرَه، وقَدَرَ عليهِ غايَةَ القُدْرَةِ[2].

وقولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَنْتَ الأَوَّلُ فلَيْسَ قَبْلَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دونَكَ شَيْءٌ»**:

ذَكَرَ هُنا أربعَةَ أسماءٍ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى، وهيَ: الأوَّلُ، والآخِرُ، والظَّاهِرُ، والباطِنُ، فَفَسَّرَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ اسمٍ بمَعناهُ، ونفَى عنهُ ما يُضادُّه، ويُنافيهِ.

فهَذِهِ الأسماءُ تَدُلُّ على تفرُّدِ الرَّبِّ العَظيمِ بالكَمالِ المُطلَقِ، والإحاطَةِ الزَّمانيَّةِ في قولِهِ: «الأوَّلُ، والآخِرُ»، والإحاطَةِ المَكانيَّةِ في قولِهِ: «الظَّاهِرُ، والباطِنُ».

وفيها دَلالَة على: أوَّليَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّه قَبلَ كلِّ شَيْءٍ، وأبَديَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبَقائِهِ بَعدَ كلِّ شَيءٍ، وعُلوِّهِ على خَلقِهِ، واستِوائِهِ على عَرشِهِ، وفَوْقيَّتِهِ، وأنَّه الظَّاهِرُ الذي لا شَيْءَ فَوْقَهُ، وقُرْبِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ خَلْقِهِ، وإحاطَتِهِ بِهِم، وأنَّه جلَّ وعَلا الباطِنُ الذي لا شَيءَ دونَهُ.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٣٦)، الفتح الرباني للساعاتي (١٤/ ٢٤٧)، فقه الأدعية والأذكار (٣/ ٧٣).

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح للمُظهري (٣/ ٢١٦).

فالأوَّلُ: يَدُلُّ على أنَّ كلَّ ما سِـــواهُ حادِثٌ كائِنٌ بَعــدَ أنْ لَمْ يَكُنْ، ويوجِبُ للعَبْدِ أنْ يَلْحَظَ فضْلَ ربِّهِ في كلِّ نِعْمةٍ دينيَّةٍ، أو دُنيويَّةٍ؛ إِذِ السَّبَبُ، والمُسَبَّبُ، مِنهُ تعالى.

والآخِرُ: يَدُلُّ على أنَّه هوَ الغايةُ، والصَّمَدُ الذي تَصْمد إليهِ المَخلوقاتُ بتَألُّهِها، وتَعبُّدِها، ورَغبَتِها، ورَهْبَتِها، وجَميعِ مَطالِبِها.

والظَّاهِرُ: يَدُلُّ على عظَمَةِ صِفاتِهِ، واضْمِحْلالِ كُلِّ شَيْءٍ عندَ عظَمَتِهِ مِنْ ذَواتٍ، وصفاتٍ، ويَدُلُّ على عُلوِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والباطِنُ: يَدلُّ على اطِّلاعِهِ على السَّرائِرِ، والضَّمائِرِ، والخَبايا، والخَفايا، ودَقائِقِ الأشياءِ، كما يَدُلُّ على كمالِ قُرْبِهِ، ودُنوِّهِ.

ولا مُنافاةَ بَــينَ الظَّاهِرِ، والباطِنِ؛ لِأنَّ اللهَ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ في كلِّ النُّعوتِ؛ فهوَ العَلِيُّ في دُنوِّهِ، القَريبُ في عُلوِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[1].

ثُمَّ سَــأَلَ النَّبيُّ ﷺ رَبَّهُ قَضاءَ الدَّيْنِ، والغِنَى مِنَ الفَقْرِ؛ فَقال: «اقْضِ عنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنا مِنَ الْفَقْرِ»:

وقولُهُ: **«اقْضِ عنَّا الدَّيْنَ» أي**: أعِنَّا على أداءِ حُقوقِ اللهِ[2]، وحقوقِ العِبادِ، مِنْ جميعِ الأنواعِ، وفي هذا تَبَرِّي الإنســانِ مِنَ الحَوْلِ، والقوَّةِ، وأنَّه لا حَوْلَ ولا قوَّةَ لَهُ إلَّا باللهِ العَظيمِ.

وقولُــهُ: **«وَأَغْنِنا مِنَ الْفَقْرِ» أي**: الاحْتياجِ إلى المَخلوقِ، أوْ مِنَ الفَقرِ القلْبيِّ، والغِنَى هوَ: عَدَمُ الحاجَةِ[3].

والغِنَى ثلاثَةُ أقسامٍ:

---

(١) الحقُّ الواضح المبين للسعدي (ص٢٥)، وفقه الأدعية (٣/ ٧٤).

(٢) فدَين الله أحقُّ أن يُقضَى.

(٣) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٧١)، فقه الأدعية والأذكار (٣/ ٧٥).

- **القِسْمُ الأوَّلُ**: غِنَى النَّفسِ، وهوَ المَطلوبُ المَرغوبُ المَحبوبُ.
- **القِسمُ الثاني**: الغِنَى باللهِ تعالى.
- **القِسمُ الثَّالِثُ**: الغِنَى بالمالِ، وهوَ مَوْضِعُ الخِلافِ.

وقَدْ سُئِلَ بَعضُ العُلماءِ: أيُّهما أَتَمُّ: الغِنَى باللهِ تعالى، أمْ الافتِقارُ إلى اللهِ؟

فَقال: «الافتِقارُ إلى اللهِ تعالى يوجِبُ الغِنَى باللهِ، فإذا صَحَّ الافتِقارُ إلى اللهِ، كَمُلَتِ العِنايَةُ، فلا يُقال أيُّهما أتمُّ؛ لأنَّهما حالتانِ لا تَتِمُّ إحداهُما إلَّا بتَمامِ الأُخرَى، ومَنْ صَحَّ افتِقارُهُ إلى اللهِ صَحَّ غِناؤُهُ بهِ»[1].

والدَّيْــن والفَقرُ كِلاهُمــا هَمٌّ عظيمٌ، يَترتَّبُ عليهِما مَفاسِــدُ كثــيرةٌ، كارتِكابِ المَعاصي، وإخلافِ المَواعيدِ، وتَعمُّدِ الكذِبِ، وقَدْ يؤرِّقانِ الإنسانَ، ويَمْنعانِه مِنَ النَّومِ.

فإذا لجَــأَ العَبدُ إلى اللهِ وطَلَبَ منــهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَدَّه، وعَوْنَهُ، مُتَوسِّــلا إليهِ بتِلكَ التَّوسُّلاتِ العظيمَةِ؛ فإنَّ نفسَهُ عِندئذٍ تَسْــكُنُ، وتَطْمَئنُّ، وقلبَهُ يَرتاحُ، ويَهْدَأُ؛ لأنَّه وَكَّلَ أمرَهُ إلى مَنْ بيَدِهِ أزِمَّةُ الأمورِ، ومَقاليدُ السَّمواتِ، والأَرضِ، ولجَأَ إلى مَنْ أمرُهُ إذا أرادَ شَــيئًا أَنْ يقولَ لَهُ كُنْ فيَكونُ، وكيفَ لا يَطْمَئنُّ القلبُ، وقد تَعَلَّقَ بمَنْ هذا شَأْنُهُ؟![2].



(١) المسالك في شرح موطأ مالك لابن العربي (٣/ ٤٤٠).

(٢) فقه الأدعية والأذكار (٣/ ٧٥).





الحديث الحادي عشر



عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّهُ قال:

«يَطْوي اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّماواتِ يَوْمَ القيامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقولُ: أَنا المَلِكُ، أيْنَ الجَبَّارونَ؟ أيْنَ المُتَكَبِّرونَ؟ ثُمَّ يَطْوي الأَرَضين بِشمالِهِ، ثُمَّ يَقولُ: أَنا المَلِكُ، أيْنَ الجَبَّارونَ؟ أيْنَ المُتَكَبِّرونَ؟»(١).

وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«يَقْبِضُ اللّهُ الأَرْضَ، وَيَطْوي السَّمواتِ بيَمينِهِ، ثُمَّ يَقولُ: أَنا المَلِكُ، أيْنَ مُلوكُ الأَرْضِ؟»(٢).

هذا الحَديثُ فيهِ بَيانُ شَيءٍ مِنْ عَظَمَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وكِبريائِهِ، وقُدْرَتِهِ، ومَجْدِهِ، وجلالِهِ، وخُضوعِ المَخلوقاتِ بأَسْرِها لعِزِّهِ، وعَظَمَتِهِ، وأَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القاهِرُ فوْقَ عبادِهِ، وكلُّ شَيءٍ تحتَ قَهْرِه، وقُدْرَتِه عَزَّ وَجَلَّ.

وفي هذا دَليلٌ واضحٌ على ربوبيَّتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووَحدانيَّتِه، واستِحْقاقِه للعِبادةِ وَحدَه لا شَريكَ لَه، وأنَّه لا مَعبودَ بِحَقٍّ إلَّا هوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويَجِبُ أنْ يَذِلَّ لَه العِبادُ غايَةَ الذُّلِّ، والتَّعظيمِ، مَعَ كَمالِ الحُبِّ، والتَّأَلُّهِ.

(١) رواه البخاري (٧٤١٢) مختصرًا، ومسلم (٢٧٨٨).

(٢) رواه البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

فمِنْ عَظَمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أنَّ السَّماواتِ، والأرضَ، وما بيْنَهُما، بالنِّسبةِ إلى عَظَمةِ اللهِ، وقَبْضِه لها، ما هيَ إلَّا كالشَّيءِ الصَّغيرِ في يدِ أحَدِنا[١].

وقدْ قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما السَّمَواتُ السَّبْعُ، والأَرَضونَ السَّبْعُ، في يَدِ اللهِ، إلَّا كَخَرْدَلَةٍ في يَدِ أَحَدِكُمْ»[٢].

قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَلْ قَوْلُهم[٣] إنَّ السَّمواتِ العُلَى ... في كَفِّ خالِقِ هَـذِهِ الأَكْـوانِ
حَقًّا كخَرْدَلَةٍ تُـرَى في كَفِّ ... مُمْسِكِها، تعالى اللهُ ذو السُّلْطانِ[٤]

وقَدْ جـاءَ في بَعضِ رواياتِ الحديثِ: أنَّ النَّبـيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ هذا الحَديثَ على المِنْبَرِ، فَتَحرّكَ المِنبرُ مِنْ تَحْتِه؛ فعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِقْسَـمٍ، أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ كَيْفَ يَحْكي رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «يَأْخُذُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سَماواتِهِ، وَأَرَضيهِ، بيَدَيْهِ، فَيَقولُ: أَنا اللهُ -وَيَقْبِضُ أَصابِعَهُ، وَيَبْسُـطُها[٥]-، أَنا المَلِكُ»، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى المِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْـفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقولُ: أَسـاقِطٌ هوَ بِرَسـولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟![٦].

وعَـنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ هَـذِهِ الآيَةَ ذاتَ يَوْمٍ على المِنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وَرَسـولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقـولُ هَكَذا بيَدِهِ، وَيُحَرِّكُهـا، يُقْبِلُ بِها وَيُدْبِرُ: «يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَـهُ: أَنا

---

(١) الرسالة العرشيَّة لابن تيميَّة (ص١٨).

(٢) تفسير الطبري (٢٠/ ٢٤٦).

(٣) يعني: قول أهل السنة.

(٤) القصيدة النونية (ص١٤٥).

(٥) يعني: النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٦) رواه مسلم (٢٧٨٨).

الجَبَّارُ، أَنا المُتَكَبِّرُ، أَنا المَلِكُ، أَنا العَزِيزُ، أَنا الكَرِيمُ»، فَرَجَفَ بِرَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المِنْبَرُ، حَتَّى قُلْنا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ![1].

قولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَطْوي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّماواتِ يَوْمَ القيامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بيَدِهِ اليُمْنَى»:

«**الطَّيُّ**»: ضِدُّ «النَّشْرِ»، وهوَ: ضمُّ الشَّيءِ بَعْضِه على بَعْضٍ، أو مُلاقاةُ الشَّيءِ بعضِهِ على بعضٍ، وجَمْعُه، ولفُّه[2].

وهذا الطَّيُّ المَذكورُ يكونُ يومَ القيامَةِ، وهوَ طيٌّ حَقيقيٌّ، نُؤمِنُ بِهِ على حقيقَتِهِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «يَطْوي اللهُ السَّمَواتِ السَّبْعَ بما فيها مِنَ الخَليقةِ، والأَرَضينَ السَّبْعَ بما فيها مِنَ الخليقَةِ، يَطوي ذلكَ كلَّهُ بيمينِهِ، يكونُ ذلكَ كلُّه في يدِهِ بمَنزِلَةِ خَرْدَلَةٍ»[3].

فيَطوي اللهُ تعالى السَّماواتِ على عِظَمِها، واتِّساعِها، كما تُطْوَى الصَّحيفَةُ على ما كُتِبَ فيها، فتُنثَر نُجومُها، ويُكوَّرُ شَمْسُها، وقَمَرُها، وتزولُ عنْ أماكِنِها.

وقولُهُ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] **أي**: إعادَتُنا لِلخَلْقِ مثلُ ابتدائِنا لِخَلْقِهم، فكما ابتدَأْنا خَلْقَهم، ولَمْ يكونوا شَيْئًا؛ كذلِكَ نُعيدُهُم بعدَ مَوتِهِم.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥٤١٤)، وصحَّحَ إسنادَه الألبانيُّ في الصحيحة (٧/ ٥٩٧).

(٢) لسان العرب (١٥/ ١٨)، والمعجم الوسيط (٢/ ٥٧٢)، وشرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ١٤٠).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١٣٧٥٢)، وابن كثير (٥/ ٣٨٢).

﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]: نُنفِّذُ ما وَعَدْنا؛ وذلكَ لِكمالِ قُدْرَتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّه لا تَمْتَنِعُ مِنْهُ الأشياءُ[١].

واليَدانِ ثابتَتانِ للهِ تعالى، فنُثبِتُ للهِ تعالى ما أثبتَهُ لنفْسِهِ، وما أثبتَه لَهُ رَسولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونُجْري نُصوصَ الصِّفاتِ على ظاهِرِها، مِنْ غيرِ تَشبيهٍ، ولا تَمْثيلٍ، ولا تَكْييفٍ، ولا تَعْطيلٍ، قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فَجَمَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآيةِ بَينَ نَفْيِ التَّمثيلِ، وإثباتِ أنَّه سَميعٌ بَصيرٌ؛ «وفي هذا إشارةٌ واضِحَةٌ إلى أنَّه لا يجوزُ للخَلقِ أنْ يَنفوا عنِ اللهِ سَمْعَه، وبصَرَه، بدَعوَى أنَّ المَخلوقاتِ الحادِثَةَ تَملِكُ سَمْعًا، وأبْصارًا!

فسَمْعُ اللهِ وبَصَرُهُ يَليقانِ بجَلالِ اللهِ، وكمالِهِ، وأسماعُ المَخلوقاتِ وأبصارُها تُناسِبُ حالَهُم؛ فَلا تَشابُهَ بيْنَ صِفاتِ اللهِ وصِفاتِ المَخلوقاتِ»[٢].

قال تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص ٧٥].

وتنوَّعتِ النُّصوصُ الشَّرعيَّة في «إثباتِ اليدَيْنِ للهِ تعالى، وإثباتِ الأصابعِ لهُما، وإثباتِ القَبْضِ بِهِما، وتَثنيَتِهِما[٣]، وأنَّ إحداهُما يَمينٌ، والأُخرَى شِمالٌ، وأنَّه تعالى يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيلِ؛ ليتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، وبِالنَّهارِ؛ ليتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ، وأنَّه تعالى يَتَقبَّلُ الصَّدقَةَ مِنَ الكَسْبِ الطيِّبِ بيمينِهِ، فيُرَبِّيها لصاحِبِها، وأنَّ المُقْسِطينَ على منابرَ مِنْ نورٍ عنْ يَمينِ الرَّحمَنِ»[٤].

---

(١) تفسير السعدي (ص٥٣١)، أضواء البيان (٤/ ٢٤٩).

(٢) العقيدة في الله للأشقر (ص٢٢٠)، باختصار.

(٣) أنَّهما يدان.

(٤) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣١١).

فنُؤمِنُ بذَلِكَ كُلِّهِ، مِنْ غَيْرِ تَشْبيهٍ، ولا تَمْثيلٍ، ولا تَكْييفٍ، ولا تَعْطيلٍ، ولا نَقولُ: إنَّ المُرادَ بـ«اليَدِ» القُدرَةُ، والمُرادَ بـ«الطَّيّ»، و«القَبْضِ»: التَّسْخيرُ، والقَهْرُ! فهذا مِنَ التأويلِ المَذْمومِ.

«فالسَّمواتُ والأرضُ في يَدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي قَبْضَتِهِ، لا يَفوتُه مِنها شَيءٌ، ولا يَخْفَى عَنْ عِلْمِهِ منْها شَيءٌ، ولا يَعزُبُ عنْ قُدْرَتِهِ منها قَليلٌ، ولا كَثيرٌ»[1].

قَولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ يَقولُ: أَنا المَلِكُ»:

يَقولُ ذلِكَ ثَناءً على نفْسِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتَنْبيهًا على عَظَمَتِه الكامِلَةِ، وعلى مُلْكِه الكامِلِ، وهوَ السُّلْطانُ، فهوَ مالكٌ ذو سُلْطانٍ.

و«أنا» مَعْرفةٌ، و«المَلِكُ» مَعْرِفةٌ، وإذا كانَ المُبتدأُ والخَبَرُ كِلاهُما مَعرِفَةً، فإنَّ ذلكَ مِنْ طُرُقِ الحَصْرِ، أي: أنا الذي لي المِلكيَّةُ المُطلَقةُ، والسُّلطانُ التَّامُّ، لا يُنازِعُني فيهِما أحَدٌ[2].

فإنْ قيلَ: ألَيْسَ اللهُ هوَ المَلِكُ في الدُّنيا، والآخرَةِ؟

فالجَوابُ: بلَى، اللهُ تعالى هوَ المَلِكُ في الدُّنيا، والآخِرَةِ، لَكِن في الآخرَةِ لا يُنازِعُه أحَدٌ، كما قال تعالى في سورَةِ «الفاتحة»: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؛ أي: لَهُ المُلكُ التَّامُّ في ذلكَ اليَوْمِ، يَوْمِ القيامَةِ، لا يَملِكُ أحَدٌ فيهِ حُكمًا مَعَ اللهِ.

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَخْصيصُ المُلْكِ بيَوْمِ الدِّينِ لا يَنْفيهِ عَمَّا عَداهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ الإِخْبارُ بِأَنَّهُ «رَبُّ العالَمينَ»، وَذَلِكَ عامٌّ في الدُّنْيا، والآخِرَةِ.

وَإِنَّما أُضيفَ إِلَى «يَوْمِ الدِّينِ»؛ لِأَنَّهُ لا يَدَّعي أَحَدٌ هُنالِكَ شَيْئًا، وَلا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، كَما قال: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ

---

(١) الإفصاح لابن هُبيرة (٤/ ٧١).

(٢) القول المفيد (٢/ ٥٣٣).

وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، وَقال تَعالَى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وَقال: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وَقال ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، لا يَمْلِكُ أَحَدٌ في ذَلِكَ اليَوْمِ مَعَهُ حُكْمًا، كَمِلْكِهِمْ في الدُّنْيا».

قال: «**وَيَوْمُ الدِّينِ:** يَوْمُ الحِسابِ لِلْخَلائِقِ، وَهوَ يَوْمُ القيامَةِ، يُدينُهُمْ بِأَعْمالِهِمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ، إِلَّا مَنْ عَفا عَنْهُ».

وَكَذَلِكَ قال غَيْرُهُ مِنَ الصَّحابَةِ، والتَّابِعينَ، والسَّلَفِ، وَهوَ ظاهِرٌ»[١].

فظُهورُ مَلكوتِهِ، ومُلكِهِ، وسُلطانِهِ، إنَّما يكونُ في ذلِكَ اليَوْمِ؛ لأَنَّ اللهَ تعالى يُنادي ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦]، فـلا يُجيبُ أحَدٌ؛ فيقولُ تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، ففي الدُّنيا يَظهَرُ مُلوكٌ، بَلْ يظْهَرُ مُلوكٌ يَعتَقِدُ شُعوبُهُم أنَّه لا مالِكَ إلَّا هُم؛ فالشُّيوعيُّونَ -مَثَلًا- لا يَرَوْنَ أنَّ هُناكَ ربًّا للسَّمواتِ، والأَرضِ، يَرَوْنَ أنَّ الحياةَ أرحامٌ تَدْفَعُ، وأرضٌ تَبْلَعُ، وأنَّ ربَّهُم هوَ رئيسُهُم[٢].

وقولُهُ تعالى: «أيْنَ الجَبَّارونَ؟ أيْنَ المُتَكَبِّرونَ؟»:

«**الجبَّارونَ**»: الظَّلَمَةُ، المُتعالونَ على الناسِ بالقَهْرِ، والغَلَبَةِ، والظُّلْمِ، والبَطْشِ بغَيْرِ حَقٍّ.

«**والمُتكبِّرونَ**» **أي:** بمالِهِم، وجاهِهِمْ، يَتَعالَوْنَ على النـاسِ بالظُّلْمِ، والبَطْشِ، ويتَعالَوْنَ على الحقِّ، فلا يقبَلونه[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٣٤).

(٢) تفسير سورة الفاتحة لابن عثيمين (١/ ١٢).

(٣) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٥٠٦)، وإعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد للفوزان (٢/ ٣٢٣).

كما في الحَديثِ: «**الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»[١].

ومعنى «بَطَرُ الحقِّ»: دَفعُه، وإنكارُه؛ تَرفُّعًا، وتجبُّرًا، و«غَمْطُ النَّاسِ»: احتقارُهُم[٢].

والاستِفهامُ للتَّحدِّي، فيقولُ: أينَ المُلوكُ الذينَ كانوا في الدُّنيا لَهُمُ السُّلْطةُ، والتَّجبُّرُ، والتَّكبُّرُ، على عِبادِ اللهِ؟ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وفي ذلكَ الوَقتِ يُحشَرونَ أمثالَ الذَّرِّ[٣]، يَطَؤُهُمْ الناسُ بأقْدامِهِم[٤]؛ كما في الحَديثِ: «يُحْشَرُ المُتَكَبِّرونَ يَوْمَ القيامَةِ أَمْثالَ الذَّرِّ، في صوَرِ الرِّجالِ، يَغْشاهُمُ[٥] الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكانٍ»[٦].

فَيَحشرُهُمُ اللهُ تعالى أمْثالَ صِغارِ النَّملِ، «**والمعنى**: أَنَّهُمْ يَكونونَ في غايَةٍ مِنَ المَذَلَّةِ، والنَّقيصَةِ، يَطَؤُهُمْ أَهْلُ المَحْشَرِ بِأَرْجُلِهِمْ، مِنْ هَوانِهِمْ على اللهِ»[٧].

وقولُهُ ﷺ: «ثُمَّ يَطْوي الأَرَضينَ بِشِمالِهِ، ثُمَّ يَقولُ: أَنا المَلِكُ، أيْنَ الجَبَّارونَ؟ أيْنَ المُتَكَبِّرونَ؟»:

اختَلَفَ الرُّواةُ في إثباتِ لفظَةِ «بِشِمالِه»، فمِنْهُم مَنْ أثبتَها، وهيَ روايَةُ مُسلِمٍ في صحيحِهِ، ومِنْهُم مَنْ قال «بيَدِهِ الأُخْرَى»؛ ولِذا حَكَمَ بَعضُ العلماءِ على رِوايةِ الإثباتِ بالشُّذوذِ.

---

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٩٠).

(٣) أمثال النمل الصغير، في الصِّغَر والحقارة.

(٤) القول المفيد لابن عثيمين (٢/ ٥٣٣).

(٥) يأتيهم.

(٦) رواه الترمذي (٢٤٩٢)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٥٥٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الأدب المفرد (٤٣٤).

(٧) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣١٩٢).

فأَجْمَعَ أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ على أنَّ للهِ عَزَّوَجَلَّ يدَيْنِ، وأنَّ إحْدَى يدَيْهِ يَمينٌ، **واختلَفوا:**

هَل الأُخرَى توصَفُ بالشِّمالِ؟ أمْ أنَّ كِلتا يدَيْهِ يَمينٌ؟

فأَثبَتَها الإمامُ عُثمانُ بنُ سَعيدٍ الدَّارميُّ، وأبو يَعْلَى الفَرَّاءُ، والشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ، وغيْرُهُمْ.

وقال آخَرونَ: بَلْ كِلتا يدَيْهِ يَمينٌ، لا شِمالَ فيهِما؛ مِنهُمُ: الإمامُ ابنُ خُزيمَةَ[١].

يَقولُ الشَّيخُ ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا كانَتْ لفظَةُ «شِمالٍ» مَحفوظَةً؛ فهيَ عِندي لا تُنافي «كِلْتا يدَيه يمينٌ»[٢]؛ لأنَّ المعنى أنَّ اليدَ الأُخرَى ليسَتْ كاليَدِ الشِّمالِ بالنِسبَةِ للمَخلوقِ، ناقصَةً عنِ اليدِ اليُمنَى؛ فقال: «كِلْتا يدَيْهِ يَمينٌ»، أي: لَيسَ فيها نَقصٌ.

فإذا وصَفْنا اليدَ الأُخرَى بالشِّمالِ؛ فلَيْسَ المُرادُ أنَّها أقلُّ قوَّةً مِنَ اليدِ اليُمنَى، بَلْ كِلتا يدَيْهِ يَمينٌ، والواجبُ علَيْنا أنْ نَقولَ: إنْ ثبتَتْ عنْ رَسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنَحنُ نُؤْمِنُ بها، ولا مُنافاةَ بينَها، وبينَ قولِهِ: «كِلْتا يدَيْهِ يَمينٌ»، وَإنْ لَمْ تَثبُتْ فلَنْ نقولَ بها»[٣].

وقولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديثِ الآخَرِ: «يَقْبِضُ اللهُ الأرْضَ، وَيَطْوي السَّمَواتِ بيَمينِهِ»:

الفَرْقُ بيْنَ «القَبضِ»، و«الطَّيِّ»: أنَّ «القَبضَ» هوَ: أخْذُ الشَّيءِ باليدِ، وجَمْعُه، و«الطَّيّ» هوَ مُلاقاةُ الشَّيءِ بَعضِهِ على بَعضٍ، وجَمْعُه، ولَفُّهُ، وهوَ قَريبٌ مِنَ «القَبْضِ».

(١) صفات الله الواردة في الكتاب والسُّنَّة لعلوي السقاف (ص٣٧٩، ٣٨٣).
(٢) مسلم (١٨٢٧).
(٣) القول المفيد (٢/ ٥٣٤).

وهذا مِنْ صِفاتِ اللهِ تعالى الفِعليَّةِ التي تَتعلَّقُ بمَشيئَتِهِ، وإرادتِهِ[١]، وهيَ[٢] ثابتةٌ بآياتٍ كثيرةٍ، وأحاديثَ صحيحةٍ عنْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهيَ مِمَّا يَجِبُ الإيمانُ بهِ؛ لأنَّ ذلكَ داخِلٌ في الإيمانِ باللهِ تعالى، ويَحْرُمُ تأويلُها المُخرِج لمعانيها عَنْ ظاهِرِها.

وقَدْ دَلَّ على ثُبوتِها للهِ تعالى العَقْلُ أيْضًا، فإنَّه لا يُمكِنُ لَمْ نفاها إثباتُ أنَّ اللهَ هوَ الخالقُ لهذا الكَونِ المُشاهَدِ؛ لأنَّ الفِعلَ لا بُدَّ له مِنْ فاعِلٍ، والفاعِل لا بُدَّ له مِنْ فِعلٍ، وليسَ هُناكَ فِعْلٌ مَعقولٌ إلَّا ما قامَ بالفاعِلِ، سواء كانَ لازمًا، كالنُّزولِ، والمَجيءِ، أو مُتعديًا، كالقبضِ، والطَّيِّ، فحُدوثُ ما يُحْدِثُهُ تعالى مِنَ المَخلوقاتِ، تابِعٌ لِما يفعلُه مِنْ أفعالِهِ الاختياريَّةِ القائمَةِ بهِ تعالى.

وهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَيٌّ قيُّومٌ، فعَّالٌ لِما يُريدُ، فمَنْ أنكَرَ قيامَ الأفعالِ الاختياريَّةِ بهِ؛ فإنَّ معنى ذلكَ أنَّه يُنكِرُ خَلْقَه لهذا العالَمِ المُشاهَدِ، وغَيرِ المُشاهَدِ، ويُنكِرُ قولَه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، فالعَقلُ دَلَّ على ما جاءَ بهِ الشَّرعُ.

وما صَرَّح بهِ في هذا الحديثِ مِنَ «القَبضِ»، و«الطَّيِّ»، قد جاءَ صَريحًا أيْضًا في كِتابِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

«يقولُ تعالى: وما قدَرَ المُشركونَ اللهَ حَقَّ قدْرِهِ، حينَ عبَدوا معَهُ غَيرَهُ، وهوَ العَظيمُ الذي لا أعظَمَ منهُ، القادِرُ على كلِّ شَيءٍ، المالكُ لكلِّ شَيءٍ، وكلُّ شيءٍ تحتَ قَهْرِه، وقُدْرَتِه»[٣].

والأحاديثُ والآثارُ عنِ السَّلَفِ في صَريحِ الآيةِ، والحَديثِ المَذكورِ، كثيرةٌ،

---

(١) كالنُّزول، والمجيء، والضَّحِك، والرِّضا، والغضب، وغيرها.

(٢) يعني: الصفات الفعليَّة.

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ١١٣).

وظاهــرةٌ جَليَّةٌ، لا تَحتَمِل تَأويلًا، ولا تَحتاجُ إلى تَفســيرٍ؛ ولهذا صارَ تأويلُها تَحريفًا، وإلْحادًا فيها[١].

وقولُهُ: «ثُمَّ يَقولُ: أَنا المَلِكُ، أيْنَ مُلوكُ الأَرْضِ؟»:

أي: أنَّه تعالى يَنْفَرِدُ بالمُلكِ، فهوَ المَلِكُ حقًّا الذي لا مُنازِعَ له، ولا مُعاوِنَ، ولا ظَهيرَ، ولا شَريكَ، وفي ذلكَ اليومِ، عندما يَقْبِضُ الأرضَ بيدِهِ، ويَطْوي السَّــماواتِ بيمينِهِ، ويُصْبِــح كلُّ شَيءٍ في قبْضَتِهِ، يُنادي الذينَ كانــوا يُنازِعونَه في الدُّنيا مُلْكَه، ويتعَدَّوْنَ على سُــلطانِهِ، مِــنَ المُتكبِّرينَ والمُتجبِّرينَ مِن مُلــوكِ الدُّنيا، وقَدِ انفَرَدَ مالِكُ المُلكِ الواحِدُ القَهَّارُ ذو السُّلطانِ بالمُلْكِ.

وهوَ مُنفرِدٌ بِهِ في كلِّ آنٍ، غيرَ أنَّه في ذلكَ اليَوْمِ يَنكَشفُ جَليًّا، فيُناديهم بما يَتَضَمَّنُ توبيخَهُــم، وتهديدَهُم: أيــنَ مُلوكُ الدُّنيا؟ فهَلْ يَســتَطيعونَ مَنْعًــا، أو رَدًّا؟ وهَلْ لدَيْهِــم قوَّةٌ، أو حيلَةٌ، أو فِدًى؟ لقَدْ ذهَبَ مِنهُم كلُّ شَيْءٍ، وبَقيَتِ التَّبِعاتُ، والذُّلُّ، والحَسَراتُ[٢].



(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ١٤٠).

(٢) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ١٤١).



الحديث الثاني عشر



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبارِ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقال: يا مُحَمَّدُ، إنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمواتِ على إِصْبَعٍ، والأَرَضينَ على إِصْبَعٍ، والشَّجَرَ على إِصْبَعٍ، والماءَ والثَّرَى على إِصْبَعٍ، وَسائِرَ الخَلائِقِ على إِصْبَعٍ، فَيَقولُ: أَنا المَلِكُ؟ فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَواجِذُهُ؛ تَصْديقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧][(١)]:

«**الحَبْر**»: هوَ العالِمِ، وهوَ مِنَ اليَهودِ، وقولُهُ: «إنَّا نَجِد» يعني: في التَّوراةِ[(٢)].

وهذا الحَديثُ يَدلُّ على عَظَمَةِ اللهِ، وعظيمِ قُدْرَتِه، وعِظَمِ مخلوقاتِهِ، وقد تَعرَّفَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى عبادِهِ بصِفاتِهِ، وعجائِبِ مَخلوقاتِهِ، بما يَدُلُّ على كمالِهِ، وأنَّه هوَ المَعبودُ وَحدَهُ، لا شَريكَ له في رُبوبيَّتِهِ، وإلهيَّتِهِ.

ودَلَّ الحَديثُ على إثباتِ الصِّفاتِ لَهُ على ما يَليقُ بجَلالِ اللهِ، وعظَمَتِهِ، إثباتًا

(١) رواه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) القول المفيد (٢/ ٥٢٤).



بِلا تَمْثيلٍ، وتنْزيهًا بلا تَعطيلٍ، وهذا هوَ الذي دَلَّتْ عليهِ نُصوصُ الكِتابِ، والسُّــنَّةِ، وعلَيْهِ سَــلَفُ الأُمَّةِ، وأئِمَّتُها، ومَنْ تَبِعَهُم بإحســانٍ، واقتَفَى أثرَهُم على الإِسلامِ، والإيمانِ.

وتَأمَّــلْ ما في هذِهِ الأحاديثِ الصَّحيحَةِ مِنْ تعْظيــمِ النَّبيِّ ﷺ رَبَّهُ، بذِكْرِ صِفــاتِ كَمالِهِ على ما يَليقُ بعَظَمتِهِ، وجَلالِهِ، وتصديقِهِ اليَهودَ فيما أخْبَروا بِهِ عنِ اللهِ مِنَ الصِّفاتِ الَّتي تَدُلُّ على عظَمَتِهِ.

ولَمْ يَقُــلِ النَّبيُّ ﷺ في شَيْءٍ مِنْها: إنَّ ظاهرَها غــيرُ مُرادٍ، أو إنَّها تَدلُّ على تَشــبيهِ صِفاتِ اللهِ بصِفاتِ خَلْقِه، فلَوْ كانَ هذا حقًّا لَبلَّغَه ﷺ؛ فإنَّ اللهَ أكمَلَ بهِ الدِّينَ، وأَتمَّ بهِ النِّعمَةَ، فبَلَّغَ البلاغَ المُبينَ، صلَواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ، وعلى آلِهِ، وصَحْبِهِ، ومَنْ تبعَهُم إلى يومِ الدِّينِ.

وتَلَقَّى الصَّحابَةُ رضي الله عنهم عَنْ نبيِّهِــم ﷺ ما وَصَفَ بهِ ربَّه مِنْ صفاتِ كَمالِه، ونُعوتِ جَلالِهِ، فآمَنوا بِهِ، وآمنوا بكِتابِ اللهِ، وما تضمَّنهُ مِنْ صِفاتِ ربِّهِم جلَّ وعَلا، كما قال تعــالى: ﴿**وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ**﴾ [آل عمران: ٧].

وكذلِكَ التَّابعونَ لَهُمْ بإحســانٍ، وتابَعوهُمْ، والأئمَّةُ مِنَ المُحدِّثينَ، والفُقهاءِ، كلُّهُم وصَفَ اللهَ بما وَصَفَ بهِ نفسَهُ، ووصَفَه بِهِ رَسولُه ﷺ، ولَمْ يَجْحَدوا شَيئًا مِــنَ الصِّفاتِ، ولا قال أحَــدٌ مِنهُمْ: إنَّ ظاهرَها غَيرُ مُرادٍ، ولا إنَّــه يَلزَمُ مِنْ إثباتِها التَّشــبيهُ، بلْ أنكَروا على مَنْ قال ذلكَ غايَةَ الإنكارِ، فصَنَّفوا في ردِّ هذِهِ الشُّــبُهاتِ المُصَنَّفاتِ الكِبارَ، المَعروفَةَ المَوجودةَ بأيدي أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ(١).

فنُثبِتُ للهِ تعالى «الأصابعَ»، على الوَجْه الذي يَليقُ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مِنْ غيرِ تَشــبيهٍ، ولا تَمْثيلٍ، ولا تَكْييفٍ، ولا تَعْطيلٍ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص٦٤٠).

وَ«الإِصْبَعُ» إِصْبَعٌ حقيقيٌّ، يَليقُ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ، كاليَدِ.

وليسَ المُرادُ بقولِهِ: «على إِصْبَعٍ»: سُهولةَ التَّصرُّفِ في السَّماواتِ، والأَرضِ، كما يقولُهُ أهلُ التَّحريفِ! بَلْ هذا خَطَأٌ مُخالفٌ لظاهِرِ اللَّفظِ، والتَّقسيمِ؛ ولأنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَثْبَتَ ذلكَ بإقرارِهِ(١).

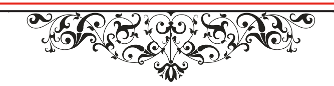


(١) القول المفيد (٢/ ٥٢٧).





الحديث الثالث عشر



عَـنْ أَبـي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، عَـنِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قـال: «**إِذا قَضَى اللّهُ الأَمْرَ في السَّـــماءِ؛ ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِها خُضْعانًا لِقَوْلِه، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ على صَفْوانٍ، فَإِذا فُزِّعَ عَــنْ قُلوبِهِمْ قالوا: ماذا قال رَبُّكُــمْ؟ قالوا لِلَّذي قال: الحَقَّ وَهوَ العَلِيُّ الكَبيرُ، فَيَسْــمَعُها مُسْتَرِقُ السَّــمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذا، بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ...**» الحديثَ[١].

هــذا الحديثُ فيهِ بيانُ عَظَمَةِ اللهِ، وعَظَمَةِ كَلامِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنَّه تعالى إذا تَكلَّمَ بالوَحْيِ، فَسَـمِعَ أَهْلُ السّـمواتِ كَلامَهُ، أُرْعِدوا مِنَ الهَيبَــةِ، حتَّى يَلْحقَهم مِثلُ الغَشْيِ.

فإذا كانَ كذلِكَ يَسْأَلُ بعضُهُم بَعضًا: ماذا قال ربُّكُم؟ فيُخْبِرُ بذلكَ حَمَلَةُ العَرْشِ للذينَ يلونَهم، ثُمَّ الذينَ يلونَهم لِمَنْ تَحتَهُم، حتَّى ينتَهيَ الخَبرُ إلى أهلِ السَّماءِ الدُّنيا.

كما جـاءَ ذلكَ صَريحًا عنْ عَبْـدِ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: أَخْــبَرَني رَجُلٌ مِنْ أَصْحابِ النَّبــيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنَ الأَنْصارِ، أَنَّهُمْ بَيْنَما هُمْ جُلوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسـولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رُمِيَ بِنَجْمٍ فاسْتَنارَ.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٠٠).

فَقال لَهُمْ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**ماذا كُنْتُمْ تَقولونَ في الجاهِلِيَّةِ إذا رُمِيَ بِمِثْلِ هذا؟**».

قالوا: اللهُ وَرَسولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقولُ وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظيمٌ، وَماتَ رَجُلٌ عَظيمٌ!

فَقال رَسولُ اللهِ ﷺ: «**فَإنَّها لا يُرْمَى بِها لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلا لِحَياتِهِ؛ وَلَكِنْ رَبُّنا** تَبارَكَ وَتَعالَى **اسْمُهُ، إذا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ العَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّماءِ الذينَ يَلونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّماءِ الدُّنْيا.**

ثُمَّ قال الذينَ يَلونَ حَمَلَةَ العَرْشِ لِحَمَلَةِ العَرْشِ: ماذا قال رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرونَهُمْ ماذا قال.

قال: **فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّماواتِ بَعْضًا، حَتَّى يَبْلُغَ الخَبَرُ هَذِهِ السَّماءَ الدُّنْيا، فَتَخْطَفُ الجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفونَ إِلَى أَوْلِيائِهِمْ، وَيُرْمَوْنَ بِهِ، فَما جاءوا بِهِ عَلى وَجْهِهِ فَهوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفونَ[1] فيهِ وَيَزيدونَ**»[2].

كَما جاءَ في تَمامِ حَديثِنا هذا: «فَيَسْمَعُها مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذا، بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، -وَوَصَفَ سُفْيانُ[3] بِكَفِّهِ فَحَرَفَها، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصابِعِهِ-، فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلْقيها إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقيها الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقيَها عَلى لِسانِ السَّاحِرِ، أَوِ الكاهِنِ، فَرُبَّما أَدْرَكَ الشِّهابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقيَها، وَرُبَّما أَلْقاها قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَها مِائَةَ كَذْبَةٍ.

فَيُقالُ: أَلَيْسَ قَدْ قال لَنا يَوْمَ كَذا وَكَذا: كَذا وَكَذا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتي سَمِعَ مِنَ السَّماءِ».

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨]، وقال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

---

(١) يخلطون فيه الكذب، وفي رواية: (يَقْذِفون).

(٢) رواه مسلم (٢٢٢٩).

(٣) هو ابن عيينة، أحد رواة الحديث.

وقولُهُ: «ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِها خُضْعانًا لِقَوْلِه، كَأَنَّه سِلْسِلَةٌ على صَفْوانٍ»:

«خُضعانًا لقولِهِ»: أي: خُضوعًا لقولِهِ.

«كأنَّه» أي: صَوتُ القولِ في وَقْعِه على قلوبِهِمْ.

و«الصَّفوانُ» هوَ: الحَجَر الأملَسُ الصَّلبُ، و«السِّلْسلة» عليه يكونُ لها صَوتٌ عظيمٌ.

وليسَ المُرادُ تشـبيهَ صَوتِ اللهِ تعالى بهذا؛ لأنَّ اللهَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ بلِ المُرادُ تَشـبيهَ ما يَحصُلُ لهُـمْ مِنَ الفَزَعِ عندَما يَسْمَعونَ كَلامَهُ، بفَزَعِ مَن يسمعُ سِلْسِلَةً على صَفوانٍ.

وقوله: «فَإِذا فُزِّعَ عَنْ قُلوبِهِمْ قالوا: مـاذا قال رَبُّكُمْ؟ قالوا لِلَّذي قال: الحَقَّ وَهوَ العَليُّ الكَبيرُ»:

قوله: «فإذ فُزِّعَ عَنْ قُلوبِهِمْ» أي: أُزيلَ عنها الفَزَعُ؛ قال بعضُهُم لبَعضٍ: «ماذا قال رَبُّكُمْ؟ قالوا لِلَّذي قال: الحَقَّ» أي: قالوا: قال الحقَّ؛ أي: قال القوْلَ الحَقَّ.

فـ«الحقَّ» صفةٌ لمصْدَرٍ محذوفٍ معَ عامِلِه، تقديرُهُ: قال القولَ الحَقَّ.

وهذا الجوابُ الذي يقولونَهُ هلْ هُم يَقولونه لأنَّهُم سَـمِعوا ما قال، وعَلِموا أنَّه حقٌّ؟ أو أنَّهُم يعلَمون أنَّه لا يَقولُ إلَّا الحَقَّ؟

يُحتَمَـلُ أنْ يكونوا قد عَلِمـوا ما قال، وقالوا: إنَّه الحقّ؛ فيكـونُ هذا عائِدًا إلى الوحيِ الذي تكَلَّم اللهُ بِهِ.

ويُحْتَمَلُ أنَّهُم قالوا ذلكَ لعِلْمِهم أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يقولُ إلَّا الحَقَّ؛ فلِذلكَ قالوا هذا؛ لأنَّ ذلكَ صِفتُهُ[1] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١) القول المفيد (١/ ٣١٠).

وهذا كما قال اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فأَخبَروا بما قال مِنْ غَيرِ زيادَةٍ، ولا نُقصانٍ[١].

فـالله تعالى هــو ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]: «العَليُّ في ذاتِهِ، فهــوَ عالٍ على جميعِ المَخلوقاتِ.

وفي قَدْرِه؛ فهوَ كامِلُ الصِّفاتِ.

وفي قَهْرِه لجَميعِ المَخلوقاتِ.

«الكبيرُ» في ذاتِهِ، وفي أسمائِهِ، وفي صِفاتِهِ، الذي مِنْ عَظَمَتِه، وكبريائِهِ: أنَّ الأرضَ قَبْضَتُه يَوْمَ القيامَةِ، والسَّماوات مَطْوِيَّات بيمينِهِ.

ومِنْ كِبريائِهِ: أنَّ كُرسيَّه وَسِعَ السَّماواتِ، والأرضَ.

ومِنْ عَظَمَتِه، وكِبريائِهِ: أنَّ نَواصي العِبادِ بيَدِه، فلا يتصرَّفونَ إلَّا بمَشــيئتِهِ، ولا يَتحرَّكونَ ويَسْكُنونَ إلَّا بإرادتِهِ.

وحَقيقــةُ الكِبرياءِ التي لا يَعْلَمُها إلَّا هوَ، لا مَلَكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرْسَــلٌ: أنَّها كلُّ صِفةِ كَمالٍ، وجَلالٍ، وكِبرياء، وعَظَمةٍ، فهيَ ثابتةٌ لهُ، ولَهُ مِنْ تلكَ الصِّفةِ أجلُّها، وأكملُها.

ومِنْ كِبريائِه: أنَّ العباداتِ كلَّها الصادرةَ مِنْ أهلِ السَّماواتِ، والأرضِ، المقْصود منها: تكْبيرُه، وتعظيمُــهُ، وإجلالُه، وإكرامُهُ؛ ولِهذا كانَ التكبيرُ شِــعارًا للعِباداتِ الكِبارِ، كالصَّلاةِ، وغَيْرِها»[٢].



(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥١٤).

(٢) تفسير السعدي (ص٥٤٣).



الحديث الرابع عشر



عَنْ أَبي سَعيدٍ الخُدْريِّ، وَأَبي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالا: قال رَسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«العِزُّ إزارُهُ، والكِبْرياءُ رِداؤُهُ، فَمَنْ يُنازِعُني عَذَّبْتُهُ»[١].

وفي روايةٍ: **«الكِبْرياءُ رِدائي، والعَظَمَةُ إِزاري، فَمَنْ نازَعَني واحِدًا مِنْهُما، قَذَفْتُهُ في النَّارِ»**[٢].

فالله عَزَّوَجَلَّ عظيمٌ، له صِفاتُ العَظَمَةِ، والعِزَّةِ، والكِبْرياءِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

وقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

وفي الحديثِ: «**وَما بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُروا إِلَى رَبِّهِمْ، إِلَّا رِداءُ الكِبْرِ على وَجْهِهِ، في جَنَّةِ عَدْنٍ**»[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٠٩٠)، والإمام أحمد (٨٨٩٤)، وصحَّحه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

ووَصْـفُ اللهِ تعالى بأنَّ العِـزَّ، أوِ العَظَمَةَ، إزارُه، والكبرياءَ رِداؤُه، هو كسائِرِ صفاتِـهِ؛ نُثْبِتُه على ما يَليقُ بهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويَجِـبُ أنْ نُؤْمِنَ بِهِ على ما أفادَه النصُّ، مِنْ غيرِ تَشْبيهٍ، ولا تَمْثيلٍ، ولا تَكْييفٍ، ولا تَعْطيلٍ[١].

ولَيسَ معنى الحديثِ: أنَّ للهِ إزارًا، ورِداءً، مِنْ جِنس ما يَلبَسُـه الناسُ، ممَّا يُصْنَع مِنْ جلودِ الأنعـامِ، والقُطنِ، والكتَّانِ، ونحوِ ذلكَ؛ بـلِ الحديثُ نصٌّ في نَفْيِ هذا المعنى الفاسِدِ[٢].

ولِذا قال: «فَمَنْ يُنازِعُني عَذَّبْتُهُ».

و«**الكِبْرِياءُ**»: العَظَمَةُ، والجَلالُ، والمَجْدُ.

ومِنْ أسـمائِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: «المتكبِّرُ»، و«الكبيرُ»؛ **أي:** العظيمُ ذو الكِبرياءِ، وقيلَ: المُتعـالي عن صِفـاتِ الخَلقِ، وقيـلَ: المتكبِّرُ والمُتنـزِّه عنِ السُّـوءِ، والنَّقصِ، والعُيوبِ[٣].

يقولُ شَـيخُ الإسـلامِ ابنُ تيميَّـة رَحِمَهُٱللَّهُ: «والعَظَمَةُ والكِبْريـاءُ مِن خصائصِ الرُّبوبيَّـةِ، والكِبْرياءُ أعلى مِنَ العَظَمَةِ؛ ولِهذا جعلَها بمنزلَةِ الرِّداءِ، كما جعلَ العَظَمَة بمنزلَةِ الإزارِ.

ولِهذا كانَ شِـعارُ الصـلاةِ، والأَذانِ، والأعيادِ، هوَ التَّكبيرَ، وكانَ مُسـتحبًّا في الأمْكِنـةِ العاليةِ، كالصَّفا، والمَرْوةِ وإذا علا الإنسـانُ شَرَفًا، أو رَكِب دابَّةً، ونَحو ذلكَ، وعندَ الأذانِ يَهرُب الشيطانُ»[٤].

---

(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢/ ١٦٢).

(٢) بيان تلبيس الجهميَّة لابن تيميَّة (٦/ ٢٧١).

(٣) لسان العرب (٥/ ١٢٥)، وتفسير السعدي (ص٧٧٨، ٨٥٤).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٩٦).

ويقولُ أيضًا: «التَّكبيرُ مَشروعٌ في المَواضِعِ الكِبارِ؛ ليُبيِّنَ أنَّ اللهَ أكبرُ، ويَستولِيَ كبرياؤُه في القُلوبِ على كبرياءِ تلكَ الأمورِ الكِبارِ؛ فَيكونُ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ، وَيَكونُ العِبادُ لَهُ مُكَبِّرينَ؛ فَيَحْصُلُ لَهُمْ مَقْصودانِ: مَقْصودُ العِبادَةِ بِتكْبيرِ قُلوبِهِمْ للهِ، وَمَقْصودُ الاِسْتِعانَةِ بِانْقيادِ سائِرِ المَطالِبِ لِكِبْريائِهِ»[١].

فالكِبرياءُ للهِ تعالى وحْدَه؛ ولذا كانَ مِنْ عِقابِ اللهِ تعالى للمُتكبِّرينَ أنَّه يَحشُرهم عندَ البَعثِ في صورةٍ مَهينةٍ ذليلةٍ، كما في الحَديثِ: «يُحْشَرُ المُتكَبِّرونَ يَوْمَ القيامَةِ أَمْثالَ الذَّرِّ[٢] في صوَرِ الرِّجالِ، يَغْشاهُمُ[٣] الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكانٍ»[٤].



(١) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٢٩)، باختصار.

(٢) أمثال النمل الصغير، في الصِّغَر والحقارة.

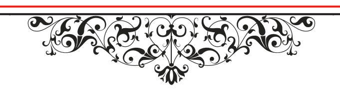
(٣) يأتيهم.

(٤) رواه الترمذي (٢٤٩٢)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٥٥٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الأدب المفرد (٤٣٤).





الحديث الخامس عشر



عَـنْ عُبَيْـدِ بْـنِ رِفاعَـةَ الزُّرَقـيِّ، عَـنْ أَبيـهِ، قـال: لَمَّـا كانَ يَـوْمُ أُحُـدٍ وانْكَفَـأَ المُشْرِكـونَ، قال رَسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«اسْـتَووا؛ حَتَّى أُثْنِيَ على رَبِّي»، فَصـاروا خَلْفَهُ صُفوفًا، فَقـال: **«اللهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كُلُّهُ، اللهُمَّ لا قابِضَ لِما بَسَـطتَ، وَلا باسِـطَ لِما قَبَضْتَ، وَلا هادِيَ لِمَنْ أَضْلَلْـتَ، وَلا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلا مُعْطِـيَ لِما مَنَعْتَ، وَلا مانِعَ لِما أَعْطَيْـتَ، وَلا مُقَرِّبَ لِما باعَـدْتَ، وَلا مُباعِدَ لِمـا قَرَّبْتَ، اللهُمَّ ابْسُـطْ عَلَيْنا مِنْ بَرَكاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْـأَلُكَ النَّعيمَ المُقيمَ، الذي لا يَحولُ وَلا يَزولُ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْـأَلُكَ النَّعيمَ يَوْمَ العَيْلَةِ، والأَمْنَ يَوْمَ الخَوْفِ، اللهُمَّ إِنِّي عائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ ما أَعْطَيْتَنا، وَشَرِّ ما مَنَعْتَ، اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنا الإيمانَ وَزَيِّنْهُ فـي قُلوبِنا، وَكَرِّهْ إِلَيْنا الكُفْرَ، والفُسـوقَ، والعِصْيانَ، واجْعَلْنا مِنَ الرَّاشِـدينَ، اللهُمَّ تَوَفَّنا مُسْلِمينَ، وَأَحْيِنا مُسْلِمينَ، وَأَلْحِقْنا بِالصَّالِحينَ، غَيْرَ خَزايا وَلا مَفْتونينَ، اللهُمَّ قاتِلِ الكَفَـرَةَ الذينَ يُكَذِّبونَ رُسُـلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَـبيلِكَ، واجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذابَكَ، اللهُمَّ قاتِلِ الكَفَرَةَ الذينَ أوتوا الكِتابَ، إِلَهَ الحَقِّ»**[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١٥٤٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٧٠)، والطبراني في المعجم الكبير (٤٥٤٩)، والحاكم في المستدرك (١٨٦٨)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٢٧)، واختُلف فيه على عبد الواحد بن أيمن راويه عن عبيد بن رفاعة، وأشار غير=

فهذا ثناءٌ على الله تعالى، وتوسُّلٌ ببعضِ صِفاتِهِ العظيمَةِ، أنْ يَبسُطَ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِه مِنْ بركاتِه، ورَحْمَتِه، وفضلِه، وما ذُكِرَ في هذا الدُّعاءِ.

فالخَلْقُ خَلقُ اللهِ، والأمرُ أمرُه، والخيرُ كلُّه بيدِه، لا مانعَ لما أعطَى، ولا مُعْطيَ لما مَنَعَ، ولا قابِضَ لِما بَسَطَ، وَلا باسِطَ لِما قَبَضَ؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وَلا هاديَ لِمَن أَضَلَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الإسراء: ٩٧]، ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

وَلا مُقَرِّبَ لِما باعَدَ، وَلا مُباعِدَ لِما قَرَّبَ؛ فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقبِضُ، ويَبسُط، ويَخْفِضُ، ويرفَع، ويُعْطِي، ويَمنَع، ويُضِلُّ، ويَهْدي، ويُعِزُّ، ويُذِلُّ، بيدِه الخيرُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهوَ على كلِّ شَيءٍ قديرٌ: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]، ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧-١٨].

فهوَ «الذي خَضَعَت لَهُ الرِّقابُ، وذلَّت لهُ الجبابرةُ، وعنَت له الوُجوهُ، وقهرَ كلَّ شَيءٍ، ودانتْ لَهُ الخَلائِقُ، وتَواضَعَت لعَظَمَةِ جَلالِه، وكِبريائِه، وعَظَمَتِه، وعُلوِّه،

= واحد من العلماء إلى إرساله، وقال الذهبي في السير (١/ ٤١٥): «هذا حديث غريب منكر»، ولعل وجه استنكاره قوله في الحديث: «**اللهُمَّ قاتِلِ الْكَفَرَةَ الذينَ أوتوا الْكِتابَ**» فهذا الدعاء -على فرض صحته- كان يوم أحد، ولم يكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقاتل في هذه الفترة إلا مشركي قريش، فلا معنى لذكر أهل الكتاب هنا، وقد صحح هذا الحديث الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (٢/ ١٦٣)، وكذا صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

وقُدْرَته، الأشياءُ، واستكانَت، وتضاءلَتْ بيْنَ يدَيْهِ، وتَحتَ حُكْمِه، وقَهْرِه»[١].

وقولُه ﷺ: «اللهُمَّ ابْسُطْ علَيْنا مِنْ بَرَكاتِكَ، ورَحْمَتِكَ، وفَضْلِكَ، ورِزْقِكَ»:

بعْدَ أن قدَّمَ الثَّناءَ على الله جَلَّ وَعَلَا، والتوسُّلَ بأسمائِه، وصِفاتِه؛ شَرَعَ في ذِكرِ مَطلوبِه مِنْ خَيْرَيِ الدُّنيا، والآخِرَةِ.

فسألَ اللهَ تعالى أنْ يوَسِّعَ عليهِم، ويُكثِرَ مِنْ خيراتِهِ، ورَحَماتِهِ، وفضلِهِ، ورِزقِهِ، وأنْ يُديمَ ذلكَ عليهِمْ؛ فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القادِرُ على ذلكَ وحْدَه.

وقولُهُ: «اللهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ النَّعيمَ المُقيمَ الذي لا يَحولُ، ولا يَزولُ»: وهو نَعيمُ الآخِرَةِ؛ فهوَ نَعيمٌ دائِمٌ لا يَتحوَّلُ، ولا يَتغيَّرُ، ولا يَنفَدُ.

وقولُه: «اللهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ النَّعيمَ يَوْمَ العَيْلَةِ»، أي: يوم الحاجَةِ، والشِّدَّةِ، والفَقرِ، فسألَه النِّعمةَ وقتَ الحاجَةِ، وأنْ يُغنيَه عنْ سُؤالِ الناسِ، والحاجةِ إليهِمْ، وأنْ يُغنيَه بِهِ عمَّن سِواهُ.

وقولُه: «والأَمْنَ يَوْمَ الخَوْفِ»: وأسألُك الأمانَ، والاطمِئنانَ، إذا حلَّ الفَزَعُ، والخَوْفُ، في حَرْبٍ، أو غيرِها.

وقولُه: «اللهُمَّ إنِّي عائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ ما أَعْطَيْتَنا، وشَرِّ ما مَنَعْتَ»:

فاستعاذَ باللهِ مِنْ شرِّ ما يُعطاهُ، مِنَ الرِّزقِ، والخيرِ؛ فيؤدِّي بِه إلى تَركِ ما يَجبُ عليهِ مِنَ الزَّكاةِ، وصِلةِ الأرحامِ، ونَحوِ ذلكَ، أو يكونُ سببًا في الطُّغيانِ، والاستِكبارِ، أو العِصيانِ باستعمالِهِ فيما حرَّمَ اللهُ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧].

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٤).

واستَعاذَ باللهِ مِنْ شرِّ ما منعَه، لكمالِ حِكْمةٍ، وعِلْمٍ؛ فيكونُ سببًا في الحَسَدِ، أو البَغي، أو الظُّلمِ، أو الحُزنِ، والهَمِّ، الذي يُشْغِلُ عنْ مَصالِح الدِّينِ، والدُّنيا، أو عَدَمِ القَناعةِ، والرِّضا بما قسَمَ اللهُ له.

وقولُهُ: «اللهُمَّ حَبِّبْ إلَيْنا الإيمانَ، وَزَيِّنْهُ في قُلوبِنا، وَكَرِّهْ إلَيْنا الكُفْرَ، والفُسوقَ، والعِصْيانَ»:

أي: اجْعَلِ الإيمانَ مَحبوبًا لنا في نُفوسِنا، مُزيَّنًا في قُلوبِنا، فَيتزَّينُ ظاهرُنا بالأعمالِ الصَّالحَةِ بما زيَّنْتَ بهِ باطِنَنا، واجْعَل قلوبَنا، ونُفوسَنا، تكرَه المَعاصيَ، والكُفرَ، والخُروجَ عنِ الطَّاعةِ، والعملَ بِالمعصيَةِ.

وقولُهُ: «واجْعَلْنا مِنَ الرَّاشِدينَ» أي: اجْعَلْنا مُستقيمينَ في أعمالِنا على طاعتِك، وحُسْنِ عِبادَتِك، في الظَّاهِرِ، والباطِنِ، وفي كلِّ أحوالِنا.

وقولُهُ: «اللهُمَّ تَوَفَّنا مُسْلِمينَ، وَأَحْيِنا مُسْلِمينَ، وَأَلْحِقْنا بِالصَّالِحينَ»:

فيهِ: سؤالُ حُسْنِ الخاتِمَةِ، والثباتِ على الدِّينِ، حتَّى المماتِ، بالاستِسلامِ للهِ ظاهرًا، وباطِنًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، معَ صُحبةِ الصَّالحينَ، والسَّيرِ في طَريقِهِم.

وقولُهُ: «غَيْرَ خَزايا، وَلا مَفْتونينَ» أي: فلا تُذِلَّني بمَعصيتِك، وتَرْكِ أمرِكَ، فأصْلُ «الخِزْي»: الذُّلُّ الذي يُستحيا مِنْ مِثلِهِ، لِما يُخافُ مِنَ الفَضيحَةِ منهُ.

وقولُهُ: «ولا مَفتونينَ» أي: غيرَ واقِعينَ في الفِتنةِ الدِّينيَّة، والعذابِ في الآخِرَةِ.

نسألُ اللهَ الحِفْظَ، والسَّلامةَ في الدُّنيا، والآخِرَةِ.

ثُمَّ دعا النَّبيُّ ﷺ على المُشركينَ الذينَ يُقاتلونَ رسولَه، ويَصُدُّون عَنْ سَبيلِ اللهِ، بأنْ يَجعلَ علَيْهِم عَذابَه، وبُؤسَه: «اللهُمَّ قاتِلِ الكَفَرَةَ الذينَ

يُكَذِّبونَ رُسُلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِكَ، واجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ(١) وَعَذابَكَ، اللهُمَّ قاتِلِ الكَفَرَةَ الذينَ أوتوا الكِتابَ».

ثُم ختمَ الدُّعاءَ بذِكْرِ اسْمَين مِنْ أسمائِه جلَّ وعلا، وهذا مِن حُسْنِ الخِتامِ؛ فقال:

«إِلَهَ الحَقِّ»، والتقديرُ: «الإلهَ الحقّ»، فأضافَ المَوصوفَ إلى الصِّفةِ، كقولِهم: «مَسجدُ الجامِع» يعني: المَسجدُ الجامِعُ(٢).

و«**الإلهُ**» هو: المَألوهُ، المَعبودُ، المُسْتَحِقُّ أن يُؤلَّهَ، **أي**: يُعْبَدَ، ويُفرَدَ بالعِبادَةِ وحْدَه لا شَريكَ لهُ.

و«**الحقُّ**»: ضدُّ «الباطِلِ»؛ فاللهُ تعالى هوَ الإلهُ الحَقُّ، في ذاتِهِ، وصِفاتِهِ، وكلُّ مَعبودٍ دونَهُ باطِل(٣).

فقولُه حَقٌّ، وفِعْلُه حقٌّ، ولقاؤه حقٌّ، ورُسُله حقٌّ، وكتُبُه حقٌّ، ودينُهُ حقٌّ، وعبادَتُه وحْدَه لا شَريكَ لَه هيَ الحقُّ، وكلُّ شَيءٍ يُنسَب إليهِ فهوَ حقٌّ؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢](٤).



(١) شدَّة العذاب.

(٢) الشافي في شرح مسند الشافعي لابن الأثير (٣/ ٤٣٠).

(٣) شرح الدعاء من الكتاب والسنة لماهر بن عبد الحميد (ص٥٠٠).

(٤) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص١٨٤).





الحديث السادس عشر



عَنْ زَيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال:

«لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَماواتِه، وَأَهْلَ أَرْضِه؛ عَذَّبَهُمْ وَهوَ غَيْرُ ظالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ؛ كانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا في سَبيلِ اللَّه؛ ما قَبِلَهُ اللّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ ما أَصابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ ما أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ على غَيْرِ هذا لَدَخَلْتَ النَّارَ»[1].

فاللهُ عَزَّ وَجَلَّ منزَّهٌ عنِ الظُّلْمِ، والظُّلْمُ مُحالٌ في حقِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقدْ تقدّمَ قولُه في الحديثِ القدسيِّ: «يا عِبادي، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفسي»[2].

وهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، فهوَ «الحاكمُ

(١) رواه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجة (٧٧)، وأحمد (٢١٥٨٩)، وابن حبان في صحيحه (٧٢٧)، وصحَّحه ابنُ القيِّم في شفاء العليل (ص١١٣) والألباني في صحيح أبي داود، وقال محقق المسند: «إسناده قوي»، وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٥): «في هذا الْحَدِيثِ نَظَرٌ».

(٢) رواهُ مسلم (٢٥٧٧).

المُتصرِّفُ، الذي يفعلُ ما يشــاءُ، ويَحْكُمُ ما يُريدُ، لا مُعَقِّبَ لحُكْمِه، ولا يُسألُ عمَّا يفعلُ، وهُم يُسألونَ، فلَهُ الخَلْقُ، والأمْرُ، مَهما فعَلَ فعَدْلٌ؛ لأنَّه المالكُ الذي لا يَظْلِمُ مِثقال ذرَّةٍ»[١].

ومِنْ عَدْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**: ما جاءَ في هذا الحديثِ: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَماواتِه، وَأَهْلَ أَرْضِهِ؛ عَذَّبَهُمْ وَهوَ غَيْرُ ظالِمٍ لَهُمْ»:**

ليسَ لأنَّه يفعلُ ذلكَ بمَحْضِ المَشيئةِ المُجرَّدةِ عنِ السَّبَبِ، والحِكْمةِ، فالمُلْكُ مُلكُــه، والمتصرِّفُ في مُلْكِه غيرُ ظالمٍ، فهوَ يَتصرَّفُ في مُلْكِه كيفَ يشــاءُ بلا حِكْمةٍ! -كما يقولُه الجَبريَّة مِنْ أهلِ البِدَعِ-؛ بلْ هوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا عذَّبَهُم؛ كان تعذيبُهُم عَدْلًا منه، وحِكْمةً، لا بمَحْضِ المشيئةِ المُجرَّدةِ.

وبيانُ ذلكَ: أنَّ نِعَمَ اللهِ تعالى على عبادِه عظيمــةٌ جليلةٌ، وحقوقَه عليهِمْ كثيرةٌ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعْفو، ويَغْفِرُ، ويتجاوَزُ.

والعِبادُ لا يقومونَ -مَهْما فعَلوا- بحقِّ عُبوديَّتِهِ، وشُكرِه، التي يَستحقُّها عليهِمْ، ولا تَفي أعمالُهُــم بنَجاتِهم، إمَّا جَهْــلًا، أو تفريطًا، أو إضاعــةً، أو تَقْصيرًا، كما في الحَديثِ: «**لَنْ يُنْجيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**»[٢].

فلَــوْ عذَّبَهُم في هــذِهِ الحالةِ؛ لعذَّبَهُم لحقِّــهِ عليهِمْ، وهو غيرُ ظــالمٍ لهُمْ، وكانوا -إذ ذاكَ- مُسْــتَحِقِّين للعذابِ، ولم يكنْ تَعذيبُه ظُلْمًا لَهُم بغَيرِ اســتِحْقاقٍ؛ فإنَّ حقَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهِمْ أضعافُ أضعافِ ما أَتَوْا مِنَ الطَّاعاتِ.

فكيفَ، وأعمالُهم لا توازي القليلَ مِنْ نِعَم اللهِ تعالى عليهِمْ؟ بَلْ تَوفيقُهُم للطَّاعةِ هوَ مِنْ نِعَمِه عليهِمْ، وفَضْلِه، وإحســانِه، ولكلِّ نِعْمَةٍ مِنْ هذِهِ النِّعَمِ حقٌّ مِن الشُّكرِ يَسْتَدْعيهِ، ويَقْتَضيهِ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٧٠).

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

فتَبْقى نِعَمُه الكثيرةُ لا مُقابِلَ لها مِنْ شُكرِهِمْ، بَلْ لو وُزِّعَت طاعاتُ العبدِ كلُّها على هذِه النِّعَم؛ لم يَخْرُجْ قِسْطُ كلِّ نِعْمةٍ مِنْها إلَّا جزءٌ يَسيرٌ جدًّا، لا نِسبةَ له إلى قَدْرِ تلكِ النِّعْمَة بوَجْهٍ مِنَ الوُجوهِ!

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال في الآيةِ الأخرى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١٨].

فإذا عذَّبَهُم على تَرْكِ شُكْرِهِم، وتَرْكِ أداءِ حقِّه الذي يَنبغي له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ عذَّبهم بحقِّهِ، ولم يكُنْ ظالمًا لهُمْ؛ ولهذا قال بعدَه:

«وَلَوْ رَحِمَهُمْ؛ كانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمالِهِمْ»:

يَعني: أنَّ رَحْمَتَه لَهُم لَيْسَت في مُقابَلَةِ أعمالِهِم، ولا هيَ ثمنًا لها، ولا تبلُغُ أعمالُهم رَحْمَتَه؛ فرَحْمَتُه لهم لَيسَتْ على قَدْرِ أعمالِهم؛ إذ أعمالُهُم لا تَسْتَقِلُّ باقتِضاءِ الرَّحمةِ، وحقوقُ عبوديَّتِه وشُكْرِه التي يَسْتَحِقُّها عليهِمْ لَمْ يقوموا بها.

فرَحْمَتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خيرٌ مِنْ أعمالِهِمْ؛ لأنَّ رَحْمَةَ اللهِ تُنْجي العبدَ، وعَمَلَه لا يُنجيهِ، ولا يُدْخِلُه الجنَّةَ؛ كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»، قالوا: وَلا أَنْتَ يا رَسولَ الله؟ قال: «**وَلا أنا، إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ بِفَضْلٍ، وَرَحْمَةٍ**»[1]، وفي روايةٍ: «**لَنْ يُنْجيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**»[2].

فالأعمالُ الصَّالحةُ سَببٌ في دُخولِ الجنَّةِ، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، لكِنْ ليسَتِ الأعمالُ ثَمنًا لدخولِ الجنَّةِ، أو مُعاوضَةً، ومقابلةً للجنَّةِ، بلْ دُخولُ الجنَّةِ يكونُ برَحْمَةِ اللهِ تعالى، وفَضْلِه.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) تقدّم ذكره آنفًا.

فمعنى الحديثِ: أنَّه لَوْ عذَّبَهم؛ لعذَّبَهم باسْتِحقاقِهم، ولَمْ يكُنْ ظالمًا لهُمْ، وأنَّه لَوْ رَحِمَهم؛ لكانَ ذلكَ مُجَرَّدَ فضلِه، وكرمِهِ، لا بأعمالِهم؛ فرحمَتُه خَيْرٌ مِنْ أعمالِهم.

فجَميعُ العِبادِ تحتَ عَفْوِ اللهِ، ورَحْمَتِه، وفَضْلِه، فما نجا مِنْهُم أحدٌ إلَّا بعَفْوِهِ، ومَغْفِرَتِه، ولا فازَ بالجنَّةِ أحدٌ إلا بفَضْلِه، ورَحْمَتِه.

فالحَمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ على إحسانِه، ورَحْمَتِه، وجودِه، وعَطائِه[1].

فإنْ قيلَ: فما معنى قولِ عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ، كما حَكاه ربُّه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]؟

فقَدْ يَفهمُ البعضُ مِنْ قولِهِ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أنَّ مَعناهُ: هُمْ عبادُك، والمُلْك مُلكُك، والمُتصرِّفُ في مُلْكِه غيرُ ظالمٍ، فلَوْ عذَّبتَهم لَمْ تكنْ ظالمًا لَهُم؛ لأنَّك تفعَلُ ما تَشاءُ، فأنتَ تُعذِّبهم بمَحْضِ المَشيئَةِ المُجرَّدةِ! وهذا قَولُ الجَبْرِيَّة.

فالجَوابُ: أنَّ هذا مِنْ كَمالِ أدَبِ عيسَى عَلَيهِ السَّلَامُ معَ ربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومِنْ أبلَغِ الأدَبِ معَ اللهِ في مِثلِ هذا المَقامِ.

والمعنى: أنَّ شأنَ السيِّدِ رحمةُ عَبيدِه، والإحسانُ إليهِمْ، وهؤلاءِ عَبيدُك لَيسوا عبيدًا لِغيرِكَ، فإذا عذَّبتَهم مَعَ كونِهم عبيدَكَ، وأنتَ أرْحَمُ بِهم مِنْ أنفُسِهم، فلَوْلا أنَّهم عَبيدُ سوءٍ عُصاةٌ، لَمْ تُعَذِّبْهُم، وأنتَ أعلمُ بسِرِّهم، وعلانيتِهم، كما قال قَبْلَها: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

فإذا عذَّبتَهم عذَّبتَهم على عِلْمٍ مِنْكَ بما تُعَذِّبُهم عليهِ، فهوَ إقرارٌ، واعترافٌ، وثناءٌ عليهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحِكْمَتِه، وعَدْلِه، وكمالِ عِلْمِه بحالِهم، واستِحقاقِهم للعذابِ، فهوَ يوافِقُ الحَديثَ، ولا يُخالِفُه.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٤٣)، طريق الهجرتين (ص١١٢، ٢٨٦)، مفتاح دار السعادة (١/ ٨، ٢/ ١٠٩)، شفاء العليل (ص١١٣)، مختصر الصواعق المُرسَلَة (ص٢٤٦).

ثُمَّ قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ولَمْ يقُل: «الغفورُ الرَّحيمُ»، وهذا مِنْ أبلَغِ الأدَب معَ اللهِ تعالى؛ فإنَّه قاله في وقتِ غَضَبِ الرَّبِّ عليهِم، والأمْرِ بِهِمْ إلى النارِ، فليسَ هوَ مقامَ استِعطافٍ، ولا شفاعَةٍ، بلْ مَقام بَراءةٍ مِنهُمْ، فالمَقامُ مَقامُ موافقةٍ للرَّبِّ في غَضَبِهِ على مَن غَضِبَ الرَّبُّ عليهِمْ.

والمعنى: إنْ غَفَرْتَ لهُمْ، فمَغفِرتُك تكونُ عنْ كَمالِ القُدْرَةِ، والعِزَّةِ، والعِلْمِ، ليسَت عَنْ عَجْزٍ عَنِ الانتقامِ منهُمْ، ولا عنْ خَفاءٍ عليكَ بمِقدارِ جَرائِمِهم.

فالعَبدُ قد يَغْفِرُ لغَيرِهِ لعَجْزِه عنِ الانتقامِ مِنهُ، ولجَهْلِه بمِقدارِ إساءَتِه إليهِ، والكمالُ: هوَ مَغْفِرةُ القادِرِ العالِمِ، وهوَ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وكان ذِكْرُ هاتَيْنِ الصِّفتَينِ في هذا المَقامِ هوَ عينَ الأدَبِ في الخِطابِ(١).

وقولُه ﷺ: «وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا في سَبيلِ اللَّهِ، ما قَبِلَهُ اللّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ ما أَصابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ ما أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَكَ»:

الإيمانُ بالقضاءِ والقَدَرِ مِنْ أركانِ الإيمانِ، وأصولِهِ التي لا يَتمُّ إيمانُ العبدِ إلَّا بها، وهوَ: «تقديرُ اللهِ تعالى للكائناتِ حَسْبَما سبقَ بِهِ عِلْمُه، واقتضَتْه حِكْمَتُه»(٢).

ولِذا لَمَّا قيلَ لابنِ عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنا ناسٌ يَقْرَءونَ القُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرونَ العِلْمَ(٣)، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمونَ أَنْ لا قَدَرَ، وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ(٤)! قال ابنُ عمرَ: «فَإِذا لَقيتَ أولَئِكَ؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَريءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي! والذي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ؛ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ؛ ما قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ».

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٥٨)، مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٩)، تفسير السعدي (ص٢٥٠).

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة لابن عثيمين (ص٢٧).

(٣) يطلبون ويجمعون العِلم.

(٤) أي: مُستأنَف، لم يَسْبِق به قَدَر ولا عِلم من الله، وأنَّه يعلمه بعد وقوعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عمَّا يقول الظالمون.

ثُمَّ روَى عنْ أبيهِ عُمرَ حديثَ جِبريلَ المَشهورَ في الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ، وفيهِ: «**فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإيمانِ، قال: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ، وَشَرِّهِ**»[١].

فتَبرَّأ منهُمْ عبدُ الله بنُ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وأخبرَ أنَّه لا تُقبَلُ مِنْهُم أعمالُهم بِدونِ الإيمانِ بالقَدَرِ.

وقال عُبادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِابْنِهِ: «يا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقيقَةِ الإيمانِ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ ما أَصابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَما أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَكَ».

ثُمَّ قال: سَمِعْتُ رَسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقال لَهُ: اكْتُبْ، قال: رَبِّ، وَماذا أَكْتُبُ؟ قال: اكْتُبْ مَقاديرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقومَ السَّاعَةُ**».

ثُمَّ قال: يا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقولُ: «**مَنْ ماتَ على غَيْرِ هذا فَلَيْسَ مِنِّي**»[٢].

وفي روايةِ التِّرمذي: «**يا بُنَيَّ، اتَّقِ اللهَ، واعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَّقِيَ اللهَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ، وَشَرِّهِ، فَإِنْ مُتَّ على غَيْرِ هذا دَخَلْتَ النَّارَ**»[٣].

وقد تَقدَّم معَنا: أنَّ الإيمانَ بالقَدَر لا يتمُّ إلَّا بالإيمان بمراتبِه، وأركانِهِ الأربَعَة، وهيَ: العِلْمُ، والكتابَةُ، والمشيئَةُ، والخَلقُ.

فنؤمِنُ بأنَّ اللهَ تعالى **عَلِمَ الأشياءَ بعِلْمِه الأزليِّ قَبْلَ كَوْنِها**، فعَلِمَ ما كانَ، وما يكونُ، وما سَيكونُ، وما لَمْ يكُنْ لَو كانَ كيفَ يكونُ، جُملةً، وتَفصيلًا، وأنَّه عَلِمَ ما الخلقُ عامِلون قَبْلَ خَلْقِهِم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥]

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، وصحَّحه ابن حجر والألباني.

(٣) الترمذي (٢١٥٥)، وصحَّحه الألباني.

ونُؤمنُ بــأنَّ اللهَ تعالى **كتبَ كلَّ شَيءٍ في اللَّوحِ المَحفوظِ قَبْل كَونِهِ**: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

فاللهُ تعالى أجْرَى القلَمَ على اللَّوْحِ المَحفوظِ؛ ليكتبَ مَقاديرَ الخَلائقِ، ما كانَ، وما هوَ كائنٌ إلى الأبدِ، على وَفقِ ما سَبَقَ بهِ عِلْمُ اللهِ تعالى، وإرادتُه، ومشيئتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أزلًا.

ونُؤمِنُ بأنَّ **كلَّ ما يَجري في هذا الكَوْنِ فهوَ بإرادَةِ اللهِ، ومَشيئتِهِ**، الدائرةِ بَيْن الرَّحمةِ، والحِكْمةِ، وما وَقَعَ منْ ذلكَ، فإنَّه مُطابقٌ لعِلْمِه السَّابقِ المَكتوبِ في اللَّوحِ المَحفوظِ؛ فمَشــيئةُ اللهِ نافِذةٌ، وقُدرتُهُ شامِلَةٌ، ما شــاءَ اللهُ كانَ، وما لَمْ يشَأْ لَمْ يكُنْ؛ فلا يَخرُجُ عنْ إرادتِهِ شَيءٌ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

ونُؤمِن بأنَّ اللهَ خالِقُ كلِّ شيءٍ، لا خالقَ غيرُهُ، ولا ربَّ سِــواهُ، وأَنَّ كلَّ ما سِواهُ مَخلوقٌ؛ فهوَ خالقُ كلِّ عاملٍ، وعملِهِ، وكلِّ متحرِّكٍ، وحركتِهِ.

وأَنَّ كلَّ مــا يَجري مِنْ خَيْرٍ، وشَرٍّ، وكُفرٍ، وإيمانٍ، وطاعَةٍ، ومَعصيةٍ، شــاءَهُ اللهُ، وقَــدَّرَه، وخَلَقه، قــال تعــالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقولُــهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَتَعْلَمَ أَنَّ ما أَصابَــكَ لَمْ يَكُنْ ليُخْطِئَــكَ، وَأَنَّ ما أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ ليُصيبَكَ»:

وَهــذا مثلُ مــا وَرَدَ في الكَلِماتِ الَّتي عَلَّمَهُنَّ رَســولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابنَ عَباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: «... **واعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ على أَنْ يَنْفَعوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعوكَ إِلَّا بِــشَيْءٍ قَدْ كَتبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعوا على أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»[١].

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وحسَّنه ابن رجب وابن حجر، وصحَّحه ابن منده والألباني ومحقِّقو المسند.

والمَقصـودُ: أنَّ العَبْدَ إذا عَلِمَ أنَّه لَنْ يُصيبَه إلَّا ما كتبَ اللهُ له مِنْ خَيرٍ، وشرٍّ، ونَفعٍ، وضَرٍّ، وأنَّ اجتهادَ الخَلْقِ كلِّهم على خِلافِ المَقدورِ غيرُ مُفيدٍ ألبتَّةَ؛ عَلِمَ حينئذٍ أنَّ اللهَ وحدَه هوَ الذي بيَدِه الضُّرُّ والنَّفعُ والعَطاءُ والمَنعُ.

فأَوْجبَ ذلكَ للعبدِ تَوْحيدَ ربِّه عَزَّوَجَلَّ، وإفرادَه بالطَّاعةِ، وحِفْظَ حُدودِه؛ فإنَّ المعبودَ إنَّما يُقْصَد بعبادَتِه جَلْبُ المَنافعِ، ودَفْعُ المَضارِّ؛ ولهذا ذَمَّ اللهُ تعالى مَن يعبُدُ مَنْ لا يَنفعُ، ولا يضُرُّ، ولا يُغني عنْ عابدِه شيئًا: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡ﴾ [الفرقان: ٥٥]، ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦].

فمَنْ يَعْلَم أنَّه لا يَنفعُ، ولا يضُرُّ، ولا يُعْطي، ولا يَمنعُ، غيرُ اللهِ؛ أوجبَ له ذلكَ إفرادَه بالخَوْفِ، والرَّجاءِ، والمَحبَّةِ، والاستعانةِ به، والسؤالِ له، والتضرُّعِ، وإخلاصِ الدُّعاءِ له في حالِ الشِّدَّةِ، وحالِ الرَّخاءِ، وتقديمَ طاعتِهِ على طاعةِ الخَلْقِ جميعًا، وأنْ يَتَّقيَ سَخَطَه، ولو كان فيه سَخَطُ الخَلْقِ جميعًا[١].

وقولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَلَوْ مُتَّ على غَيْرِ هذا لَدَخَلْتَ النَّارَ»:**

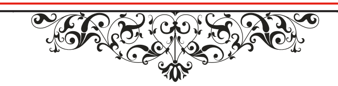
في هذا جَزْمٌ أنَّ مَنْ ماتَ مُنكِرًا للقَدَرِ، كانَ مِنْ أهلِ النارِ؛ لأنَّ مَن أنكرَ القدَرَ فهوَ كافرٌ؛ لأنَّه مكذِّبٌ للقرآنِ، ومكذِّبٌ لأمرٍ مَعْلومٍ مِنَ الدِّين بالضَّرورَةِ، والكافرُ مِنْ أهلِ النارِ المُخلَّدين فيها[٢].



(١) جامع العلوم والحِكَم (١/ ٤٨٤).
(٢) المُفهِم للقرطبي (١/ ١٣٢)، جامع العلوم والحِكَم (١/ ١٠٣)، القول المفيد (٢/ ٤٢٧).



الحديث السابع عشر



عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال:

«يَدُ اللَّهِ مَلأى لا يَغيضُها نَفَقةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ، والنَّهارَ»،

وَقال:

«أَرَأَيْتُمْ ما أَنْفقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَواتِ، والأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ ما في يَدِهِ»،

وَقال:

«عَرْشُهُ على الماءِ، وَبيَدِهِ الأُخْرَى الميزانُ، يَخْفِضُ، وَيَرْفَعُ»[١].

وفي روايةٍ لهما:

«يَمينُ اللّه مَلْأى، لا يَغيضُها نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ والنَّهارَ، أَرَأَيْتُمْ ما أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَواتِ، والأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ ما في يَمينِهِ، وَعَرْشُهُ على الماءِ، وَبيَدِهِ الأُخْرَى الفَيْضُ -أَوِ القَبْضُ-، يَرْفَعُ، وَيَخْفِضُ»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣).

(٢) رواه البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣).



في هـــذا الحَديثِ بيانٌ لِكَـــمالِ مُلْكِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وجودِه، وإحســـانِه، وكمالِ قُدْرَتِه، وعَظَمَتِه، وأنَّ مُلْكَه وخزائنَه لا تَنفَدُ، ولا تَنقُص بالنَّفَقة، والعطاءِ، كما قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧]، وقـــال: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر: ٢١].

وفي الحَديـــثِ الآخَرِ: «**يا عِبادي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَـــكُمْ، وَجِنَّكُمْ، قاموا في صَعيدٍ واحِدٍ، فَسَـــأَلوني، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْســـانٍ مَسْـــأَلَتَهُ؛ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدي، إِلَّا كَما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذا أُدْخِلَ البَحْرَ**»[1].

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَدُ اللَّهِ مَلأى، لا يَغيضُها نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ، والنَّهارَ»:**

قولُهُ: «مَلْأى» يعني: شَديدةُ الامتِلاءِ بالخَيْرِ الكثيرِ، وما لا نِهايةَ لَه مِنَ الأرْزاقِ، والعَطايا.

«لا يَغيضُها» أي: لا ينقُصُها.

«سَحَّاءُ اللَّيْلَ، والنَّهارَ» أي: دائِمةُ العَطاءِ، والصَّبِّ، في اللَّيلِ، والنَّهارِ.

يُقالُ: «سَـــحَّ الماءُ»: إذا انصبَّ من فَوق، وارتفعَ إلى حدِّ السَّيلانِ؛ فيَدُ اللهِ تُعْطي عـــن ظَهرِ غِنًى، جزيلةُ العَطاءِ، ولا مانِعَ لإعطـــاءِ اللهِ؛ لأنَّ الماءَ إذا انصبَّ مِنْ فوق انصبَّ بسهولَةٍ، وإذا أخذَ في الانصِبابِ لَمْ يَسْتَطِعْ أحدٌ أنْ يرُدَّه[2].

فاليدُ قدْ تكونُ خاليةً، فلا يُمكِن العَطاءُ مِنْها، وقد تكونُ مَلأى، ويكون صاحبُها بَخيلاً، فإذا كانتْ مَلأى وصاحبُها لا يُنفِق صارَت غيرَ سَحَّاء، وإذا لَمْ يكُنْ فيها شَيءٌ فَلا إنفاقَ؛ لأنَّها خاليةٌ.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) مرقاة المفاتيح (١/ ١٦٦).

أمَّا يدُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: فملأى سحَّاءُ دائمًا، تُعْطي اللَّيلَ، والنَّهارَ، ومعَ ذلكَ فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَمينِه، **أي:** لَمْ يَنقُصْ[(١)].

فاللهُ تعالى لـه الجودُ الكامِلُ، والإحسانُ الصادِرُ مِنْ خزائنِ رَحْمَتِه، التي لا ينقُصُها الإنفاقُ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وهذا كما قال تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ «فلا حَجْرَ عليهِ، ولا مانعَ يَمْنَعُه ممَّا أرادَ، فإنَّه تعالى قد بَسطَ فضلَه، وإحسانَه الدِّينيَّ، والدُّنيويَّ، وأمرَ العبادَ أنْ يتعرَّضوا لنَفَحاتِ جودِه، وأنْ لا يسُدُّوا على أنفُسِهم أبوابَ إحسانِه بمَعاصيهِم، فيدُهُ سَحَّاءُ اللَّيلَ، والنَّهارَ، وخَيرُه في جَميعِ الأوقاتِ مِدْرارٌ»[(٢)].

أمَّا الإنسانُ: فمِنْ طَبْعِه البُخلُ، والشُّحُّ، فيُمْسِك خَشيةَ النَّفادِ؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٠][(٣)].

وفي الحَديثِ: إثباتُ اليدَيْنِ للهِ تعالى، وأنَّهما مَبسوطَتانِ بالعَطاءِ، والنِّعَم، وهُما مِنْ صِفاتِ اللهِ الذاتيَّةِ الثَّابتةِ لَه حقيقةً، على الوَجْهِ اللَّائقِ بجلالِه.

فقال: «يَدُ اللّه»، وفي الرِّوايةِ الأُخرى: «يَمينُ الله»، ثُمَّ قال: «وَبيَدِهِ الأُخْرَى الميزانُ».

وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥] وقال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وأجْمعَ السَّلَفُ على أنَّ للهِ يدَيْنِ، فيَجبُ إثباتُهما للهِ تعالى حَقيقةً، على الوَجْهِ الذي

(١) شرح العقيدة السفارينيَّة لابن عثيمين (ص٢٥٦).
(٢) تفسير السعدي (ص٢٣٨).
(٣) خشية الإنفاق: النفاد والفاقة، وقتورًا: بخيلًا.

يَليــقُ بجلالِهِ، وكمالِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإجراءُ نُصوصِ الصِّفــاتِ على ظاهِرِها، مِنْ غَيرِ تَشــبيهٍ، ولا تَمثيلٍ، ولا تَكييفٍ، ولا تَعطيلٍ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فلا نقولُ: إنَّ المُرادَ بـ«اليد»: القُدرةُ، أوِ النِّعْمةُ، كما يقولُ أهلُ التَّعطيلِ[١].

وقولُهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«أَرَأيْتُمْ ما أَنْفقَ مُنْذُ خَلقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ ما في يَدِهِ»:**

هذا تأكيدٌ للجُملةِ السَّــابقةِ، وكالدَّليلِ والشَّــاهِد عليها، وإيضاحٌ لكثرةِ نَفَقَتِه تعــالى، وتنبيهٌ لِمَنْ له بَصيرةٌ إلى أنَّ يدَ اللهِ مَلأى، لا تَنقُصُ بالنَّفقةِ، والعَطاءِ، وتُعطي اللَّيلَ، والنَّهارَ، ومعَ عِظَم هذِهِ النفقَةِ مُنذُ خَلَقَ السَّماواتِ، والأَرضَ، لَمْ ينقصْ ما في يَدِه؛ لأنَّ بيدِه الخيرَ كلَّــه، لا مانعَ لِما أعطَى، ولا مُعْطيَ لِما مَنعَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإذا أرادَ شَيْئًا قال له: كُنْ، فيكونُ[٢].

وقولُهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«وَكانَ عَرْشُــهُ علــى الماءِ»، وفــي الرِّوايةِ الأخرَى: «وعَرْشُه على الماءِ»:**

لَمَّا ذكَرَ خَلْقَ السَّــمواتِ، والأرضِ، كأنَّ الخاطرَ استَشْــعرَ أو تَطَلَّعَ إلى ما قَبْلَ ذلِكَ؛ فذَكَرَ أنَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كانَ عَرْشُه على الماءِ، قَبْلَ خَلْقِ السَّمواتِ، والأرضِ.

وفي هذا دَليلٌ على: أنَّ خَلْقَ العَرْشِ كانَ قَبْلَ السَّمواتِ، والأرضِ[٣].

فالعَرْشُ كانَ على المــاءِ عِندَ ابتداءِ خَلْقِ السَّــمواتِ، والأرضِ، كما قال تعالى:

---

(١) فتح رب البريَّة بتلخيص الحمويَّة لابن عثيمين (ص٦٩)، شرح الواسطية (١/ ٢٩١)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣٠٤، ٣١١).

(٢) طرح التثريب للعراقي (٤/ ٦٩)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣٠٥).

(٣) طرح التثريب (٤/ ٦٩)، فتح الباري (١٣/ ٣٩٥).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٧].

وفي الحَديثِ: «**كانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكانَ عَرْشُهُ على الماءِ، وَكَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمواتِ، والأَرْضَ**»(١).

وقولُهُ ﷺ: «**وَبيَدِهِ الأُخْرى الميزانُ، يَخْفِضُ، وَيَرْفَعُ**»:

«**الميزانُ**» هوَ: العَدْلُ؛ لأنَّه بالميزانِ يقعُ العَدْلُ، كما في الحديثِ الآخَرِ: «**يَخْفِضُ القِسْطَ، وَيَرْفَعُهُ**»(٢).

فاللهُ تعالى يَحْكُمُ في خَلْقِه بميزانِ العَدْلِ، فمَن عَمِلَ ما يَسْتَحِقُّ الرَّفعَ رفعَه، ومَن عَمِلَ ما يَسْتَحِقُّ الخفضَ خَفضَه.

فاللهُ تعالى يَخْفِضُ مَنْ يشاءُ، ويَرْفَعُ مَنْ يشاءُ، ويوَسِّعُ الرِّزقَ على مَنْ يشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَنْ يشاءُ؛ كما قال أَبو الدَّرْداءِ رضي الله عنه، في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال: «يَغْفِرُ ذَنْبًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيُجيبُ داعيًا، وَيَرْفَعُ قَوْمًا، وَيَضَعُ آخَرينَ»(٣).

وقولُهُ: «يَخفِضُ وَيَرْفَعُ» أي: يَخْفِضُ الميزانَ ويَرْفَعُه؛ فإنَّ الذي يوزَنُ بالميزانِ يَخِفُّ، ويَرْجَحُ، كما في الحديثِ الآخَرِ: «**يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ**»(٤).

وقيلَ: «الميزانُ» هوَ: القِسْمَةُ بَيْنَ الخَلْقِ.

فالميزانُ الذي يَخْفِضُه اللهُ تعالى، ويرفَعُه، هوَ: الشَّيءُ المَوْزونُ، فاللهُ تعالى يَخْفِضُ

(١) رواه البخاري (٣١٩١).
(٢) رواه مسلم (١٧٩).
(٣) رواه البيهقي في الشعب (١٠٦٧)، ويأتي.
(٤) رواه مسلم (١٧٩).

الميــزانَ، ويَرْفَعُه بما يوزَن مِنْ أرزاقِ العِبادِ النازِلَةِ مِنْ عِندِه، وأعمالِهم المُرتفعة إليْهِ، فيَخفِضُ الميزانَ تارةً بتَقتيرِ الرِّزقِ، والخِذلانِ بالمَعصيةِ، ويَرفَعُه تارةً بتَوْسيعِ الرِّزقِ، والتَّوفيقِ للطَّاعةِ، عَدْلًا، وحِكمةً(١).

وقولُهُ ﷺ في الرِّوايةِ الأُخرَى: «وَبيَدِهِ الأُخْرَى الفَيْضُ -أَوِ القَبْضُ- يَرْفَعُ، وَيَخْفِضُ»:

قَولُهُ: «الفَيْضُ أَوِ القَبْضُ»: «أو» هنا للشَّكِّ مِنَ الرَّاوي، وقيلَ: للتَّنويعِ.

و**«الفَيْضُ»** هوَ: فَيْضُ الإحسانِ بالعَطاءِ، والرِّزقِ الواسِعِ.

و**«القَبْضُ»:** قَبضُ الأرواحِ بالمَوْتِ.

وقيلَ: «القَبْضُ»: المَنْعُ؛ لأنَّ الإعطاءَ قَدْ ذُكِرَ في قولِه قَبْلَ ذلكَ: «سَحَّاءُ اللَّيْلَ، والنَّهــارَ»، فيكــونُ المعنى: بيدِ اللهِ العَطــاءُ والمَنعُ، كما قــال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

و**«يَرْفَعُ، ويَخْفِضُ» أي:** يَرفعُ أقوامًا، ويضَعُ آخَرين، ويوَسِّــعُ الرِّزقَ على مَنْ يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ(٢).

فالحاصِلُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قدْ أخْبَرَ أنَّ يدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اليُمنَى فيها الإحسانُ إلى الخَلْقِ، ويدَه الأُخْرَى فيها العَدْلُ، والميزانُ، الذي بِهِ يَخْفِضُ، ويَرْفَعُ.

فالفَضْلُ بيدِهِ اليُمنَى، والعَدْل بيدِه الأخرَى، فخَفْضُه ورَفْعُه مِن عَدْلِهِ، وإحسانُه إلى خَلْقِه مِن فَضْلِه(٣).

---

(١) أعلام الحديث للخطابي (٣/ ١٨٦٢)، المُفهم للقرطبي (١/ ٤٠٩)، شرح النووي على مسلم (٣/ ١٣، ٧/ ٨٠)، فتح الباري (١٣/ ٣٩٥)، إرشاد الساري للقسطلاني (٧/ ١٦٩، ١٠/ ٣٨٧)، مرقاة المفاتيح (١/ ١٦٥)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣٠٦).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٩٥)، إرشاد الساري (١٠/ ٣٩٣).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (٨/ ٩٥، ١٧/ ٩٣).

فهوَ «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحْسِنُ، ويَعْدِلُ، ولا يَخْرُج فِعْلُه عنِ العَدْلِ، والإحسانِ؛ ولهذا قيلَ: كلُّ نِعْمةٍ مِنه فضلٌ، وكلُّ نِقْمَةٍ مِنه عَدْلٌ»(١).

وقال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُقَسِّمُ الأرزاقَ، ويُجْزِلُ العَطايا، ويَمُنُّ بفَضْلِه على مَن يشاءُ مِنْ عبادِه بيمينِه، وباليدِ الأخْرَى الميزانُ، يَخْفِضُ به مَن يشاءُ، ويَرْفَعُ به مَنْ يشاءُ، عَدْلًا منه، وحِكْمةً، لا إلهَ إلَّا هوَ العَزيزُ الحَكيمُ.

هوَ القيُّومُ بأمرِ السَّمواتِ، والأَرضِ، ومَنْ فيهنَّ، ليسَ لَهُ بوَّابٌ فيُستأذَن، ولا حاجِبٌ فيدخُل علَيْهِ، ولا وزيرٌ فيؤتَى، ولا ظهيرٌ فيُستعانُ بهِ، ولا وَليٌّ مِنْ دونِهِ فيُشْفَع به إليهِ، ولا نائبٌ عنهُ فيُعَرِّفه حوائجَ عبادِهِ، ولا مُعين له فيُعاوِنُه على قضائِها، بَلْ قدْ أحاطَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها عِلْمًا، ووَسِعَها قُدْرَةً، ورحمةً.

فلا تَزيدُه كثرةُ الحاجاتِ إلَّا جودًا، وكَرَمًا، ولا يَشْغَلُه مِنْها شأنٌ عَنْ شأنٍ، ولا تُغْلِطُه كثرةُ المَسائِلِ، ولا يتبَرَّمُ بإلحاحِ المُلِحِّينَ، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢](٢).



(١) منهاج السُّنة النبوية (١/ ١٣٩).

(٢) طريق الهجرتين (ص٢٠٧)، باختصار وتصرُّف يسير.





الحديث الثامن عشر

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«قــال اللّهُ: كَذَّبَني ابْنُ آدَمَ، ولَمْ يكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَــتَمَني ولَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأمَّا تَكْذِيبُهُ إيَّايَ، فقَوْلُهُ: لَــنْ يُعيدَني كَما بَدَأَني، ولَيْسَ أوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعادَتِهِ.

وَأَمَّا شَــتْمُهُ إيَّايَ، فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا، وَأَنا الأحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لي كُفْئًا أَحَدٌ»[١].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: قال اللّهُ:

«كَذَّبَني ابْــنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَــتَمَني، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذيبُهُ إيَّايَ، فزَعَمَ أَنِّي لا أَقْدِرُ أَنْ أُعيدَهُ كَما كانَ، وَأَمَّا شَــتْمُهُ إيَّايَ، فَقَوْلُهُ لي وَلَدٌ، فَسُبْحاني أَنْ أَتَّخِذَ صاحِبَةً أَوْ وَلَدًا»[٢].

اشتمَلَ هذا الحَديثُ القُدْسيُّ العظيمُ على أصلَيْنِ عظيمَيْنِ مِنْ أصولِ التَّوحيدِ:

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٢).



• **الأَوَّلُ: إثبــاتُ البَعْثِ بَعدَ المَوتِ**، وأنَّ اللهَ تعالى يَجْمعُ أجســادَ المَوْتَى، ويُعيدُها، بُقْدرَتِه كما كانَتْ، ويُعيدُ الأرواحَ إليها.

• **والأصلُ الثاني: أنَّ اللهَ تعالى واحِدٌ، مُنزَّهٌ عنِ الصَّاحبَةِ، والوَلَدِ.**

وإنكارُ البَعثِ يَتضمَّنُ تكذيبَ اللهِ تعالى فيما أخبَرَ بِهِ على ألسِنَةِ رُسُلِه، وفي كِتابِهِ؛ ولِذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «**كَذَّبَنــي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ... فَأَمَّا تَكْذيبُهُ إيَّايَ، فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعيدَني كَما بَدَأَني**».

واللهُ تعــالى يَقولُ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩] وقــال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

ونِسْبَةُ الولَدِ إلى اللهِ تعالى شَتمٌ لَهُ، وتَنقُّصٌ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عمَّا يقولونَ عُلوًّا كبيرًا؛ لأنَّه الســيِّدُ الصَّمَدُ الغنيُّ، وجميعُ المَخلوقاتِ خاضِعَةٌ لَه، مُفتَقِرةٌ إليْهِ، وهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الغنــيُّ عنْ عِبادِه، والولَدُ لا بُدَّ أنْ يَكونَ مِنْ جِنسِ والِدِه، واللهُ خالِقُ كلِّ شَيءٍ، ولا شَبيهَ لَهُ، ولا نِدَّ: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

ولِذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «**وَشَــتَمَني وَلَــمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ... وَأَمَّا شَــتْمُهُ إيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا**».

ولَمَّــا دخَلَ أبو بَكرٍ الباقِلَّانيُّ على مَلِكِ الــرُّومِ، وعِندَهُ راهِبٌ، فقال له الباقلَّانيُّ: كَيْفَ الأَهْلُ، والأَولادُ؟

فَقال المَلِكُ: مَهْ! أَما عَلِمْتَ أَنَّ الرَّاهِبَ يتنزَّه عَنْ هذا؟

فَقال: «تُنَزِّهونه عَنْ هذا، وَلاَ تُنَزِّهون رَبَّ العالَمِينَ عَنِ الصَّاحِبَةِ، والوَلَدِ؟!»[١].

ومعَ هذا الشَّتمِ، والتنقُّصِ، إلَّا أنَّ اللهَ تعالى حليمٌ على عبادِه، يصبِرُ عليهِم، ويُعافيهِم، ويرزُقُهم، ولا يُعاجِلُهم بالعُقوبَةِ، كما في الحَديثِ: «**لا أَحَدَ أَصْبَرُ على أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، إنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الوَلَد، ثُمَّ هوَ يُعافيهِمْ، وَيَرْزُقُهُمْ**»[٢].

وفي هذا يقولُ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في «نونيَّتِه»:

وهوَ الصَّبورُ على أذَى أعدائِهِ ... شَتَموه بَلْ نَسَبوه للبُهْتانِ
قالوا لَه وَلَدٌ وليسَ يُعيدُنا ... شَتْمًا وتكذيبًا مِنَ الإنْسانِ
هذا وذاكَ بِسَمْعِهِ وبِعِلْمِهِ ... لَوْ شاءَ عاجَلَهُم بِكُلِّ هَوانِ
لكن يُعافيهِم ويَرْزُقُهُم وهُم ... يُؤذونَه بالشِّرْكِ والكُفْرانِ[٣]

ثُمَّ ردَّ اللهُ تعالى على هذا التكذيبِ، والشَّتمِ:

فقال في الأوَّلِ: «فَأَمَّا تَكْذيبُه إيَّايَ، فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعيدَني كَما بَدَأَني، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إعادَتِه».

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

أي: «أفأعْجزَنا ابتداءُ الخَلْقِ حتَّى هُم في شكٍّ مِنَ الإعادَةِ؟ ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، **والمعنى:** أنَّ ابتداءَ الخَلْقِ لم يُعْجِزْنا، والإعادَةُ أسهَلُ مِنْه»[٤].

---

(١) تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص٢١٨)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٩٢).
(٢) رواه البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٨٠٤)، واللفظ له.
(٣) نونية ابن القيِّم (ص٢٠٧).
(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٧).

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

فرَدَّ اللهُ تعالى عليهم بردٍّ بَسيطٍ مُقْنِعٍ مُفْحِمٍ، وهوَ: أنَّ الذي خَلَقَ هذِهِ العِظامَ أوَّلَ مَرَّةٍ قادرٌ على أنْ يُعيدَها.

وهذا الردُّ لا يُمكِنُ الاعتراضُ عليهِ؛ لأنَّهُم مُؤمنونَ أنَّ اللهَ تعالى هوَ الذي خَلَقَهُم؛ كما قال تعالى عنهُمْ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

«وهذا بمُجَرَّدِ تصوُّره يُعْلَم بهِ علمًا يقينيًّا، لا شُبهة فيهِ، أنَّ الذي أنشَأَها أوَّلَ مرَّةٍ، قادرٌ على الإعادَةِ ثاني مرَّةٍ، وهو أهْوَنُ على القُدْرَة إذا تصوَّره المُتصوِّرُ.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]: هذا أيضًا دَليلٌ ثانٍ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالى، وهوَ أنَّ علمَهُ تعالى مُحيطٌ بجَميعِ مَخلوقاتِهِ، في جميعِ أحوالِها، في جميعِ الأوقاتِ.

ويَعلَمُ ما تنقُص الأرضُ مِنْ أجسادِ الأمواتِ، وما يَبْقَى، ويعلَمُ الغَيْبَ، والشَّهادَةَ، فإذا أقرَّ العَبْدُ بهذا العِلْمِ العظيمِ؛ عَلِمَ أنهُ أعظَمُ وأجلُّ مِنْ إحياءِ اللهِ المَوْتى مِنْ قُبورِهِم»[١].

«فإنَّ تعذُّرَ الإعادةِ عليهِ إنَّما يكونُ لِقصورِ عِلْمِهِ، أو قُصورٍ في قُدرتِهِ، ولا قُصورَ في عِلْمِ مَنْ هو بكلِّ خَلْقٍ عليمٍ، ولا قُدْرَةَ فوقَ قُدْرةِ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ، والأرضَ، وإذا أرادَ شَيْئًا قال له: كُنْ؛ فيكونُ، وبيدِهِ مَلَكوتُ كلِّ شَيءٍ.

فكَيفَ تَعجَزُ قُدْرَتُه، وعِلْمُه، عَنْ إحيائِكُم بَعدَ مَماتِكم، ولَمْ تَعجَزْ عَنِ النَّشأةِ الأولَى، ولا عَنْ خَلقِ السَّمواتِ، والأرضِ؟»[٢].

---

(١) تفسير السعدي (ص٦٩٩).

(٢) إعلام الموقِّعين (١/ ١١٠).

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: ٦٢] أي: الخِلْقةَ الأولَى، ولَمْ تكونوا شيئًا؛ ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]، أنِّي قادرٌ على إعادَتِكم كما قدرتُ على إبدائِكُم، وأنَّ الذي قدَرَ على النَّشأةِ الأولَى قادرٌ على النَّشأةِ الأُخرَى، بِطريقِ الأَوْلَى، والأَحْرَى[1].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦-٦٧].

وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا[2] أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١].

فَهُم أنكَروا البَعْثَ بَعدَ المَوْتِ، واستحالةِ الأجسادِ إلى التُّرابِ؛ لأنَّهم قاسوا قُدْرَةَ خالِقِ السَّماواتِ، والأرضِ، بقُدرتِهم الضعيفةِ العاجِزة، فلمَّا رَأَوْا أنَّ هذا مُمتَنِعٌ عليهِمْ لا يَقدِرونَ عليْه؛ جَعلوا قُدْرَةَ اللهِ كذلِكَ!

---

(١) تفسير البغوي (٨/ ٢٠)، تفسير ابن كثير (٧/ ٥٣٩).

(٢) رفاتًا: أجسادًا بالية.

فأَمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أَنْ يقولَ لهؤلاءِ المُنكِرينَ لِلبعثِ استِبعادًا: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٥٠] في الشِّدَّة، والقوَّةِ، تَعْجيزًا لَهُم، **أي:** استَشْعِروا في قلوبِكُم أنَّكُم حِجارةٌ، أو حديدٌ، في القوَّةِ، ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] كالسَّماواتِ، والأَرْضِ، والجِبالِ.

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٥١] حينَ تُقيمُ عليهِمُ الحُجَّةَ في البَعثِ: ﴿مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] فكما فَطَرَكُم، ولَمْ تكونوا شيئًا مَذكورًا؛ فإنَّه سيُعيدُكُم خَلْقًا جَديدًا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤][1].

وقال في الثَّاني -وهو الشَّتمُ-: «وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ، وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لي كُفُئًا أَحَدٌ»:

فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي تَصْمِدُ إليهِ[2] جَميعُ المَخلوقاتِ، في جَميعِ حاجاتِها، وأحوالِها، وضروراتِها، بالذُّلِّ، والحاجَةِ، والافتِقارِ، وهوَ الذي كَمُلَ في عِلمِهِ، وحِكْمَتِهِ، وحِلمِهِ، وقُدْرَتِهِ، وعَظَمَتِه، ورَحْمَتِه، وسائِرِ أوصافِهِ[3].

وهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الغنيُّ عنْ عِبادِه، والوَلَد لا بُدَّ أنْ يكونَ مِنْ جنسِ والدِه، واللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ، ولا شبيهَ له، ولا نِدَّ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]؛ فكيفَ يكونُ لَه ولدٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!

وهذا كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ رَدًّا عليهِم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا[4] ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) تفسير البغوي (٥/ ٩٨)، تفسير السعدي (ص٤٦٠).

(٢) أي: تقصِده.

(٣) الحق الواضح المبين للسعدي (ص٧٥).

(٤) منكرًا أو عظيمًا.

وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٦٨]؛ فهوَ الغنيُّ مِنْ كلِّ وَجْهٍ، والكلُّ عَبيدُه، ومماليكُه، فلِأيِّ شيءٍ يتَّخِذُ الولدَ؟ ولا يَتَّخذُ أحدٌ وَلدًا إلَّا لنَقْصٍ في غناهُ[1].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧].

فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٦]: «ليسَ الأمرُ كما افترَوْا، وإنَّما له مُلكُ السَّماواتِ، والأرضِ، وهوَ المُتصرِّف فيهِم، وهوَ خالِقُهم، ورازِقُهُم، ومُقدِّرُهم، ومُسَخِّرُهم، ومُسَيِّرُهم، ومُصَرِّفهم كما يشاءُ، والجميعُ عبيدٌ له، ومِلكٌ له، فكيفَ يكونُ له ولدٌ مِنْهم؟!

والوَلدُ إنَّما يكونُ مُتولِّدًا مِنْ شيئَيْن مُتناسِبَيْنِ، وهوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ليس لَهُ نظيرٌ، ولا مُشارِكٌ في عظَمَتِه، وكبريائِهِ، ولا صاحِبَةَ له، فكيفَ يكونُ له وَلَدٌ؟!

كما قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١-٤]؛ فهوَ السيِّد العظيمُ، الذي

---

(١) تفسير السعدي (ص٣٦٩).

لا نَظيرَ له، ولا شَــبيهَ له، وجَميعُ الأشــياءِ مَخلوقةٌ له مَربوبَةٌ، فكيــفَ يكونُ له مِنْها وَلَدٌ؟!»[١].

فسُــبحانَ اللهِ العظيمِ، وتعالى عمَّا يقــولُ الظالمونَ عُلوًّا كبــيرًا، لا إلهَ إلَّا هوَ، الواحدُ الأحَدُ الصَّمدُ، الذي لَمْ يَلِدْ، ولَمْ يولَدْ، ولَمْ يَكُنْ له كُفوًا أحَدٌ.



---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٦)، باختصار.



الحديث التاسع عشر



عنْ عائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، عنْ رَسولِ اللّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قال:

«لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةُ، وَيْلٌ لِمَـنْ قرأَها، ولَمْ يَتَفَكَّرْ فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]»[(١)]:

هذا الحديثُ له مُناسَبةٌ: فَقَدْ سُئِلَت أمُّ المؤمنينَ عائِشَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا عَنْ أعْجَبِ ما رَأَتْهُ مِنْ رَسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقالتْ: لَمَّا كانَ لَيْلَةٌ من اللَّيالي قال: «**يا عائِشَةُ، ذَريني أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**».

قالت: واللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ ما سَرَّكَ.

قالتْ: فَقامَ فَتطَهَّرَ، ثُمَّ قامَ يُصَلِّي.

قالتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ.

---

(١) رواه ابن حبّان في صحيحه (٦٢٠)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٦١٨)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي (٥٦٨)، وابن المنذر في تفسيره (٢/ ٥٣٢)، وصححه شعيب الأرناؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان، على شرط مسلم، وجوّد إسناده الألباني في الصحيحة (٦٨).

قالتْ: ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ.

قالتْ: ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكي حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ.

فَجاءَ بِلالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكي قال: يا رَسولَ الله، لِمَ تَبْكي وَقَدْ غفَرَ الله لَكَ ما تَقَدَّمَ، وما تَأَخَّرَ؟ قال: «أَفَلا أَكونُ عَبْدًا شَكورًا؟ لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَها وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فيها: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] الآيةَ كلَّها».

قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سُلَيْمانَ: سَأَلْتُ الأَوْزاعِيَّ عَنْ أَدْنَى ما يَتعلق بِهِ الْمُتَعَلِّقُ مِنَ الفِكْرِ فيهِنَّ، وَما يُنْجيهِ مِنْ هذا الوَيْلِ؟ فَأَطْرَقَ هُنَيَّةً، ثُمَّ قال: «يَقْرَؤُهُنَّ وَهوَ يَعْقِلُهُن»(١).

وقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَقْرَأُ هذِهِ الآياتِ العَشْرَ مِنْ آخِرِ آلِ عِمرانَ إذا قامَ مِنَ اللَّيلِ لِتَهجُّدِهِ، مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] إلى آخِرِ السُّورة(٢).

قال العُلماءُ: «يُسْتَحَبُّ للمُستَيْقِظِ مِنْ نومِهِ أنْ يتلوَ هذِهِ الآياتِ؛ اقتِداءً بالنبيِّ ﷺ؛ لأنَّه يبتَدِئ بعظَمَة ربِّهِ، ثُمَّ ذِكْرِ اللهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وما نَدَبَ إليه مِنَ العِبادَةِ: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وما وعدَ على ذلكَ مِنَ الثوابِ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وتوعَّدَ على مَعصيتِهِ مِنَ العِقابِ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٩٠).

(٢) رواه البخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣).

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]، وهـذه الآياتُ جامِعَةٌ لكَثيرٍ مِنْ ذَلِكَ»(١).

وقولُـهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: في إيجادِهِما، وإنشائِهِما، على هذِهِ الصِّفاتِ، مِنَ الإبداعِ، والإحكامِ.

فالسَّماواتُ: في ارتفاعِها، واتِّساعِها، وما فيها مِنَ الشَّمسِ، والقمَرِ، والنُّجومِ، والكواكِبِ السَّيَّارةِ، والثابتَةِ، والزِّينَةِ.

والأرضُ: في انخِفاضِها، وبَسْطِها، وتَذليلِها، وما فيها مِنَ البِحارِ، والجِبالِ، والقِفارِ، والنَّباتِ، والأشجارِ، والثِّمارِ، وأنواعِ المَعادِنِ، والحيوانِ، وغيرِ ذلِكَ.

﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: تعاقُبِهِما، وتفاوُتِهِما، في الظُّلْمَةِ، والنُّورِ، والطُّولِ، والقِصَرِ، واختلافِهِما حَرًّا، وبَرْدًا، ورخاءً، وشِدَّةً، وعِزًّا، وذُلًّا، وهزيمةً، ونَصْرًا، وسَعةً، وضيقًا، وصِحَّةً، ومَرَضًا.

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ [آل عمران: ١٩٠] واضِحَةً، وبَراهينَ قاطِعةً ساطِعَةً، على قُدرتِه ورُبوبيَّتِه، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: لأصحابِ العُقولِ الصَّافيةِ النَّقيَّةِ.

«وخصَّ اللهُ بالآياتِ أولي الألبابِ، وهُمْ أهلُ العُقولِ؛ لأنَّهم هُمُ المنتفِعون بها، النَّاظِرونَ إليها بعُقولِهم لا بأبصارِهم»(٢).

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تعالى أنَّ أولي الألبابِ يَعبُدونَهُ فِكـرًا، وذِكرًا، قيامًا، وقُعودًا، وعلى سائِرِ أحوالِهم؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١] قال قتادةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذِهِ حالاتُك كلُّها يا ابنَ آدَمَ، اذكُرِ اللهَ وأنتَ قائمٌ، فإنْ لَمْ

---

(١) التوضيح شرح الجامع الصحيح لابن الملقّن (٢٢/ ١٨٧)، بتصرُّف.
(٢) تفسير السعدي (ص١٦١).

تَسْـتَطِعْ، فاذكُرْهُ وأنتَ قاعدٌ، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ، فاذكُرْهُ وأنتَ على جنبِكَ، يُسْرٌ مِنَ اللهِ، وتخفيفٌ»[(١)].

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] استِدلالًا، واعتِبارًا، في صُنعِهما، وإتقانِهما، وما أَبْدَعَ اللهُ فيهما، فيقودُهُم هذا إلى تعظيمِ خالقِهما، وليدُلَّهم على كمالِ قُدرتِهِ، فيُعَظِّموه، ويَخْشَوْهُ.

ومِنَ اللَّطائـفِ: «أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَرَ دَلائلَ الإلهيَّةِ، والقُدرةِ، والحِكْمةِ، وهوَ ما يتَّصلُ بتقريرِ الرُّبوبيَّة؛ ذَكَرَ بَعْدَها ما يَتَّصلُ بالعُبوديَّةِ.

وأصنافُ العُبوديَّة ثلاثةُ أقسـامٍ: التَّصديقُ بالقلبِ، والإقرارُ باللِّسانِ، والعَملُ بالجَوارِحِ.

فقولُهُ تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٩١] إشارَةٌ إلى عُبوديَّة اللِّسانِ.

وقولُـه: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] إشـارةٌ إلى عُبوديَّـة الجَوارحِ، والأعضاءِ.

وقولُـه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] إشـارةٌ إلى عُبوديَّة القَلبِ، والفِكْرِ، والرُّوحِ.

والإنسانُ ليسَ إلَّا هذا المَجموعُ، فإذا كانَ اللِّسانُ مُستغرِقًا في الذِّكْرِ، والأركانُ في الشُّكْرِ، والجَنانُ في الفِكْرِ؛ كان هذا العَبدُ مُستغرِقًا بجَميعِ أجزائِهِ في العُبوديَّةِ.

فالآيـةُ الأولَى دالَّةٌ عـلى كـمالِ الرُّبوبيَّـةِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وهـذِهِ الآيةُ دالَّةٌ على كمالِ العُبوديَّة»[(٢)].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٢).

(٢) تفسير الرازي (٩/ ٤٥٩).

ويقولُ هــؤلاءِ المُؤمنونَ المُتفكِّــرونَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ١٩١] الذي نُشاهِدُه في السَّماءِ، والأرضِ ﴿بَٰطِلًا﴾ أي: عَبَثًا ضائِعًا بِلا حِكمَةٍ؛ بلْ خَلَقْتَه لأمْرٍ عظيمٍ جليلٍ، وخَلَقتَه بالحَقِّ؛ لتَجْزيَ الذينَ أســاءوا بــما عَمِلوا، وتَجْزيَ مَن عَمِلَ صالحًا بالحُسْنَى.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: نُنَزِّهُكَ عــنْ هذا العَبَثِ، والباطِلِ، وأنْ تَخْلُقَ شــيئًا باطلًا، ونُنَزِّهُك عن كلِّ عَيْبٍ، ونقصٍ.

وتَســبيحُ هؤلاءِ المُتفكِّرينَ فيهِ طلَبُ التَّوفيقِ للعَمَلِ الصَّالِــحِ، والهِدايةِ إليهِ؛ ليَهديَهُم في النِّهايــةِ إلى جنَّاتِ النَّعيم، ويَقيَهُم عــذابَ الجَحيمِ؛ ولِذا قالوا: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] أي: حتَّى يكونَ مــا وفَّقتَنا إليهِ واقيًا، وحاميًا، ودافِعًا عنَّا عذابَ النَّارِ.

«ويَتضمَّنُ ذلكَ سُــؤالَ الجنَّةِ؛ لأنَّهُم إذا وقاهُمُ اللهُ عــذابَ النارِ، حصَلَتْ لَهُمُ الجنةُ، ولكِن لَمَّا قامَ الخَوْفُ بقلوبِهِم؛ دعَوُا اللهَ بأهمِّ الأمورِ عندَهُم»(١).



(١) تفسير السعدي (ص١٦١).





الحديث العشرون

عَـنْ زَيْـدِ بْـنِ خالـدٍ الجُهَنـيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قـال: صَلَّى لَنا رَسـولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاةَ الصُّبْـحِ بِالحُدَيْبِيَةِ على إِثْرِ سَـماءٍ[١] كانَتْ مِنَ اللَّيْلَـةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ على النَّاسِ؛ فَقال:

«هَلْ تَدْرونَ ماذا قال رَبُّكُمْ؟»،

قالـوا: اللَّهُ وَرَسولُهُ أَعْلَمُ،

قـال: **«أَصْبَحَ مِنْ عِبادي مُؤْمِنٌ بي، وَكافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قال: مُطِرْنا بِفَضْلِ اللَّهِ، وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بي، وَكافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قال: بِنَوْءِ كَذا وَكَذا؛ فَذَلِكَ كافِرٌ بي، وَمُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ»**[٢].

كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْـتثمرُ الأحـداثَ، والمَواقفَ، في تربيَـةِ أصحابِهِ على الإيـمانِ، والعَقيدَةِ الصَّحيحـةِ، أو تَصْحيحِ خَطَـأٍ عَقَديٍّ، أو التَّذكـيرِ بالآخِرَة، والتَّزهيدِ في الدُّنيا، ونَحْوِ ذلكَ.

(١) مطر.

(٢) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).



فاستَثْمَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الحَدَثَ العامَّ، وهو سُقوطُ المَطَرِ، في تربيةِ، وترسيخِ الجانِبِ العَقديِّ لدَى أصحابِهِ، ونبَّهَهُم وذكَّرَهُم بأنَّ المطَرَ مِنْ فِعْلِ اللهِ تعالى وَحْدَه، وخَلْقِه، وتَقديره، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هوَ المُتصرِّفُ في هذا الكَوْنِ، الرَّازِقُ، المُدبِّرُ، المَلِكُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا شَريكَ له.

فمَنْ قال: «مُطِرْنا بِفَضْلِ الله، وَرَحْمَتِهِ»؛ فهوَ مؤمنٌ باللهِ، وكافرٌ بالكَوْكبِ، لا يعتقِدُ له تأثيرًا.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠] يعني: بإنزالِ المَطَرِ، وإنباتِ النَّباتِ.

ومَن قال: «مُطِرْنا بنَوء كذا وكذا»، **أي**: بسقوطِ أو طُلوعِ نَجْمِ كذا وكذا، أو غيابِه، **فلا يَخْلو مِنْ ثلاثةِ أحوالٍ**:

١- إمَّا أنْ يعتقدَ أنَّ للكَوْكبِ تَصرُّفًا في نُزولِ المَطَرِ، وأنَّ الكَوْكبَ فاعلٌ، مدبِّرٌ، مُنشِئٌ للمَطَرِ، والسَّحابِ، كما كانَ اعتقادُ بعضِ أهلِ الجاهليَّةِ؛ فهذا لا شكَّ في كُفرِه، وأنَّه أشْرَكَ معَ اللهِ غيرَه، فهذا شِركٌ أكبَرُ.

٢- وإمَّا أنْ يقولَ هذا، مُعْتَقِدًا أنَّ المَطرَ مِنَ اللهِ تعالى، وبرَحْمَتِه، وأنَّ سُقوطَ النَّجْمِ لـه وقتٌ، وعلامةٌ، اعتبارًا بالعادَةِ، فكأنَّه قال: «مُطِرْنا في وقتِ كذا»؛ فهذا لا يكْفُرُ، لكِنَّ هذا القولَ حرامٌ، وقيلَ: مَكروهٌ؛ لنَهيِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه؛ ولأنَّه مِنْ شِعارِ الجاهليَّةِ، وسدًّا للذريعةِ.

٣- وإنْ قال هذا مُعتقدًا أنَّ المَطرَ مِنَ اللهِ وهوَ خالقُه، لكِنَّ النَّوء هوَ السَّببُ؛ فهذا مِن الشِّركِ الأَصْغَرِ؛ لأنَّه جعلَ ما ليسَ سببًا سببًا.

والقاعِدةُ أن: «كُلّ مَنِ اعتقدَ سببًا لم يدلُّ عليهِ شَرعٌ، ولا قَدَرٌ؛ فهو شِركٌ أصغرُ، وإن اعتقدَه الفاعل بذاتِه فهو شِركٌ أكبرُ».

فمَثــلًا: مَن لَبِسَ حَلْقــةً، أو خَيْطًا، ونحوَهُما؛ لرَفعِ البَــلاء، أو دفعِهِ، فهذا مِنَ الشِّركِ، وقد يكونُ شِرْكًا أكبَرَ، أو أصغرَ، حَسَــبَ قَصْدِ صاحِبِهِ: فإنِ اعتقدَ لابِسُها أنَّها مؤثِّرةٌ بنفسِها دونَ اللهِ؛ فهو مُشرِكٌ شِرْكًا أكبَرَ في توحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ لأنَّه اعتقدَ أنَّ معَ اللهِ خالقًا غيرَهُ.

وإنِ اعتقدَ أنَّها سَبَبٌ، ولكنَّه ليسَ مؤثِّرًا بنفسِهِ؛ فهو مشركٌ شِركًا أصغَرَ؛ لأنَّه لَمَّا اعتقدَ أنَّ ما ليسَ بسَبَبٍ سببًا، فقدْ شاركَ اللهَ تعالى في الحُكمِ لهذا الشَّيءِ بأنَّه سَبَبٌ، واللهُ تعالى لَمْ يَجْعَلْه سَبَبًا.

فنِسْبةُ المَطَرِ إلى النَّوْءِ ثلاثةُ أقسامٍ:

١- نِسْبَةُ إيجادٍ: فهذا شِرْكٌ أكبَرُ.

٢- نِسْبةُ سَبَبٍ: فهذا شِرْكٌ أصغَرُ.

٣- نِسْــبةُ وقتٍ: فَهذا جائِزٌ، وَلَكنْ يَقولُ: مُطِرنا في نَوءِ كَذا، وَلا يَقولُ: بِنَوْءِ كَذا[١].

٤- وَقال ابنُ عُثيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«قــال العلماءُ: يَحرُمُ أنْ يَقولَ: مُطِرْنا بِنَوءِ كَذا، وَيجوزُ: مُطرنا في نَوْءِ كَذا، وَفرّقوا بَينَهُما: أنّ «الباءَ» لِلسّببيةِ، وَ«في» لِلظّرفيةِ»[٢].

(١) الاستذكار (٢/ ٤٣٦)، التمهيد (١٦/ ٢٨٥)، شرح النووي على مسلم (٢/ ٦١)، فتح الباري لابن رجب (٩/ ٢٥٨)، فتح الباري لابن حجر (٢/ ٥٢٣)، القول المفيد (١/ ١٦٤، ٢/ ٢٨).
(٢) القول المفيد (٢/ ٣١).

وقـد جاءَ في حديثٍ آخرَ النَّهيُ عَنْ هذا القـولِ، والاعتِقادِ؛ فعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا عَدْوَى، وَلا هامَةَ**[١]**، وَلا نَوْءَ**[٢]**، وَلا صَفَرَ**[٣]»[٤].

وقَريبٌ مِنْ هذا: قَوْلُ بعضِ الناسِ إذا أصابَه شَيءٌ سَيِّءٌ: «هذا مِنْ سوءِ الطَّالِعِ»، وإذا حصَلَ له أمْرٌ سارٌّ قال: «هذا مِنْ حُسْنِ الطالِعِ»!

و«الطالِع» هو: النَّجْمُ الطالِعُ في السَّماءِ.

وقد جاءَ في فتاوَى اللجنةِ الدَّائِمَةِ: «يحرُم استعمالُ عبارتَيْ: «مِن حُسْن الطالِع»، و«مِن سوء الطالِع»؛ لأنَّ فيهِما نِسْبةَ التأثيرِ في الحَوادثِ الكَوْنيَّة -حُسنًا، أو سوءًا- إلى المَطالِع، وهي لا تَمْلِك مِن ذلكَ شـيئًا، وليسَتْ سببًا في سَعادَةٍ، أو نَحْسٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿**أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ**﴾ [الأعراف: ٥٤].

فإنْ كانَ القائِلُ يَعتقِدُ أنَّ هذِهِ المطالِعَ فاعِلةٌ بنفسِها مِنْ دونِ اللهِ تعالى؛ فهوَ شِرْكٌ أكبَرُ، وإنْ كانَ يَعتقدُ أنَّ الأمورَ كلَّها بيدِ اللهِ وحْدَه، ولكِنْ تلفَّظ بذلِكَ فقط؛ فهوَ مِن شِرْكِ الألفاظِ الذي يُنافي كَمالَ التَّوحيدِ الواجِبِ»[٥].

وقال الشَّـيخُ ابنُ عُثيمينَ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا مِنَ التَّنجيمِ الذي هـوَ نَوْعٌ مِنَ الشِّركِ؛ وذلكَ لأنَّ الطالِعَ، والغارِبَ، ليس له تأثيرٌ في الحَوادثِ الأرضيَّةِ، بَلِ الأمرُ بيدِ اللهِ، سواءٌ وُلِدَ الإنسانُ في هذا الطَّالِعِ، أوْ في هذا الغارِبِ، أو في أيِّ وقتٍ»[٦].

---

(١) طائر يطير بالليل، كانوا يتشاءَمون به. وقيل: كانوا في الجاهليَّة يعتقدون أن الميِّت إذا مات صارَت روحه أو عظامه هامةً يعني: طائرًا يطير.

(٢) يعني: لا نَوءَ يُنزِل المطر أو يتصرَّف ويؤثِّر فيه، فلا تقولوا: مُطِرْنا بنَوء كذا.

(٣) لا تتشاءَموا بشهر صفر، ولا لياليه.

(٤) رواه مسلم (٢٢٢٠).

(٥) فتاوى اللجنة (٢٦/ ٣٦٨)، بتصرُّف يسير.

(٦) لقاء الباب المفتوح (٦٤/ ١٢)، بترقيم الشاملة.

والتَّنجيمُ مُحرَّمٌ؛ لقولِهِ ﷺ: «**مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجومِ؛ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زادَ ما زادَ**»[١].

والتَّنجيمُ هوَ: الاستدلالُ بالأحوالِ الفلكيَّةِ على الحوادِثِ الأرضيَّةِ التي لَمْ تَقَعْ، وهذا يُسمَّى «عِلْمَ التأثيرِ»، فالأحوالُ الفلكيَّة لا عَلاقة بيْنَها وبيْنَ الحَوادِثِ الأرضيَّةِ.

قال قتادَةُ: «خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجومَ لِثَلاَثٍ: جَعَلَها زينَةً لِلسَّماءِ، وَرُجومًا لِلشَّياطينِ، وَعَلاَماتٍ يُهْتَدَى بِها، فَمَنْ تَأَوَّلَ فيها بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضاعَ نَصيبَهُ، وَتَكَلَّفَ ما لاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ»[٢].

فإنِ اعتقدَ أنَّ النُّجومَ، والأجرامَ السَّماويَّةَ، هيَ المُدبِّرةُ الفاعِلةُ المُختارةُ لذاتِها، فهذا كُفرٌ بإجماعِ المُسلمينَ، وإنِ اعتقدَ بأنَّ الخالقَ المُدبِّرَ هوَ اللهُ تعالى، ولكنَّه جعَلَ مَسيرَ الكَواكبِ دَلائلَ على الحَوادثِ قَبْلَ حُدوثِها، أو أنَّها أسبابٌ لها؛ فهذا قدِ اختُلِف في تكفيرِهِ على قَوْلَينِ[٣].

أمَّا الاستِدلالُ بالنُّجومِ على الجِهاتِ، والأوقاتِ؛ فهذا جائِزٌ، ويُسمَّى «عِلْم التَّيسيرِ».

وقَدْ يكونُ واجِبًا إذا لَمْ يُعْرَف أوقاتُ الصَّلاةِ إلَّا بِهِ؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

فالاستِدلالُ بالنُّجومِ على الأزمانِ لا بأسَ بِهِ، مِثْل أنْ يُقالَ: إذا طَلَعَ النَّجْمُ الفُلانيُّ دخلَ وقتُ السَّيل، ودخلَ وقتُ الرَّبيعِ.

---

(١) رواه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وصحّحه النووي والعراقي، والألباني في صحيح الجامع (٦٠٧٤).

(٢) رواه البخاري معلّقًا بصيغة الجزم (٤/ ١٠٧)، ووصله الطبري في تفسيره (١٧/ ١٨٥)، بسند صحيح.

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص٣٧٨).

وكذلكَ الاستِدلالُ بها على الأماكِنِ، كالقِبلَةِ، والشَّمالِ، والجَنوبِ[١].

أمَّا مَعْرِفَةُ أحوالِ الطَّقسِ، والبَحْثُ عنْها، وأوقاتِ الكُسوف، والخُسوف، ونُزول الأمطارِ، وتَوَقُّع ذلكَ: فَلا تَدخُل في التَّنجيمِ، أو ادِّعاءِ عِلْمِ الغَيْب؛ لأنَّها تُبنَى على أمورٍ حِسِّيَّةٍ، وتجارِب، ونَظَرٍ في سُنَنِ اللهِ الكونيَّة، وليسَ فيها اعتقادٌ أنَّ للنُّجومِ تأثيرًا في الأحوالِ الأرضيَّةِ[٢].

فالمَقصودُ مِنَ الحَديثِ: أنَّه لا يَتِمُّ توحيدُ العَبْدِ، وكمالُ إيمانِه، حتَّى يَعْترفَ بتفرُّدِ اللهِ تعالى بالنِّعَمِ الظَّاهرَةِ والباطنَةِ عليهِ، وعلى جميعِ الخَلْقِ، ويُضيفَها إلى اللهِ تعالى قَوْلًا، واعترافًا، ويَعترِفَ بتفرُّدِه بدَفْعِ النِّقَم، ويَستعينَ بنِعَمِ اللهِ تعالى على ذِكْرِه وشُكْرِه، وحُسْنِ عِبادَتِه[٣].



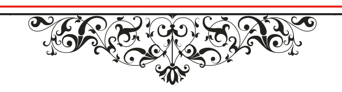
(١) تيسير العزيز الحميد (ص٣٧٨)، والقول المفيد (١/ ٥٢٠).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٦٣٥)، https://islamqa.info/ar/83837.

(٣) القول السديد للسعدي (ص١١٠).



الحديث الحادي والعشرون



عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«قال اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذيني ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنا الدَّهْرُ، بِيَدي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ، والنَّهارَ»[١].

وفي روايةٍ: **«لا تَقولوا: خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هوَ الدَّهْرُ»**[٢].

وفي لَفظٍ لمُسلِمٍ: **«قال اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذيني ابْنُ آدَمَ، يَقولُ: يا خَيْبَةَ الدَّهْرِ، فَلا يَقولَنَّ أَحَدُكُمْ: يا خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فَإِنِّي أَنا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهارَهُ، فَإِذا شِئْتُ قَبَضْتُهُما»**.

رأسُ الأدَبِ: الأدَبُ مـعَ اللهِ تعالى، وتعظيمُه، وتوقيرُه، ومِـنَ التأدُّبِ معَ اللهِ تعالى: التأدُّبُ معَهُ في الألفاظِ، وهذا ما أرشَـدَ له هذا الحَديثُ القُدسيُّ، بعَدمِ سبِّ الدَّهْرِ، بأنْ يقولَ -مَثَلًا-: يا خَيبةَ الدَّهْرِ، ومثلُه:

يا لَغَدْرِ الزَّمانِ، أنتَ والزَّمنُ عليَّ، جارَ عليـهِ الزَّمَنُ، عضَّنا الدَّهْرُ بنابِه، ونحوُ ذلِك.

(١) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) رواه البخاري (٦١٨٢)، ومسلم (٢٢٤٦).



وكانَ مِنْ عادةِ أهلِ الجاهليَّة إذا أصابَهُمْ شِــدَّةٌ مِنَ الزَّمانِ، أو مَكْروهٌ مِنَ الأمْرِ؛ أضافوهُ إلى الدَّهْرِ، وسبُّوه، فقالوا: يا خَيبةَ الدَّهْرِ، بُؤْسًا للدَّهْرِ، وتبًّا للدَّهْرِ، ونحْوَ ذلكَ مِنَ القَوْلِ، فيُسْنِدون تلكَ الأفْعالَ إلى الدَّهْرِ، ويَسُبُّونه.

وإنَّما فاعِلُها هوَ اللهُ تعالى، فكأنَّهم إنَّما سَبُّوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ فلهذا نُهِيَ عن سَبِّ الدَّهْرِ بهذا الاعتِبارِ؛ لأنَّ اللهَ هوَ الدَّهْرُ الذي يَعْنونَه، ويُسْنِدونَ إليه تلكَ الأفعالِ.

فسَبُّ الدَّهْرِ فيهِ أذيَّةٌ للهِ تعالى، وسوءُ أدبٍ معَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الذي يُقدِّر الأمورَ، والدَّهْر هو الزَّمانُ، ولا فِعْلَ له، بَلْ هوَ مَخلوقٌ مِنْ مخلوقاتِ اللهِ[1].

يَقولُ الإمامُ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**في هذا ثلاثُ مفاسِدَ عظيمةٌ**:

- **إحداها**: سَبُّ مَن ليسَ بأهلٍ أنْ يُسَبَّ؛ فإنَّ الدَّهْرَ خَلْقٌ مُسَخَّرٌ مِن خَلْقِ اللهِ، مُنقادٌ لأمرِه، مُذَلَّلٌ لتسخيرِه، فسابُّه أولَى بالذَّمِّ منه.
- **الثانيةُ**: أنَّ سبَّه مُتضَمِّنٌ للشِّرْك؛ فإنَّه إنَّما سبَّه لظنِّه أنَّه يضُرُّ، ويَنفعُ، وأنَّه ظالمٌ قد ضرَّ مَن لا يَسْتَحِقُّ الضَّرَرَ، وأعْطَى مَنْ لا يَسْتَحِقُّ العَطاءَ، ورَفَعَ مَن لا يَسْتَحِقُّ الرِّفعَةَ، وحَرَمَ مَن لا يَسْتَحِقُّ الحِرْمانَ، ويعُدُّ بعضُهمُ الدَّهْرَ مِن أظلَمِ الظَّلَمةِ! ولهُمْ في ذلكَ أشعارٌ كثيرةٌ جِدًّا، وكثيرٌ مِنَ الجُهَّالِ يُصَرِّحُ بلَعْنِه، وتقبيحِه!
- **الثالثةُ**: أنَّ السَّبَّ مِنْهُم إنَّما يقعُ على مَن فَعَلَ هذهِ الأفعالَ، وهو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، التي لَوِ اتَّبَعَ الحقُّ فيها أهواءَهُم؛ لفَسَدَتِ السَّماواتُ، والأرضُ، وإذا وافقَت أهواءَهم، حَمِدوا الدَّهْرَ، وأثنَوْا عليهِ!

---

(١) أعلام الحديث للخطابي (٣/ ١٩٠٤)، معالم السُّنَن (٤/ ١٥٨)، الاستذكار لابن عبد البرّ (٨/ ٥٥١)، شرح السُّنَّة للبغوي (١٢/ ٣٥٧)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٣)، مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (٢/ ٤٩٣)، تفسير ابن كثير (٦/ ٤٨٠، ٧/ ٢٧٩).

وفي حقيقةِ الأمْرِ، فـرَبُّ الدَّهْرِ تعالى هوَ المُعْطي، المانِـعُ، الخافِضُ، الرافِعُ، المُعِزُّ، المُذِلُّ، والدَّهْرُ ليسَ له مِنَ الأمرِ شَيْءٌ، فمَسَبَّتُهُم للدَّهْرِ مَسَبَّةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا كانت مُؤذيةً للرَّبِّ تعالى، كما في هذا الحَديثِ.

فسابُّ الدَّهْرِ دائِرٌ بينَ أمرَيْنِ، لا بُدَّ له مِن أحدِهما: إمَّا سَبّه للهِ، أو الشِّرك بِهِ، فإنَّه إذا اعتقدَ أنَّ الدَّهْرَ فاعلٌ معَ اللهِ فهوَ مُشْرِكٌ، وإنِ اعتقدَ أنَّ اللهَ وحدَه هو الذي فَعَلَ ذلكَ، وهوَ يَسُبُّ مَنْ فَعَلَه؛ فقد سَبَّ الله»[1].

وقَولُ اللهِ تعالى: «يُؤْذيني ابْنُ آدَمَ»:

أي: يُلْحِقُ بِيَ الأذَى، وهو خَبَرٌ يَتضمَّنُ النَّهيَ، والزَّجْرَ.

فالأذيَّةُ لله ثابتةٌ، وكيفيَّتُها لا نعلَمُها، واللهُ تعالى يَتأذَّى مِنْ فِعْلِ بَني آدَمَ، لكنَّه لا يُضرُّه شَيءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتَقَدَّسَ.

ويَجِبُ علينا إثباتُها؛ لأنَّ اللهَ تعالى أثبتَها لنَفْسِهِ، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا**﴾ [الأحزاب: ٥٧].

ولكنَّها لَيْسَـتْ كأذيَّةِ المَخلوقِ، ولا يَلزَمُ مِنَ الأذيَّةِ الضَّرَرُ، واللهُ تعالى لا يَبلُغُ المَخلوقُ ضَرَّه، أو نَفْعَه، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا**﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقـال: ﴿**وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا**﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وفي الحديثِ القُـدْسيِّ: «**يا عِبادي، إنَّكم لَنْ تبلُغوا ضَرِّي فَتَـضُرُّوني، ولن تَبلُغوا نَفْعي فَتَنفَعوني**»[2][3].

وقولُه تعالى: «وَأَنا الدَّهْرُ»:

أي: مُدَبِّرُ الدَّهْرِ، ومُصَرِّفُه، كما قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٢٣)، باختصار وتصرُّف.

(٢) رواهُ مسلم (٢٥٧٧).

(٣) القول المفيد (٢/ ٢٤١، ٢٤٤)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢/ ٣٥١).

[آل عمران: ١٤٠]، ففي الكلامِ حَذْفٌ تقديرُه: «وأنا مقلِّبُ الدَّهْرِ»، كما يدلُّ عليهِ السِّياقُ، والقرينَةُ؛ ولِذا فسَّره بعدَه بقولِهِ: «بيَدي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ، والنَّهارَ»، واللَّيْلُ والنَّهارُ هُما الدَّهْرُ.

فليسَ «الدَّهْرُ» مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى كما ذهَبَ إليهِ ابنُ حَزْمٍ، وغيرُه، ولا يُقالُ بأنَّ اللهَ هوَ الدَّهْرُ نفسُهُ! ومَن قال ذلكَ؛ فقَدْ جعَلَ الخالِقَ مَخْلوقًا، والمُقلِّبَ مُقَلَّبًا[١].

وسَبُّ الدَّهْرِ قِسْمانِ:

- **الأوَّلُ:** أنْ يَسُبَّ الدَّهْرَ على أنَّه هوَ الفاعِلُ: كأنْ يَعتقِدَ بسَبِّه الدَّهْرَ أنَّ الدَّهْرَ هوَ الذي يُقَلِّبُ الأمورَ إلى الخَيْرِ، والشَّرِّ، فهذا شِرْكٌ أكبرُ؛ لأنَّه اعتقدَ أنَّ معَ اللهِ خالقًا، ونَسَبَ الحوادِثَ إلى غيرِ اللهِ تعالى، وهذا كُفْرٌ.
- **الثاني:** أنْ يَسُبَّ الدَّهْرَ لا لاعتقادِه أنَّه هوَ الفاعِلُ، بلْ يَعتقدُ أنَّ اللهَ هوَ الفاعِلُ، لَكِنْ يسُبُّه لأنَّه مَحَلٌّ لِهذا الأمرِ المَكروهِ عندَه، فهذا مُحَرَّمٌ، وهوَ في حقيقَتِهِ سَبٌّ للهِ تعالى، كما دَلَّ عليهِ الحَديثُ، لكنَّه لا يَصِلُ إلى درجَةِ الشِّرْكِ؛ لأنَّه لَمْ يتعمَّدْ، ويتَقَصَّدْ، سبَّ اللهِ تعالى.

وهوَ مِنَ السَّفَهِ في العَقلِ، والضَّلالِ في الدِّينِ؛ لأنَّ حقيقةَ سَبِّه تَعودُ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ اللهَ تعالى هوَ الذي يُصَرِّف الدَّهْرَ.

أمَّا قوْلُ البَعضِ: تَعِبْنا مِن شِدَّةِ حرِّ هذا اليومِ، أو بَرْدِه، وما أشبَهَ ذلِكَ: فهذا لَيْسَ مِنْ سَبِّ الدّهرِ، وهذا كما قال لوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ [هود: ٧٧][٢].

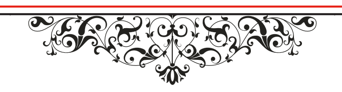


(١) القول المفيد (٢/ ٢٤٥)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢/ ٣٥١).

(٢) انظر: القول المفيد (٢/ ٢٤٠).



الحديث الثاني والعشرون



عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له، حينَ غَرَبَتِ الشَّمسُ: «**أَتَدْرِي أيْنَ تَذْهَبُ؟**»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسولُهُ أَعْلَمُ، قال: «**فَإِنَّها تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنُ فَيُؤْذَنُ لَها، وَيوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلا يُقْبَلَ مِنْها، وَتَسْتَأْذِنَ فَلا يُؤْذَنَ لَها، يُقالُ لَها: ارْجِعي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِها، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى:** ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]»[1].

وفي روايةٍ لمسلمٍ: «**إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّها تَحْتَ العَرْشِ، فَتَخِرُّ ساجِدَةً، فَلا تَزالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقالَ لَها: ارْتَفِعي، ارْجِعي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طالِعَةً مِنْ مَطْلِعِها.**

ثُمَّ تَجْري حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّها تَحْتَ العَرْشِ، فَتَخِرُّ ساجِدَةً، وَلا تَزالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقالَ لَها: ارْتَفِعي، ارْجِعي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طالِعَةً مِنْ مَطْلِعِها.

ثُمَّ تَجْري لا يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْها شَيْئًا، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّها ذاكَ تَحْتَ العَرْشِ، فَيُقالُ لَها: ارْتَفِعي، أَصْبِحي طالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ، فَتُصْبِحُ طالِعَةً مِنْ مَغْرِبِها».

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).



فَقال رَسولُ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَدْرونَ مَتَى ذاكُمْ؟ ذاكَ حينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]»[1].

فالكَوْنُ كلُّه خاضِعٌ للهِ تعالى، ولعَظَمَتِه، شاهدٌ على وَحْدانيَّتِه، وربوبيَّتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واستِحقاقِه للعِبادَةِ وَحْدَه لا شريكَ له: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فهَذِه الشَّمسُ بحَجْمِها الهائِلِ، وحرارَتِها المُحْرِقَةِ، تخضَعُ لربِّها ذَليلةً مُنقادَةً، وتَسْجُدُ تحتَ العَرْشِ كلَّ ليلةٍ، ولا تَطلُعُ مِنَ المَشرِقِ حتَّى تَسْتأذِنَ ربَّها، وهيَ في حالِ سُجودِها، فيأذَنَ لها: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

ومُستَقَرُّها المَكانيُّ تَحْتَ العَرشِ، ممَّا يلي الأرضَ في ذلكَ الجانِبِ.

وقَدْ ثَبَتَ في الحَديثِ، عَنْ أَبي ذَرٍّ قال: سَأَلْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨] قال: «**مُسْتَقَرُّها تَحْتَ العَرْشِ**»[2].

وهيَ أينَما كانَتْ فهيَ تَحْتَ العَرْشِ، وجَميعُ المَخلوقاتِ كذَلِكَ؛ لأنَّ العَرْشَ سَقْفُ المَخلوقاتِ، وهوَ قُبَّةٌ ذاتُ قوائمَ تَحْمِلُه المَلائكةُ، وهوَ فَوْقَ العالَمِ مِمَّا يلي رُؤوسَ الناسِ.

فالشَّمسُ إذا كانَتْ في قُبَّةِ الفَلَكِ[3] وَقْتَ الظَّهيرَةِ، تكونُ أقربَ ما تَكونُ مِن العَرْشِ، فإذا استدارَتْ في فَلَكِها الرَّابعِ إلى مُقابلَةِ هذا المَقامِ، وهوَ وقتُ نِصْفِ اللَّيلِ؛ صارَت أبْعَدَ ما تَكونُ مِنَ العَرْشِ، فحينئذٍ تَسْجُد وتستأذِنُ في الطُّلوعِ، كما دلَّ عليهِ هذا الحَديثُ[4].

---

(١) رواه مسلم (١٥٩).

(٢) رواه البخاري (٤٨٠٣)، ومسلم (١٥٩).

(٣) الفَلَك: مدارُ النجوم والكواكب.

(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٧٦).

وقيلَ: معنـــى ﴿تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: ٣٨] **أي**: إلى مُسْـــتَقَرٍّ لها، **أي**: إلى انتهاءٍ، أو مُنتهي سَـــيْرِها عندَ انقِضاءِ الدُّنيا، وقيامِ السَّاعةِ، فيَبْطُل سَيْرُها، وتَسْكُنُ حَرَكتُها، وتُكوَّرُ، ويَنتَهي هذا العالَمُ إلى غايتِهِ.

وهذا هوَ **مُسْـــتَقَرُّها الزَّمانيُّ**؛ كما في قولِهِ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [الرعد: ٢]، **أي**: يَجْريانِ إلى انقطاعِهما بقيامِ السَّاعَةِ.

وقيلَ: إنَّها تســـيرُ حتَّى تنتَهيَ إلى أبْعَدِ مغارِبِها، ثم تَرْجِعُ، فذلِكَ مُسْتَقَرُّها؛ لأنَّها لا تُجاوِزُه.

وقيلَ: مُسْتَقَرُّها نِهايةُ ارْتفاعِها في السَّماءِ في الصَّيفِ، ونِهايةُ هُبوطِها في الشِّتاءِ[١].

ومَنْ تأمَّلَ قليلًا في عَظَمَةِ الشَّـــمسِ، ثمَّ شـــاهدَ بعَينِ عقْلِه فيهـــا أثرَ صُنْعِ اللهِ، وإتْقانه، وحِكْمته؛ انتقَل مِنْها إلى عظَمَةِ خالِقها، فسُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أَعْظَمَ شأنَهُ[٢].

هذِهِ الشَّمسُ آيةٌ ساطِعةٌ، دالَّةٌ على اللهِ كسُطوعِها.

حَجْمُها مِثلُ حَجمِ الأرضِ مليونًا و٣٠٠ ألف مرَّة.

تَبعُدُ عنِ الأرضِ ١٥٦ مليون كيلومتر.

ويَقطَعُ ضَوءُ الشَّمسِ هذِهِ المَسافةَ في ٨ دقائقَ[٣].

وتَصلُ درجةُ حرارَةِ الشَّمسِ في أجزائِها السَّطحيَّة إلى نحوِ ٥٦٠٠ درجَةً مئويَّةً!

أمَّـــا في باطِنِها، فتزيدُ درجـــةُ الحرارةِ عن ١٥ مليون درجـــة مئويَّة! وهيَ درجةُ حرارةٍ كافيةٍ لتَبخيرِ أيِّ شيءٍ على وجهِ الأرضِ في لَحَظاتٍ!

---

(١) تفسير البغوي (٧/ ١٧)، ابن كثير (٤/ ٤٣٠، ٦/ ٥٧٧).

(٢) تفسير الرازي (٣١/ ١٧٥)، باختصار وتصرُّف.

(٣) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (٢/ ٣٩).

سُبحانَ اللهِ! إذا كانَتِ الشَّمسُ مُشتعلةً بهَذهِ الطاقَةِ الهائِلَةِ مَلايين السِّنين، فلماذا لا تَنفَجِرُ؟ ولماذا لا تَنطَفِئُ؟

فالاشتِعالُ إمَّا أنْ يزيدَ تدريجيًّا، فينفَجِر الجِسمُ المُشتَعِلُ، وإمَّا أنْ يَقلَّ تدريجيًّا فيَنْطَفِئ، لكِنَّ الشَّمسَ لا تَنْفَجِرُ، ولا تَنطَفِئُ، ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

يقولُ العُلماءُ: «لَوِ انطفَأتِ الشَّمسُ فَجْأةً؛ لَغرِقَتِ الأرضُ في ظلامٍ دامِسٍ، ولَهَبَطتْ درجةُ الحَرارةِ فيها إلى ٢٧٠ درجةً تَحْتَ الصِّفرِ، ولتحوَّلتِ الأرضُ إلى قَبْرٍ جَليديٍّ!

وإنَّ انعدامَ الدِّفءِ، والنُّورِ، كافيانِ لقتلِ كلِّ مَظهرٍ مِنْ مَظاهِرِ الحياةِ على سَطْحِ الأرضِ»[1].

مَنِ الذي دبَّرَ الشَّمسَ، والقَمَرَ، والنُّجومَ، وسيَّرَها، فلا تنفَلِتُ، ولا تَصْطَدِمُ؟

مَنْ أجراها بهذا الحِسابِ الدَّقيقِ، فلا تَتَقدَّمُ، ولا تَتأخَّرُ، ولا تَنحَرِفُ عنْ مَسارِها؟ ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

يَقولُ أحمدُ شَوْقي: «سَلِ الشمسَ مَن رفعَها نارًا، ونَصَبَها مَنارًا؟

ومَنْ عَلَّقَها في الجوِّ ساعةً، يَدِبُّ عَقْرَباها في الجوِّ إلى قيامِ الساعةِ؟

ومَنِ الذي آتاها مِعراجَها، وهَداها أَدْراجَها، وَأَحَلَّها أبراجَها، ونَقَّل في سماءِ الدُّنيا سِراجَها؟»[2].

---

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (٢/ ٣٩).

(٢) أسواق الذهب (ص٤٠).

انْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ الَّتي جَذْوَتُها مُسْتَعِرَةْ
فيها ضياءٌ وَبِها حَرارَةٌ مُنْتَشِرَةْ
مَنْ ذا الذي أَوْجَدَها في الجَوِّ مِثْلَ الشَّرَرَةْ؟
ذاكَ هُوَ اللهُ الذي أَنْعُمُهُ مُنْهَمِرة
ذو حِكْمَةٍ بالِغَةٍ وَقُدْرَةٍ مُقْتَدِرَةْ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

وقَد استَنْكرَ بَعضُ العَقلانيِّينَ المُعاصِرين هذا الحَديثَ، وقالوا: هذا الحديثُ يُخالِفُ العَقلَ؛ إذْ كيفَ تَسْجُدُ الشمسُ تَحْتَ العَرْشِ، وتُفارِقُ الفَلَك، وهذا السُّجودُ يُعيقُ دورانَها في سَيْرِها؟!

والجَوابُ:

- **أوَّلًا**: أخبرَ اللهُ تعالى عن سُجودِ الشَّمسِ؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

- **ثانيًا**: سُجودُ الشَّمسِ كلَّ ليلةٍ لا يُعيقُ دَوَرانَها في سَيرِها؛ بل هيَ تَسْبَحُ في الفَلَك، وتَسْجُدُ لله تَحتَ العَرشِ -وهيَ في حالِ سَيْرِها، كما أخبرَ اللهُ تعالى، ورسولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سُجودًا يَختصُّ بها، لا نَعلَمُ كيفيَّتَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

والمَخلوقاتُ كلُّها تَحتَ العَرْشِ، فكَوْنُها تَسْجُدُ تَحتَ العَرْشِ لا يَقتَضي مُفارقتَها

لفَلَكِها، أو مُفارقتَها لانتِظامِها في مَســيرِها بالنسبةِ للأرضِ؛ فهيَ دائمةُ الطُّلوعِ على جُزْءٍ مِنَ الأرضِ، والأوقاتُ بالنِّسبةِ إلى أهلِ الأرضِ، تختلفُ بمِقدارِ سَيْرِها.

ومعلومٌ أنَّ تعاقُبَ اللَّيلِ، والنَّهارِ، واختلافَهُما، يترتَّبُ على مَسيرِها، فرُبَّما يقولُ قائلٌ: أين سُــجودُها تحتَ العَرْش، ومتَى يكونُ، وسَــيرُها مُســتمِرٌّ، وبُعْدُها عنِ الأرضِ لا يَختلِفُ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ، كما أنَّ سَيْرَها لا يتغيَّرُ، كما هوَ مُشاهَدٌ؟!

والجَوابُ: أنَّها تَسْــجُدُ كلَّ ليلةٍ تحتَ العَرْشِ، كــما أخبرَ بِهِ الصَّادقُ المَصدوقُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهــيَ طالِعةٌ على جانِبٍ مِنَ الأرضِ، معَ سَــيْرِها في فَلَكِها، وهيَ دائمًا تحتَ العَرْشِ في اللَّيلِ، والنَّهارِ، بَلْ وكلُّ شيءٍ مِنَ المَخلوقاتِ تَحتَ العَرْشِ، لكنَّها في وقتٍ مِنْ سَيْرِها، وفي مَكانٍ مُعيَّنٍ، يَصلُح سُجودُها الذي لا يُدْرِكُه الخَلْقُ، ولَكِنْ عُلِم بالوَحْيِ، وهوَ سُجودٌ يُناسِبُها على ظاهِرِ النصِّ[1].

«فليسَ لنا إلَّا التَّصديقُ، والتَّســليمُ، وليسَ في سُــجودِها لربِّها تحتَ العَرشِ ما يعوقُها عَنِ الدَّأَبِ في سَيْرِها، والتَّصرُّفِ لِما سُخِّرت له.

سُــبحانَ الذي أحاطَ بكلِّ شَيءٍ عِلْمًا، وأحصَى كلَّ شيءٍ عدَدًا، وتبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ، وأحسنُ الخالِقينَ»[2].

فهَــؤلاءِ كما قــال اللهُ تعــالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [يونس: ٣٩]، نسألُ اللهَ تعالى السَّلامَةَ، والعافيةَ.

والشَّــمسُ إذا طَلَعَت مِنَ المَغرِبِ؛ فهذا مِنْ أشراطِ السَّاعةِ الكُبْرَى، واللهُ تعالى يقــولُ: ﴿**يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا**﴾ [الأنعام: ١٥٨].

(١) بيان تلبيس الجهميَّة لابن تيميَّة (٤/ ٥٤)، شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٣٣٥).
(٢) أعلام الحديث للخطَّابي (٣/ ١٨٩٤)، بتصرُّف.

«أي: إذا أنشَــأَ الكافِرُ إيمانًا يَوْمئذٍ لا يُقْبَلُ منهُ، فأمَّا مَنْ كانَ مُؤمنًا قَبلَ ذلكَ، فإنْ كانَ مُصْلِحًا في عملِهِ فهوَ بخَيْرٍ عظيمٍ.

وإنْ كانَ مُخَلِّطًا، فأحدثَ توبةً حينَئذٍ؛ لَمْ تُقْبَلْ منهُ توبَتُه، وعليه يُحْمَل قولُه تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ أي: ولا يُقْبَلُ مِنْها كَسْــبُ عَمَلٍ صالحٍ، إذا لَمْ يكُنْ عامِلًا بِهِ قَبلَ ذلكَ»(١).

قال العُلماءُ: «**الضَّابِطُ**: أَنَّ كُلَّ بِرٍّ مُحْدَثٍ يكونُ السَّــبَبُ في إِحْداثِهِ رُؤْيَةَ الآيَةِ، ولَمْ يَسْبِقْ مِنْ صاحِبِهِ مِثْلُهُ؛ لا يَنْفَعُ، سَواءٌ كانَ مِنَ الأُصولِ، أَوِ الفُروعِ.

وَكُلُّ بِرٍّ لَيْسَ كَذَلِكَ؛ لِكَوْنِ صاحِبِهِ كانَ عامِلًا بِهِ قَبْلَ رُؤْيَةِ الآيَةِ؛ يَنْفَعُ»(٢).

وأمَّا ما جاءَ في الحَديــثِ: «... **وَلا تَزالُ التَّوْبَةُ مَقْبولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّــمْسُ مِنَ المَغْرِبِ، فَإِذا طَلَعَتْ طُبِعَ على كُلِّ قَلْبٍ بِما فيهِ، وَكُفِيَ النَّاسُ العَمَلَ**»(٣).

فقال ابنُ مُفلحٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَيْسَ المُرادُ بهذا الخَبَرِ تَرْكَ ما كانَ يَعْمَلُهُ مِنَ الفَرائِضِ قَبْلَ طُلوعِ الشَّــمْسِ مِنَ المَغْرِبِ، فَيَجِبُ الإِتْيانُ بِــما كانَ يَعْمَلُهُ مِنَ الفَرائِضِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَيَنْفَعُهُ ما يَأْتي بِهِ مِنَ الإيمانِ، الذي كانَ يَأْتي بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ.

فقولُهُ: «وَكُفِيَ النَّاسُ العَمَلَ» أيْ: عَمَلًا لَمْ يَكونوا يَفْعَلونَهُ»(٤).



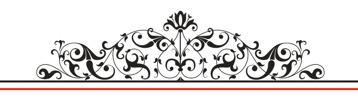
(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٦).

(٢) لوامع الأنوار البهيَّة للسفاريني (٢/ ١٣٦).

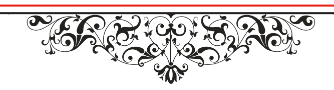
(٣) رواه الإمام أحمد (١٦٧١)، وحسَّنه الحافظ ابن كثير في التفسير (٣/ ٣٧٥)، وحسَّن إسنادَه محقِّقو المسند.

(٤) الآداب الشرعيَّة لابن مُفلح (١/ ١١٦)، ولوامع الأنوار البهيَّة (٢/ ١٣٦).





الحديث الثالث والعشرون



عَنْ أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«ما السَّماواتُ السَّبْعُ في الكُرْسِيِّ إلا كَحَلْقَةٍ مُلْقاةٍ في أَرْضِ فَلاةٍ، وَفَضلُ العَرْشِ على الكُرْسيِّ، كَفَضْلِ الفَلاةِ على تِلْكَ الحَلْقَةِ»(١).

هذا الحَديثُ فيهِ دَلالةٌ واضِحةٌ على عِظَمِ عَرْشِ الرَّحمنِ جَلَّ وَعَلَا، وأنَّه أعظَمُ مَخلوقاتِ اللهِ تعالى.

و«**العَرْشُ**» **في اللُّغةِ هوَ**: سَريرُ المَلِك، كما قال تعالى عَنْ سَريرِ مَلِكةِ سَبأ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وقال عن يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠](٢).

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦١)، وابن حبان في صحيحه (٣٦١)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٦٩) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، وجزم ابنُ القيم بنسبته إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصواعق المرسلة (٢/ ٤٣١)، وصححه الألبانيُّ في الصحيحة (١٠٩)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ عَلِمَ الْمُسْلِمونَ أَنَّ كُرْسيَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَسِعَ السَّمَواتِ والْأَرْضَ، وَأَنَّ الْكُرْسيَّ في الْعَرْشِ كَحَلْقَةٍ مُلْقاةٍ بِأَرْضِ فَلاةٍ» مجموع الفتاوى (٥/ ١٠٦)، وقال الذهبي في العلوّ: «الخبر منكر»، وتكلّم فيه غيرُ واحدٍ.

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (١/ ٢٦٣)، البداية والنهاية (١/ ٢٠)، فتح ربِّ البريَّة بتلخيص الحمويَّة لابن عثيمين (ص٥٣).

وعَــرْشُ الرَّحمنِ جَلَّوَعَلَا عَرْشٌ عظيمٌ، وهو سَــقفُ المخلوقــاتِ، مُحيطٌ بها، وهوَ أعلاها، وأكبَرُها، وهو مقبَّبٌ، يعني: كالقُبَّة على العالَم، وما تحته بالنســبَةِ إليهِ أصغَرُ مِنْ حَلْقةٍ في فَلاةٍ.

وقال تعــالى عنِ الكُــرسيِّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] **أي:** شَــمِلَ، وأحاطَ، والكُــرْسيُّ أكبرُ مِنَ السَّــماواتِ، والأرضِ، و«الكُــرْسيُّ موضِعُ القدمَيْن»، كما قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [١].

وإذا كانَ الكُرسيُّ بالنِّســبَةِ للعَــرْشِ كحَلْقةٍ أُلقِيَتْ في صَحراء، فماذا تُســاوي السَّماواتُ، والأرضُ، بالنِّســبة للعَرْش؟! أم ماذا تُساوي الأرضُ التي نحنُ عليها بالنِّسبة للعَرْشِ؟!

والعَرشُ هوَ أثقلُ المَخلوقاتِ وَزْنًا؛ كما قــال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لزَوْجِه جوَيْريَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَقَــدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِماتٍ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، لَــوْ وُزِنَتْ بِما قُلْتِ مُنْذُ اليَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُــبْحانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضا نَفْسِــهِ، وَزِنَةَ عَرْشِــهِ، وَمِدادَ كَلِماتِهِ» [٢].

يقولُ شَــيخُ الإســلامُ ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «المَقصودُ بالحديثِ نِهايةُ ما يُمكِنُ مِنَ الوَزْنِ، وغايةُ ما يُمكِنُ مِنَ المَعدودِ، وغايةُ ما يُمكِنُ مِنَ القَوْلِ، والمَحْبوبِ» [٣].

فقولُهُ: «وَزِنَةَ عَرْشِهِ»: «يُبيِّن أنَّ زِنةَ العَرْشِ أثقلُ الأوزانِ» [٤].

وامتَــدحَ اللهُ تعالى نفسَــه بأنَّه صاحــبُ العَرشِ؛ فقــال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو

---

(١) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٤٨)، والحاكم (٢/ ٣١٠)، وصحَّحه الألباني في مختصر العُلوّ (ص١٠٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٦).

(٣) بيان تلبيس الجهميَّة (٣/ ٢٦٧).

(٤) مجموعة الرسائل والمسائل (٤/ ١١٠).

ﭐلۡعَرۡشِ﴾ [غافر: ١٥]، ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦].

وفي دُعـاءِ الكَرْبِ: «لاَ إِلَـهَ إِلَّا اللهُ العَظيمُ الحَليمُ، لاَ إِلَـهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظيمِ، لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمواتِ، وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ الكَريمِ»[1].

وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤-١٦].

وقولُه: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [البروج: ١٥] **أي:** صاحبُ العَرْشِ المُعظَّم، العالي على جميعِ الخَلائقِ، وخَصَّ اللهُ العَرْشَ بالذِّكْـرِ؛ لعظمَتِه، ولأنَّه أخصُّ المَخلوقاتِ بالقُرْبِ مِنْهُ تعالى[2].

والمَجيدُ: العَظيمُ، القويُّ في نَوْعِه، وقيلَ: الكَريمُ، وقيلَ: العالي؛ لِعُلوِّه، وشَرَفِه[3].

وفي قولِه تعـالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] قراءتـانِ: الرَّفعُ على أنَّه صفةٌ للرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ صاحِبِ العَرْشِ، والجَرُّ على أنَّه صفةٌ للعرشِ.

فاسـمُ اللهِ ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]هو: المُتضَمِّن لكثرةِ صفاتِ كمالِه، وسَعَتِها، وعدمِ إحصاءِ الخَلْق لها، وسَعَةِ أفعالِه، وكثرةِ خيرِه، ودوامِه.

وعلى قراءَةِ الكَسْرِ: فإذا كانَ عَرشُه مجيدًا، فهو سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أحقُّ بالمَجْدِ.

«واللهُ تعالى وصَفَ عَرْشَـه بالكَرَم: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وهوَ نَظـيرُ المَجْدِ، ووصَفَه بالعَظَمـةِ: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، فوَصْفُه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالمَجْدِ مُطابِقٌ لوَصْفِه بالعَظَمَةِ، والكَرَم.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٢٨٤)، تفسير ابن كثير (٨/ ٣٧٢)، تفسير السعدي (ص٩١٨).

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٢/ ٨١٨٧)، النكت والعيون (٦/ ٢٤٣)، التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٥٠).

بَلْ هوَ أحقُّ المَخلوقاتِ أنْ يوصَفَ بذلكَ؛ لسَعَتِه، وحُسْنِه، وبهاءِ مَنْظَرِه؛ فإنَّه أوسَعُ كلِّ شيءٍ في المخلوقاتِ، وأجملُه، وأجمعُه لصِفاتِ الحُسْنِ، وبَهاءِ المَنْظَر، وعُلوِّ القَدْرِ، والرُّتبةِ، والذَّاتِ، ولا يقدرُ قَدْرَ عَظَمَتِهِ، وحُسْنِه، وبهاءِ مَنظرِه، إلَّا اللهُ.

ومَجْدُه مُستفادٌ مِنْ مَجْدِ خالقِه، ومُبْدِعِه، والسَّماواتُ السَّبعُ، والأرضونَ السَّبْعُ، في الكُرْسيّ الذي بَينَ يدَيْه، كحَلقَةٍ مُلقاةٍ في أرضِ فَلاةٍ، والكُرسيُّ فيهِ كتلكَ الحلقةِ في الفَلاةِ؛ فكيفَ لا يكونُ مَجيدًا وهذا شأنُهُ؟! فهوَ عظيمٌ، كريمٌ، مجيدٌ»[1].

والعَرْشُ أوَّلُ المَخلوقاتِ، كما تقدَمَ بيانُه.

واللهُ تعالى قدِ استَوَى على عَرْشِهِ، استواءً يَليقُ بجلالِهِ، وكمالِهِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

ولَمَّا سُئِلَ الإمامُ مالِكٌ عن قولِهِ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قال: «الِاسْتِواءُ مَعْلومٌ، والكَيْفُ مَجْهولٌ، والإيمانُ بِهِ واجِبٌ، والسُّؤالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»[2].

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأدلَّةُ السمعيَّة المُحْكَمة على عُلوِّ الرَّبِّ على خَلقِهِ، واستوائِهِ على عرْشِهِ، إذا بُسِطَت أفرادُها كانت ألفَ دَليلٍ»[3].

والعَرشُ والكُرسيُّ حقيقيَّانِ، وتفسيرُه بالمُلْكِ، أو السُّلطانِ، تَحريفٌ، وتعطيلٌ.



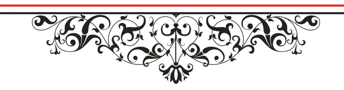
(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيِّم (ص٩٤)، بتصرُّف واختصار.

(٢) الاعتصام (١/ ٢٢٩).

(٣) إعلام الموقعين (٢/ ٢١٧) بتصرُّف، والصواعق المرسلة (١/ ٢٩٤).



الحديث الرابع والعشرون



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ، كَتَبَ في كِتابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتي غَلَبَتْ غَضَبي»(١).

وفي روايةٍ: **«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبي، فَهوَ مَكْتوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ»**(٢).

هذا الحديثُ يَتضمَّنُ سَعَةَ رَحْمَةِ اللهِ تعالى، وكَثرةَ فَضْلِه في حِلْمِه قَبْلَ انتِقامِهِ، وعَفْوِه قَبلَ عُقوبَتِه.

وذِكْرُ «الكِتابِ» تأكيدٌ بالِغٌ في مَعناهُ؛ لأنَّ ما زادَ تأكيدُه يُثْبَت في كِتابٍ.

فاللهُ تعالى كَتَبَ وَأَوْجبَ على نفسِهِ، في كتابِ شَرَفٍ عندَه، حتَّى لَمْ يولِّ خَزْنَه، مَلَكًا مُقرَّبًا، ولا نبيًّا مُرسلًا، ولَمْ يَرْضَ في مَكانِ خَزْنِه إلَّا أنْ جعلَه فَوقَ العَرشِ.

وذلكَ أنَّ غَضَبَه جَلَّ وَعَلَا لَمْ تكُنْ لِتَقومَ له السَّمواتُ، والأرضُ، لولا أنَّه غَلَبَتْه رَحْمَتُه، فدَفَعَ العظيمَ بالعَظيمِ(٣).

(١) رواه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).
(٢) رواه البخاري (٧٥٥٤) -واللفظ له-، ومسلم (٢٧٥١).
(٣) الإفصاح لابن هُبَيرة (٦/ ٣٠٧).

فاللهُ تعالى كتبَ في كِتابٍ عندَه فَوقَ العَرشِ: «**إنَّ رَحْمَتي سَبقَت غَضَبي**»، أو: «**غَلَبَتْ غَضَبي**»، كتبَ ذلك قَبلَ أنْ يَخلُق الخَلْقَ، لَمَّا قدَّرَ خلقَهم وفَرَغَ مِنْ تقديرِ ذلكَ.

والمُرادُ بـ«غَلَبت»، و«سَبَقَت»: كَثرةُ الرَّحمةِ، وشمولُها[١].

قال شَيخُ الإسـلامِ ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَصْفُ رَحْمَتِه بأنَّها تَغلِبُ وتَسْبِقُ غَضَبَه، يدُلُّ على فَضْلِ رَحْمَتِه على غَضَبه، مِن جهةِ سَبْقِها، وغَلَبَتِها»[٢].

فالرَّحمَةُ، والغَضَبُ، كلاهُما مِنْ صفاتِ اللهِ تعالى، لكنَّ الرَّحمةَ أوسَعُ، وأشملُ، وهذا معنى غَلبِها للغَضَبِ[٣].

وهذا كما قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ٣]؛ فـ«تأمَّل كيف وقعَ الوَصْفُ بـ ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: ٣] بيْنَ صفةِ رَحْمَةٍ قَبْلَه، وصفةِ رحمَةٍ بَعْدَه؛ فقبلَه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: ٣] وبَعدَه: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ٣] فَفي هذا تَصديقُ الحديثِ، وَشاهِدٌ لَهُ»[٤].

ومعنى ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ٣]: ذي النِّعَم، والمَنِّ، والخَيْرِ الكَثيرِ، المتفضِّلِ على عبادِهِ بما هُمْ فيهِ مِنَ المِنَنِ، والنِّعَم الكَثيرةِ، التي لا يُطيقونَ القيامَ بشُكْرِ واحدةٍ مِنْها[٥].

فشِدَّةُ عقابِهِ وقعَتْ بَيْنَ رحمتَيْنِ، فسبقَت رحمتُه غضَبَه، وغَلَبَتْه؛ ولِذا كانَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستعيذُ باللهِ في سُجودِهِ برِضاهُ مِنْ سَخَطِه، وبمُعافاتِه مِنْ عقوبَتِه؛ فيقولُ: «**اللهُمَّ أَعوذُ بِرِضاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعافاتِكَ مِنْ عُقوبَتِكَ، وَأَعوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحْصي ثَناءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَما أَثْنَيْتَ على نَفْسِكَ**»[٦].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٦٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٩١).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغُنيمان (١/ ٢٦١).

(٤) بدائع الفوائد لابن القيِّم (١/ ١٩٣).

(٥) تفسير ابن كثير (٧/ ١٢٨).

(٦) رواه مسلم (٤٨٦).

وهذا الكِتابُ كُتِبَت فيهِ الرَّحْمةُ، ووُضِعَ عندَ اللهِ تعالى فَوْقَ العَرْشِ؛ ففيهِ تَنْبيهٌ على جلالَةِ قَدْرِ الكِتابِ، والمَكتوبِ.

يَقولُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تأمَّلِ اختِصاصَ هذا الكِتابِ بذِكْرِ الرَّحْمةِ، ووَضْعِه عندَه على العَرْشِ، وطابِقْ بيْنَ ذلكَ، وبيْنَ قولِـهِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]؛ يَنْفَتِحْ لَكَ بابٌ عَظيمٌ مِنْ مَعرفَةِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، إنْ لم يُغْلِقْه عنكَ التَّعطيلُ، والتَّجهُّم[1]»[2].

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ هــوَ الرَّحمنُ الرَّحيمُ، وهوَ أرْحمُ الرَّاحمينَ، وهــوَ خَيْرُ الراحِمينَ، وهوَ الغَفورُ ذو الرَّحمَةِ.

ومِنْ رحمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أنَّه أوْجبَ الرَّحْمةَ على نَفْسِه الكريمةِ؛ تفضُّلًا منهُ، وإحسانًا، وامتِنانًا على خَلْقِهِ، كما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

ولا يســتطيع أحدٌ أن يَحْجُبَها عن عبادِهِ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

ورحمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بعبادِهِ نوعانِ:

- **الأولى: رحمةٌ عامَّةٌ:** وهيَ لجميــعِ الخلائِقِ، بإيجادِهِم، وتربيتِهِم، ورزقِهِم، وإمدادِهِــم بالنِّعَم، والعَطايا، وتصحيحِ أبدانِهِم، وتســخيرِ المَخلوقاتِ مِنْ نباتٍ، وحيوانٍ، وجَمادٍ، لَهُــم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

فهذِهِ تشمَلُ المُسلِمَ، والكافِرَ «لأنَّ اللهَ قَرَنَ الرَّحمةَ هذِهِ معَ العِلْمِ؛ فكلُّ ما بلغَه عِلْمُ اللهِ، وعِلْمُ الله بالغٌ كلَّ شيءٍ؛ فقد بلغَته رَحْمَتُهُ، فكما يَعلَمُ الكافِرَ، يرحَمُ الكافرَ أيضًا، لكِنَّ رَحْمَتَه للكافِرِ رحمةٌ جسديَّةٌ، بدنيَّةٌ، دُنيويَّةٌ»[3].

---

(١) يعني: تعطيل صفات الله، وعدم إثباتها على الوجه اللائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(٢) مدارج السالكين (١/ ٥٧).

(٣) شرح الواسطية لابن عثيمين (١/ ٢٤٩).

- **الثانيةُ: رحمةٌ خاصَّةٌ**: وهذه الرَّحمةُ لا تكونُ إلا للمؤمنينَ، فيرحَمُهُمُ اللهُ تعالى في الدُّنيا: بتَوْفيقِهِم إلى الهِدايةِ، ويُدافِعُ عنهُمْ، وينْصُرُهُم على الكافِرينَ، ويرزُقُهُمُ الحياةَ الطيِّبَةَ، ويُباركُ لهُمْ فيما أعطاهُمْ، ونَحْو ذلك مِنْ أنواعِ النِّعَمِ الإلهيَّةِ، والعَطايا الرَّبانيَّة، ويرحَمُهُم في الآخِرَة: بالعَفْوِ عنْ سيِّئاتِهِم، والرِّضا عنْهُم، وإدخالِهِم الجنَّةَ، ونجاتِهِم مِنَ النارِ، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣][(١)].

«وانْظُرْ إِلَى ما في الوُجودِ مِنْ آثارِ رَحْمَتِهِ الخاصَّةِ، والعامَّةِ:

فبرحمتِهِ أَرْسَلَ إِلَيْنا رَسولَهُ ﷺ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنا كِتابَهُ، وَعَصَمَنا مِنَ الجَهالَةِ، وَهَدانا مِنَ الضَّلالَةِ، وَبَصَّرَنا مِنَ العَمَى، وَأَرْشَدَنا مِنَ الغَيِّ.

وبرحمتِهِ عَرَّفَنا مِنْ أَسْمائِهِ، وَصِفاتِهِ، وَأَفْعالِهِ، ما عَرَفْنا بِهِ أَنَّهُ رَبُّنا، وَمَوْلانا.

وبرحمتِهِ عَلَّمَنا ما لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ، وَأَرْشَدَنا لِمَصالِحِ دينِنا، وَدُنْيانا.

وبرحمتِهِ أَطْلَعَ الشَّمْسَ، والقَمَرَ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ، والنَّهارَ، وَبَسَطَ الأَرْضَ، وَجَعَلَها مِهادًا، وَفِراشًا، وَقَرارًا، وَكِفاتًا، لِلْأَحْياءِ والأَمْواتِ.

وبرحمتِهِ أَنْشَأَ السَّحابَ، وَأَمْطَرَ المَطَرَ، وَأَطْلَعَ الفَواكِهَ، والأَقْواتَ، والمَرْعَى.

ومن رحمتِهِ: سَخَّرَ لَنا الخَيْلَ، والإِبِلَ، والأَنْعامَ، وَذَلَّلَها مُنْقادَةً لِلرُّكوبِ، والحَمْلِ، والأَكْلِ، والدَّرِّ.

وبرحمتِهِ وَضَعَ الرَّحْمَةَ بَيْنَ عِبادِهِ؛ لِيَتَراحَموا بِها، وَكَذَلِكَ بَيْنَ سائِرِ أَنْواعِ الحَيَوانِ»[(٢)].



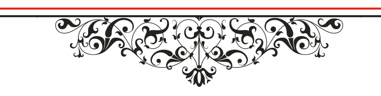
---

(١) ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، لعبد العزيز الجُليل (ص١٢٧).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٣٦٨).



الحديث الخامس والعشرون



عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كانَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، قال:

«اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمواتِ والأَرْضِ وَمَنْ فيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ، لَكَ مُلْكُ السَّمَواتِ والأَرْضِ وَمَنْ فيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ نورُ السَّمَواتِ والأَرْضِ وَمَنْ فيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ مَلِكُ السَّمَواتِ والأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ، والسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حاكَمْتُ، فاغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وَما أَخَّرْتُ، وَما أَسْرَرْتُ وَما أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لا إِلَهَ إلا أَنْتَ، وَلا حَوْلَ وَلا قوَّةَ إلا بِاللَّهِ»(١).

وفي رواية: **«اللهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ نورُ السَّماواتِ والأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ قَيَّامُ السَّماواتِ والأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّماواتِ والأَرْضِ وَمَنْ فيهِنَّ، أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ، وَلِقاؤُكَ حَقٌّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعَةُ حَقٌّ، اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حاكَمْتُ، فاغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهي، لا إِلَهَ إلا أَنْتَ»**(٢).

---

(١) رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

(٢) رواه البخاري (٧٤٩٩)، ومسلم (٧٦٩).



هذا الذِّكرُ والدُّعاءُ العظيمُ، مِنْ أدعيَةِ الاسْتِفْتاحِ، التي كان يَسْتَفْتِحُ بها النبيُّ ﷺ صَلاةَ اللَّيلِ إذا قامَ للتَّهجُّدِ[1].

وقَدْ جَمَعَ هذا الدُّعاءُ العظيمُ مَعاني: التَّوحيدِ، والإيمانِ، والتَّصديقِ، والإخلاصِ، والتَّوكُّلِ، والانقيادِ، والتَّسليمِ، والإخباتِ، والإنابةِ إلى اللهِ تعالى، والتَّضرُّعِ، والخُضوعِ، والثَّناءِ عليهِ أعظَمَ الثَّناءِ بما هوَ أهلُهُ، والإقرارِ بوَعْدِ اللهِ، ووعيدِهِ، وبالبَعثِ، وبجنَّتِهِ، ونارِهِ.

كيفَ لا؟ ونبيُّنا ﷺ هوَ أعلَمُ الناسِ بربِّهِ، وأعظَمُهم له عبادةً، وخَشيةً، وقد أكمَلَ ﷺ مقامَ العبوديَّةِ والإحسانِ على وَجْههِ.

فكانَ ﷺ يَعْبُدُ ربَّه عَزَّ وَجَلَّ كأنَّه يَراهُ؛ إجلالًا، ومَهابةً، وحَياءً، ومحبَّةً، وخَشيةً، وكانَ يأتي بالعِباداتِ على أكْمَلِ وَجْهٍ، وَأحسَنِهِ، مَعَ كَمالِ الخُضوعِ، والخُشوعِ، فيها لربِّ العالَمينَ.

فكانَ «أكملَ الخَلْقِ، وأكرمَهُم على اللهِ، وهوَ المُقدَّم على جميعِ الخَلْقِ في أنواعِ الطَّاعاتِ؛ فهوَ أفضلُ المحبِّين للهِ، وأفضلُ المُتوكِّلينَ على اللهِ، وأفضلُ العابدينَ له، وأفضلُ العارِفينَ بِهِ، وأفضلُ التائِبينَ إليه»[2].

فلَنا فيهِ ﷺ الأُسْوَةُ الحَسنةُ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال ﷺ: «**أَما لَكُمْ فِيَّ أُسْوَةٌ؟**»[3].

---

(١) فعند ابن خزيمة في صحيحه (١١٥٢): «كانَ رَسولُ الله ﷺ إذا قامَ لِلتَّهَجُّدِ قال بَعْدَما يُكَبِّرُ:...» فذكره، وبوّب له: «بابُ ذِكْرِ الدَّليلِ على أَنَّ النَّبيَّ ﷺ إنَّما كانَ يَحْمَدُ بِهذا التَّحْميدِ وَيَدْعو بِهذا الدُّعاءِ؛ لافْتِتاحِ صَلاةِ اللَّيْلِ، بَعْدَ التَّكْبيرِ، لا قَبْلُ».

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٥٦).

(٣) رواه مسلم (٦٨١).

وقولُه ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ»:

«اللهُمَّ» **يعني**: يا اللهُ، والميمُ المُشَدَّدةُ عِوَضٌ عَنْ حَرْفِ النِّداءِ.

«لَكَ الحَمْدُ»: أصلُ العِبارةِ «الحَمْدُ لك»، وتَقديمُ الخبرِ يدلُّ على التَّخصيصِ.

و«الـ» في «الحَمْد» تُفيدُ الاستِغراقَ، والاستِقصاءَ؛ **أي**: استغراقُ جَميعِ المَحامِدِ؛ **أي**: جميعُ الحَمْدِ واجبٌ، ومُسْتَحَقٌّ لله تعالى؛ ففي ذلكَ إثباتُ كلِّ المَحامدِ للهِ تعالى[1].

و«الحَمْدُ»: وَصْفُ المَحمودِ بالكمالِ، معَ المَحبَّة، والتَّعظيم، «الكَمالِ الذَّاتيِّ، والوَصفيِّ، والفِعْليِّ: فهوَ كامِلٌ في ذاتِهِ، وصفاتِهِ، وأفعالِهِ، ولا بُدَّ مِنْ قَيْدٍ وهوَ: «المحبَّةُ والتعظيم».

قال أهلُ العلمِ: لأنَّ مُجَرَّدَ وَصْفِه بالكمالِ بِدونِ محبَّةٍ، ولا تعظيم، لا يُسَمَّى حَمْدًا؛ وإنَّما يُسَمَّى مَدْحًا؛ ولِهذا يقعُ مِنْ إنسانٍ لا يُحِبُّ المَمدوحَ، لكنَّه يُريدُ أنْ يَنالَ منهُ شَيْئًا.

تَجِدُ بَعضَ الشُّعراءِ يَقِفُ أمامَ الأُمراءِ، ثمَّ يأتي لهُمْ بأوصافٍ عظيمَةٍ؛ لا محبَّةً فيهِمْ، ولكِنْ محبَّةً في المالِ الذي يُعطونَهُ، أو خَوْفًا مِنْهُم.

ولكِن حمدُنا لربِّنا عَزَّوَجَلَّ حَمْد محبَّةٍ، وتعظيمٍ؛ فلِذَلكَ صارَ لا بُدَّ مِنَ القَيْدِ في الحَمْدِ أنَّه «وصْفُ المحمودِ بالكَمالِ، معَ المَحبَّةِ، والتَّعظيمِ»[2].

«فالحمدُ: إخبارٌ عنْ مَحاسِنِ المَحمودِ، مع حُبِّه، وإجلالِهِ، وتعظيمِهِ؛ ولِهذا كانَ خبرًا يَتضمَّنُ الإنشاءَ، بخِلافِ المَدْحِ؛ فإنَّه خبرٌ مُجَرَّدٌ»[3].

---

(١) مرقاة المفاتيح (٣/ ٩١٤)، شرح كتاب التوحيد للغُنيمان (١/ ١٦٩).

(٢) تفسير سورة الفاتحة لابن عثيمين (١/ ٩).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٩٣).

فالحَمدُ «ثناءٌ على اللهِ بصِفاتِ الكَمالِ، وبأفعالِه الدَّائرَةِ بَيْن الفَضْلِ، والعَدْلِ، فلَهُ الحَمْدُ الكامِلُ بجميعِ الوُجوهِ»(١).

والفَرْقُ بَيْن الحَمْدِ، والشُّكرِ:

أنَّ **الحَمْدَ**: هوَ الثَّناءُ بالقَوْلِ على المَحمودِ، بصفاتِهِ اللازِمَةِ، والمُتعديَةِ، ويكونُ باللِّسانِ، والقلبِ.

فاللهُ تعالى هوَ المحمودُ على أسمائِهِ، وصفاتِهِ، وعلى نِعَمه، وأياديهِ، وعلى خَلْقِه، وأفعالِهِ، وعلى أمرِه، وحُكْمِهِ، وهوَ المَحمودُ أوَّلًا وآخِرًا، وظاهِرًا، وباطِنًا.

وأمَّا **الشُّكرُ**: فلا يكونُ إلَّا على الصِّفاتِ المُتعديَةِ، ويكونُ بالقلبِ خُضوعًا، واستِكانَةً، وباللِّسانِ ثناءً، واعترافًا، وبالجوارِحِ طاعَةً، وانقيادًا، كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ [سبأ: ١٣].

فالحَمْدُ يكونُ في مُقابلِ نِعْمةٍ، ويكون بدونِها، والشُّكرُ لا يكونُ إلَّا في مُقابِلِ نِعْمةٍ.

والحَمْدُ والشُّكرُ بَيْنَهما عُمومٌ وخُصوصٌ:

فالحَمْدُ أعمُّ مِنَ الشُّكرِ مِنْ حَيثُ ما يَقعانِ عليهِ؛ لأنَّه يكون على الصِّفات اللازمة والمُتعدية، تقول: حَمِدتُه لفروسيَّته، وحَمِدتُه لكَرَمِه.

وهو أخصُّ لأنَّه لا يكون إلا بالقول والقلب.

والشُّكر أعمُّ من حيث ما يقعانِ عليه ؛ لأنَّه يكونُ بالقَوْلِ، والفِعْلِ، والقَلْبِ، وهوَ أخَصُّ؛ لأنَّه لا يَكونُ إلَّا على الصِّفاتِ المُتعديَةِ، فلا يُقالُ: شَكَرْنا اللهَ على حياتِه، وعِلْمِهِ، وسَمَعِه، وبصرِه، لكنَّه المَحمودُ عليها، كما هو مَحمودٌ على إحسانِهِ، وعَدْلِه.

---

(١) تفسير السعدي (ص٣٩).

ولا تَقولُ: شَكَرتُ فُلانًا لفُروسيَّته، وتقولُ: شكرتُه على كَرَمِه، وإحسانِهِ إليَّ[١].

فـالله تعالى مُخْتَـصٌّ بالحَمْدِ الكاملِ مِن جَميـعِ الوُجوهِ؛ ولهذا كانَ رَسـولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رَأى مـا يُحِبُّ قال: «**الحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحاتُ**»، وَإذا رَأى ما يَكْرَهُ قال: «**الحَمْدُ للهِ على كُلِّ حالٍ**»[٢].

قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَنْتَ نورُ السَّمَواتِ، والأَرْضِ»:**

وهذا كما قـال تعـالى: ﴿**ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ**﴾ [النور: ٣٥]، يعني: مُنَوِّر السَّـماواتِ، والأرضِ، فهوَ الذي يُدبِّرُ أمرَها، نُجومَها، وشمسَـها، وقمرَها، وهو الذي ينوِّرها.

قيل: نَوَّرَ السَّماءَ بِالمَلائِكَةِ، وَنَوَّرَ الأَرْضَ بِالأَنْبياءِ.

وَقال أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، والحَسَنُ، وغيرُهما: «مزِّينُ السَّمواتِ، والأَرْضِ، زَيَّنَ السَّماءَ بِالشَّمْسِ، والقَمَرِ، والنُّجومِ، وَزَيَّنَ الأَرْضَ بِالأَنْبياءِ، والعُلَماءِ، والمُؤْمِنينَ».

وقيلَ: هـادي أهلِ السَّـماواتِ، والأرضِ؛ فبِنـورِهِ اهتَدَى أهلُ السَّـماواتِ، والأرضِ[٣].

ولِذا رويَ في دُعاءِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهوَ مُنصَرفٌ مِنَ الطائِفِ، أنَّه قال: «**أَعوذُ بنورِ وَجْهِكَ الـذي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُماتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمَرُ الدُّنْيا، والآخِرَةِ؛ أَنْ تُنْزِلَ بي غَضَبَكَ، أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ**»[٤].

---

(١) الفروق اللُّغويَّة للعسكري (ص٢٠١)، مدارج السالكين (٢/ ٢٣٧)، تفسير ابن كثير (١/ ١٢٨)، شرح كتاب التوحيد للغُنيمان (١/ ١٦٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٠٣)، وجوَّد إسنادَه النووي، وصحَّحه البوصيري، وحسَّنه الألباني.

(٣) تفسير البغوي (٦/ ٤٥)، تفسير القرطبي (١٢/ ٢٥٧)، تفسير ابن كثير (٦/ ٥٧)، فتح الباري (٣/ ٤).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٨١)، وضعَّفه الألباني في الضعيفة (٢٩٣٣).

قال ابنُ القيِّــم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والحقُّ أنَّهُ نورُ السَّـــماواتِ، والأَرْضِ، بِهذِهِ الِاعْتِباراتِ كُلِّها»[١].

والنُّورُ بهذِهِ المعاني مِنْ أفعالِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والنُّورُ -أيضًا- مِنْ أوصافِهِ، ومِنْهُ اشتُقَّ له اسمُ «النُّور»[٢].

فاللهُ تعالى: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، النورُ الحِسِّيُّ، والمعنَويُّ؛ فاللهُ تعالى «بذاتِهِ نورٌ، وحِجابه نورٌ، وبهِ استنارَ العَرشُ، والكُرسيُّ، والشَّمسُ، والقَمرُ، والنُّورُ، وبهِ استنارَتِ الجنَّةُ.

والنُّورُ المَعنويُّ يَرجِــعُ إلى اللهِ؛ فكتابُهُ نورٌ، وشَرعُهُ نورٌ، والإيمانُ والمَعرفةُ في قُلوبِ رُسُله وعبادِهِ المُؤمنينَ نورٌ؛ فلَوْلا نورُه تعالى؛ لَتراكَمَتِ الظُّلُماتُ»[٣].

وفي هذا يقولُ الإمامُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «نونيَّتِه»:

نورُ السَّمواتِ العُلَى مِنْ نورِه ... والأرضُ، كيفَ النُّجومُ والقَمَرانِ
مِــنْ نــورِ وَجْــهِ الــرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... وكذا حكاهُ الحافِظُ الطَّبَراني
فبهِ استنارَ العرشُ والكُرْسيُّ معْ ... سَبْعِ الطِّباقِ وسائِرِ الأكْـوانِ
وكتابُه نــورٌ، كذلك شَرْعُــهُ ... نــورٌ، كذا المبعوثُ بالفُرْقانِ
وكذلك الإيمانُ في قَلْبِ الفتَى ... نـــورٌ علـى نـــورٍ مـعَ الـقـرآنِ
وحِجابُه نورٌ، فلو كشفَ الحِجا ... بَ لأحْرَقَ السُّبُحاتُ للأكْوانِ
وإذا أتَى للفَصْلِ يُشْرِقُ نورُه ... في الأرضِ يومَ قيامةِ الأبـدانِ
وكذاكَ دارُ الرَّبِّ جنَّاتُ العُلَى ... نــورٌ تــلَأْلَأَ ليسَ ذا بُطْلانِ[٤]

فاللَّهمَّ أفِضْ علينا مِنْ نورِكَ، وبَرَكاتِك.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٤٦).
(٢) اجتماع الجيوش الإسلاميَّة (٢/ ٤٤).
(٣) تفسير السعدي (ص٥٦٨)، باختصار.
(٤) تفسير السعدي (ص٥٦٨)، باختصار.

قولُهُ ﷺ: **«وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ، والأَرْضِ»:**

وفي روايةٍ لِمُسلم (٧٦٩): «**أَنْتَ قَيَّامُ السَّماواتِ والأَرْضِ**»، وعِندَ النّسائيِّ في الكُبرَى (٧٦٥٦): «**أَنْتَ قَيُّومُ السماوات والأَرْضِ**».

«قيِّمٌ»، و«قيَّامٌ»، و«قيُّومُ»: صيغةُ مُبالَغةٍ، واللهُ تعالى يوصَف بذلكَ، ومِنْ أسمائِهِ تعالى: «القيُّومُ»، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

و«القيُّومُ هوَ كامِلُ القيُّوميَّة، وله معنَيانِ:

- **المعنى الأوَّلُ:** هوَ الذي قامَ بنفسِهِ، وعظُمَت صِفاتُه، واستَغْنَى عنْ جميعِ مخلوقاتِهِ.

- **المعنى الثَّاني:** هوَ الذي قامَتْ بهِ الأرضُ، والسَّمواتُ، وما فيهما مِنَ المَخلوقاتِ، فهوَ الذي أوْجَدَها، وأمدَّها، وأعدَّها، لكلِّ ما فيهِ بقاؤُها، وصلاحُها، وقيامُها، فهوَ الغَنيُّ عنها مِنْ كلِّ وَجهٍ، وهيَ التي افتَقَرَتْ إليهِ مِنْ كلِّ وَجْهٍ»[1].

- قال قتادةُ: «﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: القائِمُ على خَلْقِهِ، بآجالِهم، وأَعمالِهم، وأَرزاقِهم»[2].

فهذا الاسمُ ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ «متضمِّنٌ كمالَ غناهُ، وكمالَ قُدْرَتِهِ؛ فإنَّه القائِمُ بنفسِهِ، لا يَحتاجُ إلى مَن يُقيمُهُ، وهذا مِنْ كمالِ غناهُ بنفسِهِ عمَّا سِواهُ.

وهوَ المُقيمُ لِغيرِهِ؛ فلا قيامَ لغيرِهِ إلَّا بإقامتِهِ، وهذا مِنْ كمالِ قُدْرَتِهِ، وعِزَّتِهِ»[3].

---

(١) الحقُّ الواضح المبين للسعدي (ص٨٧).

(٢) الزاهر لابن الأنباري (١/ ٩٠).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٤).

قال ابنُ القيِّم في «النُّونيَّة»:

هذا وَمِنْ أَوْصافِهِ القَيُّومُ، وال	قَـيُّـومُ في أَوْصـافِـهِ أَمْـرانِ
إِحْـداهُـمـا: القَيُّومُ قامَ بِنَفْسِهِ	والـكَـوْنُ قـامَ بِـهِ هُما الأَمْـرانِ
فـالأَوَّلُ اسْتِغْناؤُهُ عَنْ غَـيْرِهِ	والفَقْرُ مِـنْ كُـلٍّ إِلَـيْـهِ الثَّاني
والوَصْفُ بِالقَيُّومِ ذو شَأْنٍ كَذا	مَوْصوفُهُ أَيْضًا عَظيمُ الشَّانِ[1]

فمعنى **«وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَواتِ، والأَرْضِ»:** أنتَ الذي أقمتَهُما مِنَ العَدَمِ، والقائمُ عليهِما بما يُصْلِحُهُما، ويُقيمُهُما، فأنتَ الخالِقُ الرَّازِقُ، المالِكُ المُدَبِّرُ، المُحْيي المُميتُ، الغنيُّ عنْ كُلِّ شَيْءٍ، وكلُّ مَن سِـواكَ فَقيرٌ إليكَ، ومَصيرُه إليكَ، كما أنَّك أنتَ الذي أوْجَدْتَه، فلك الحَمْدُ[2].

ومَنْ عَرَفَ الله بقيُّوميَّته؛ دَعاهُ، وتوسَّلَ إليهِ بقيُّوميَّته، وأنزلَ بِهِ حاجاتِهِ، واستَغاثَ بِهِ؛ ولِذا عَلَّم نبيُّنا ﷺ فاطِمَةَ ابنَتَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنْ تقولَ كلَّ صباحٍ، ومَساءٍ: «**يا حَيُّ يا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغيثُ، أَصْلِحْ لي شَأْني كُلَّهُ، ولا تَكِلْني إِلَى نَفْسي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»[3].

قال ابنُ القيِّم: «انتَظَمَ هذانِ الاسـمانِ[4] صفاتِ الكَمالِ، والغِنَى التامَّ، والقُدرةَ التامَّةَ، فكَأَنَّ المُسـتَغيثَ بِهِما مُستغيثٌ بكلِّ اسمٍ مِنْ أسماءِ الرَّبِّ تعالى، وبِكلِّ صِفَةٍ مِنْ صِفاتِهِ.

فما أَوْلَى الاسـتغاثَةَ بهذَيْنِ الاسـمَيْنِ أنْ يكونا في مَظِنَّةِ تَفريجِ الكُرُباتِ، وإغاثةِ اللَّهفاتِ، وإنالَةِ الطَّلَباتِ»[5].

---

(١) نونيَّة ابن القيم (ص٢١١).

(٢) شرح كتاب التوحيد للغُنيمان (١/ ١٦٩).

(٣) رواه الحاكم (٢٠٠٠)، وابن السُّنِّي في عمل اليوم والليلة (٤٦)، وصحَّحه المنذريّ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٢٠).

(٤) يعني: الحي القيوم.

(٥) بدائع الفوائد (٢/ ٦٧٩).

قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ، والأَرْضِ، وَمَنْ فيهِنَّ»:**

وهذا كما قال تعالى في سورةِ الفاتِحَةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

و«الرَّبُّ»: هوَ الخالِقُ، المالِكُ، المُدبِّرُ.

«فالرَّبُّ: هو مَنِ اجتمعَ فيهِ ثلاثةُ أوصافٍ: الخَلْقُ، والمُلكُ، والتدبيرُ؛ فهوَ الخالِقُ المالِكُ لكلِّ شَيْءٍ، المدبِّرُ لجميعِ الأمورِ»[١].

و«العالَمِينَ»: جَمْعُ عالَمٍ، وهوَ كلُّ ما سِوَى اللهِ تعالى، مِنَ الملائكَةِ، والإنسِ، والجنِّ، والطَّيرِ، وغيرِها.

وقَدْ «وُصِفوا بذلكَ؛ لأنَّهُم عَلَمٌ على خالِقِهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ففي كلِّ شَيءٍ مِنَ المَخلوقاتِ آيةٌ تَدُلُّ على الخالِقِ: على قُدرتِهِ، وحِكمَتِهِ، ورحمَتِهِ، وعِزَّتِهِ، وغيرِ ذلكَ مِنْ معاني رُبوبيَّتِهِ»[٢].

وتَربيةُ اللهِ تعالى لخَلْقِهِ نَوْعانِ: عامَّةٌ، وخاصَّةٌ.

«**فالعامَّةُ**: هيَ خَلقُهُ للمَخلوقينَ، ورِزقُهُم، وهِدايتُهُم لِما فيهِ مصالِحُهُمُ التي فيها بقاؤُهُم في الدُّنيا.

والخاصَّةُ: تَربيتُهُ لأوليائِهِ، فيُربِّيهِمْ بالإيمانِ، ويوفِّقُهُم له، ويكمِّلُهُ لهُمْ، ويَدْفَعُ عنهُمُ الصَّوارِفَ، والعوائِقَ الحائِلَةَ بَيْنَهُم وبَيْنَهُ.

وحقيقَتُها: تَربيَةُ التَّوفيقِ لكلِّ خيرٍ، والعِصمة عن كلِّ شَرٍّ.

ولعَلَّ هذا المعنى هوَ السِّرُّ في كَوْنِ أكثَرِ أدعيَةِ الأنبياءِ بلَفْظِ: «الرَّبِّ»؛ فإنَّ مَطالبَهُم كلَّها داخِلَةٌ تحتَ رُبوبيَّتِهِ الخاصَّةِ.

(١) تفسير سورة الفاتحة لابن عثيمين (١/ ١٠).

(٢) تفسير سورة الفاتحة لابن عثيمين (١/ ١٠).

فدَلَّ قولُـهُ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ على انفرادِهِ بالخَلْـقِ، والتَّدبيرِ، والنِّعَم، وكمالِ غناهُ، وتمامِ فَقْرِ العالَمِينَ إليْهِ بِكلِّ وَجْهٍ، واعتِبارٍ»[١].

فمعنى قولِهِ: «أَنْتَ رَبُّ السَّمَواتِ، والأَرْضِ، وَمَنْ فيهِنَّ» أي: أنتَ خالِقُهما، ومالِكُهما، ومَنْ فيهما، والمُتصرِّفُ فيهما بمَشيئتِكَ، وأنتَ المُدَبِّرُ لأمورِهِم؛ فالمُلْكُ لكَ، ولَيْسَ لأحدٍ معَكَ اشتِراكٌ، أو تَدْبيرٌ، تبارَكْتَ وتعالَيْتَ[٢].

قولُهُ ﷺ: «أَنْتَ الحَقُّ»:

الحَقُّ في ذاتِهِ، وصفاتِهِ، فهوَ واجِبُ الوُجودِ، وجودُه مِنْ لوازِمِ ذاتِهِ، ويَسْتَحيلُ عليهِ العَدَمُ أزَلًا، وأبَدًا، ولا وُجودَ لشَيْءٍ مِنَ الأشْـياءِ إلَّا بِهِ، وهوَ كامِلُ الصِّفاتِ، والنُّعوتِ.

فهوَ الذي لَمْ يزَلْ ولا يزالُ بالجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ مَوْصوفًا، ولَمْ يَزَلْ ولا يزالُ بالإحسانِ مَعروفًا.

فقَولُهُ حَـقٌّ، وفِعْلُه حقٌّ، ولقاؤُه حقٌّ، ورُسُـلُه حقٌّ، وكتُبُه حَـقٌّ، ودينُهُ حقٌّ، وعبادَتُـه وحْدَه لا شَريكَ له هيَ الحَقُّ، وكلُّ شَيْءٍ يُنْسَـبُ إليهِ فهوَ حَقٌّ؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [الكهف: ٢٩][٣].

قولُهُ ﷺ: «وَوَعْدُكَ الحَقُّ»:

أي: ما وَعَدتَ بِهِ في كتابِكِ، وعلى ألسِـنَةِ رُسُـلِكَ؛ واقعٌ لا شَـكَّ في ذلكَ، كما قـال تعـالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: ٥٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ

---

(١) تفسير السعدي (ص٣٩).

(٢) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ١٦٩).

(٣) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص١٨٤).

ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٩]؛ فاللهُ تعالى يَجْزي الذينَ أساءوا بما عَمِلوا، ويَجْزي الذينَ أحسَنوا بالحُسنى(١).

قولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَقَوْلُكَ الحَقُّ»:**

أي: صِـــدقٌ، وعَدْلُ، ثابتٌ، فلا عَبَثَ فيهِ، ولا كَذِبَ، ولا مُجازَفَةَ، ولا شـــكَّ في صِدْقهِ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤](٢)

وقـــال تعـــالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ **أي:** صِدقًا في الأخبارِ، وعَدْلًا في الأحكام؛ فكلُّ ما أخبرَ به فحقٌّ لا مِريَةَ فيهِ، ولا شـــكَّ، وكلُّ ما أمرَ به فهوَ العَدْلُ الذي لا عَدْلَ سِواهُ، وكلُّ ما نَهى عنه فباطِلٌ، فإنَّه لا يَنْهَى إلَّا عنْ مَفْسَـــدَةٍ، كما قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فقولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقٌّ، وصِدقٌ، وعَدْلٌ، وهُدًى، ليسَ فيهِ مُجازَفةٌ، ولا كَذِبٌ، ولا افتِراءٌ(٣).

قولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَلِقاؤُكَ الحَقُّ»:**

أي: واقعٌ كائنٌ لا مَحالَةَ.

ولقاءُ اللهِ هوَ: البَعْثُ بَعْدَ المَوْتِ، والمَصيرُ إلى الدَّارِ الآخِرَةِ، ووُقوفُ العِبادِ بَيْنَ يدَيِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ للمُحاسَبَةِ بأعمالِهِمْ، والجَزاءِ بها(٤).

(١) شرح ابن بطَّال على البخاري (٣/ ١٠٩).

(٢) شرح ابن بطَّال (٣/ ١٠٩)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقّن (٩/ ١٩)، مرقاة المفاتيح (٣/ ٩١٥).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٩، ٣/ ٣٢٢).

(٤) فتح الباري لابن رجب (١/ ٢١٠)، شرح أبي داود للعيني (٣/ ٣٨١)، مرقاة المفاتيح (٣/ ٩١٥).

كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

وقدْ جاءَ في حديثِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ روايةِ أبي هُريرةَ [(١)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**الإيمانُ: أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالبَعْثِ**»[(٢)].

ولقاءُ اللهِ لقاءٌ حقيقيٌّ، على ما يَليقُ باللهِ تعالى، مِنْ غيرِ تَحْريفٍ، ولا تَأْويلٍ.

و«**لِقاءُ اللهِ على نَوْعَيْنِ**:

لِقاءِ مَحْبوبٍ على وَجْهِ الإِكْرامِ، وَلِقاءِ مَكْروهٍ على وَجْهِ التعذيبِ؛ كَما قال سُلَيْمانُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ لِأَبي حازِمٍ: كَيْفَ القُدومُ على اللهِ تَعالَى؟ فَقال: يا أَميرَ المُؤمنينَ، أَمَّا المُحسِنُ: فكالغائِبِ، يَأْتي أَهلَه فَرِحًا مَسْرورًا، وَأَما المُسيءُ: فكالعَبدِ الآبِقِ، يَأْتي مَوْلاهُ خائفًا مَحْزونًا»[(٣)].

قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ»:

فهُما مَخلوقتانِ مَوجودتانِ الآنَ، لا تَفنَيانِ، ولا تَبيدانِ، فنُؤمِنُ بنَعيمِ الجنَّةِ، وأنَّها جزاءُ المُؤمِنينَ الطَّائعينَ، وبعذابِ النارِ، وأنَّها جَزاءُ الكافِرينَ العاصينَ.

كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

---

(١) ورواية مسلم التي انفردَ بها، هي من حديث ابن عمر عن عمر.

(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٦٧، ٤٨٢).

قولُهُ ﷺ: «والنَّبيُّونَ حَقٌّ»:

فنؤمِنُ بأنبياءِ اللهِ، ورُسُلِه، إجمالًا في الإجماليِّ، وتفصيلًا في التَّفصيليِّ، ونُصدِّقُ بما صَحَّ مِنْ أخبارِهِم، وما جَرَى لَهُم مَعَ قومِهِمْ.

وَأنَّهم كانــوا يَدْعونَ إلى عبادةِ اللهِ وحدَهُ لا شَريكَ لَــهُ، والكُفرِ بما يُعبَدُ مِنْ دونِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وأنَّ رســالَتَهُم جَميعًا حقٌّ مِنْ عندِ اللهِ تعالى؛ فنؤمِــنُ، ونُصَدِّقُ، بهم جميعًا، ولا نُفرِّقُ بَيْن أحَدٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ؛ فمَنْ كفرَ برسالَةِ واحدٍ مِنْهُم، فَقَد كَفَرَ بالجَميعِ، وكفَرَ باللهِ العظيــمِ، والعياذُ بــاللهِ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

ونُؤمِنُ بأنَّهُــم جميعًا صادقونَ مُصَدَّقــونَ، بارُّونَ راشِــدونَ، وكانوا على الحقِّ المُبينِ، والهُدَى المُســتَبينِ، بَلَّغوا رِســالاتِ ربِّهِم البلاغَ المُبــينَ، ولَمْ يُبَدِّلوا، ولَمْ يُغَــيِّروا، ولَمْ يَكتُموا مِنْها حَرْفًا، أو يَزيدوا شَــيْئًا، أو يَنقُصوهُ؛ فقامَتْ بذلكَ الحُجَّةُ على الخَلْقِ ببَعْثَتِهِم.

قولُهُ ﷺ: «ومُحمَّدٌ حَقٌّ»:

خَصَّهُ بالذِّكْرِ معَ أنَّه مِنْ جُملَةِ «النبيِّينَ»؛ تَعظيمًا له، وعَطفَه على «النبيِّين» إشارةً إلى أنَّه فائِقٌ عليهِمْ بأوْصافٍ مُختصَّةٍ بِهِ.

ولَمْ يَقُــلْ: «وأنا حقٌّ»، فجَرَّده عَنْ ذاتِــهِ، كأنَّه غَيْرُه، ووَجَــبَ عليهِ الإيمانُ بِهِ، وتصديقُه؛ مُبالَغةً في إثباتِ نُبوَّتِهِ، كما في التَّشَهُّدِ[1].

(١) فتح الباري (٣/ ٥)، عمدة القاري للعيني (٧/ ١٦٧).

قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«والسَّاعَةُ حَقٌّ»:**

أي: يَوْمُ القيامَــةِ، وما فيهِ مِنَ الحِســابِ، ونَشْرِ صحائِفِ الأعــمالِ، والميزانِ، والصِّراطِ، والحَوْضِ، والقَنْطَرَةِ، وغيرِ ذلِكَ؛ فكلُّه حَقٌّ، وصِدْقٌ، لا شكَّ فيهِ.

قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ»:**

أي: اسْتَسْــلَمتُ، وأطَعْتُ، وانقَــدتُ لحُكْمِكَ، وأمرِكَ، ونَهْيِكَ، وسَــلَّمتُ، ورضيتُ، وآمَنْتُ، وصَدَّقتُ، واستَيْقَنتُ[١].

قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَبِكَ آمَنْتُ»:**

أي: صدَّقتُ بكَ، وبما أَنْزَلْتَ، وبكلِّ ما أخْبَرْتَ، وأمَرْتَ، ونَهَيْتَ[٢].

وتأمَّــلْ كيفَ قال: «وبِكَ آمَنتُ»، ولَمْ يقُلْ: «آمَنتُ بكَ»، وبَيْنَهما فَرْقٌ؛ وذلك أنَّ قولَه: «بِكَ آمَنتُ» يَجْمَعُ: الإيمانَ باللهِ، والاعتِرافَ أنَّه لَمْ يؤمِنْ بهِ إلَّا بتَوفيقِهِ، وقَوْلَهُ: «آمَنتُ بكَ» إنَّما هوَ مُجَرَّدُ الإخبارِ عنْ إيمانِهِ[٣].

قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ»:**

تَبرَّأَ إليهِ مِنَ الحَولِ، والقوَّةِ، وصَرَفَ أمورَه إلَيْهِ؛ وأيْقَنَ أنَّه لَنْ يُصيبَه إلَّا ما كُتِبَ له، وفوَّضَ أمْرَهُ إلى اللهِ، ونعِمَ المُفَوَّضُ إليهِ؛ فاللهُ تعالى كافي مَنْ توكَّلَ عليهِ.

واسمُ اللهِ «الوَكيل» معناهُ: الكافي[٤].

قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ»:**

أي: رَجَعْتُ إلى الخَيْرِ، فلا يكونُ الرُّجوعُ إلى الشَّرِّ إنابَةً، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤] **أي:** عودوا إلى ما يَرضَى بهِ عنْكُمْ مِنَ التَّوبةِ.

---

(١) شرح ابن بطَّال (٣/ ١٠٩)، التمهيد لابن عبد البرّ (١٢/ ١٩١)، إكمال المُعلِم للقاضي عياض (٣/ ١٣١، ٨/ ٢١٥)، شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٥٥).

(٢) شرح ابن بطَّال (٣/ ١٠٩)، إكمال المُعلِم (٣/ ١٣١، ٨/ ٢١٥)، شرح النووي (٦/ ٥٥).

(٣) الإفصاح لابن هُبَيرة (٣/ ١٩).

(٤) شرح ابن بطَّال (٣/ ١٠٩)، التوضيح لابن الملقّن (٩/ ٢٠).

فـ«الإنابَةُ»: الرُّجوعُ إلى اللهِ تعالى بالتوبَةِ، و«المُنيبُ»: الرَّاجِعُ، والمُقْبِل بقَلْبِه إلى اللهِ، يُقالُ: أناب يُنيبُ إنابَةً، فهو مُنيبٌ: إذا أقْبَلَ ورَجَعَ.

والمعنى: أطَعْتُ أمـرَكَ، وتُبْتُ، ورَجَعتُ بِهِمَّتـي إلى طاعَتِك، وعبادَتِك، **أي**: أقبَلْتُ إليها، وإلى ما يقـرِّبُ إليكَ، وانصَرَفْتُ، وأعرَضْتُ عنِ الالتِفاتِ إلى غَيْرِكَ، وعَنْ مُخالَفَتِكَ.

وقيلَ: إليكَ رَجَعْتُ في أمْري، وتَدبيري؛ بمعنى: فوَّضْتُ أمري إليكَ، وتوكَّلتُ، واستَعَنْتُ[1].

قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَبِكَ خاصَمْتُ»**:

أي: بِكَ أحْتَجُّ، وأُدافِعُ، وأُقاتِلُ، بما أعْطَيْتَني مِنَ البَراهينِ، والقوَّةِ.

والمعنى: حاجَجْتُ وخاصَمْتُ مَنْ عانَـدَك، وكفَرَ بكَ، وخاصَمَ فيكَ، وقَمَعتُه بحُجَّةِ اللِّسانِ، وبالسَّيْفِ.

وقيلَ: بتأييدِكَ، ونُصْرَتِكَ، قاتلْتُ، أو بِوَحْيِك ناظَرْتُ خَصْمي[2].

قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَإِلَيْكَ حاكَمْتُ»**:

أي: أُحاكِمُ إليـكَ بالحُجَجِ، والسَّـيفِ، كلَّ مَنْ أبى قَبولَ الحَـقِّ، وجَحَدَهُ، وجعلْتُكَ الحاكِمَ بيني وبينَـهُ، دونَ غيرِكَ مِمَّنْ كانَتْ تُحاكِمُ إليهِ الجاهليَّةُ، وغيرُهُمْ، مِنْ صنَمٍ، وكاهِنٍ، ونارٍ، وشَـيْطانٍ، وغَيْرِها؛ فـلا أرْضَى إلَّا بحُكْمِك، ولا أعتَمِدُ غيرَه، ولا أتوَكَّلُ إلَّا عليْكَ[3].

---

(١) التمهيد (١٢/ ١٩١)، إكمال المُعلِم (٣/ ١٣١، ٨/ ٢١٥)، النهاية لابن الأثير (٥/ ١٢٢)، شرح النووي (٦/ ٥٥، ١٧/ ٣٩).

(٢) إكمال المُعلِم (٣/ ١٣٢، ٨/ ٢١٥)، شرح النووي (٦/ ٥٥، ١٧/ ٣٩)، شرح المشكاة للطِّيبي (٤/ ١١٩٥)، شرح أبي داود للعيني (٣/ ٣٨٢).

(٣) إكمال المُعلِم (٣/ ١٣٢)، شرح النووي (٦/ ٥٥).

فقولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَبِكَ خاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حاكَمْتُ»:**

فتكونُ «المُخاصَمَة» للهِ تعالى، لا لِهواهُ، وحَظِّه، وتكونُ «مُحاكَمَتُه» خَصْمَه إلى أمرِ اللهِ، وشَرْعِه، لا إلى شَيءٍ سِواهُ.

فمَنْ خاصَمَ لنفسِهِ؛ فهوَ ممَّنِ اتَّبعَ هواهُ وانتصَرَ لنفْسِهِ، وقَدْ قالتْ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**ما انْتَقَمَ رَسولُ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لِنَفْسِهِ، إلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ للهِ بِها**»[١]، وهذا لتكميلِ عُبوديَّتِهِ.

ومَنْ حاكَمَ خَصْمَه إلى غيرِ اللهِ، ورسولِهِ؛ فقَدْ حاكَمَ إلى الطَّاغوتِ، وقَدْ أُمِرَ أنْ يَكْفُرَ بهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠].

ولا يَكْفُرُ العَبْدُ بالطَّاغوتِ حتَّى يَجْعلَ الحُكْمَ للهِ وحدَهُ، كما هوَ كذلِكَ في نَفْسِ الأمْرِ[٢].

قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فاغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ، وَما أَخَّرْتُ»:**

يعني: ما قدَّمتُ مِنَ الذُّنوبِ، والأعمالِ السيِّئةِ، أو مِنَ التَّقصيرِ في العمَلِ، قبْلَ هذا الوَقْتِ.

وما أخَّرْتُ عنهُ مِمَّا يَقَعُ منِّي بَعْدَ ذَلِكَ، على الفَرْضِ، والتَّقديرِ.

وقيلَ: ما قدَّمتُ مِنْ سيِّئةٍ، وما أخَّرتُ مِنْ عمَلٍ؛ **أي:** جَميع ما فَرَطَ منِّي.

وقيلَ: ما قدَّمتُ مِنْ شهَواتي على حُقوقِك، وما أخَّرتُ مِنَ الحُقوقِ التي تَجِبُ لكَ.

وعلَى هذا؛ فيُحتمَل أنْ يَشْمَلَ ذلكَ ما مَضَى، أو ما مَضَى، ويأتي[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) طريق الهجرتين لابن القيِّم (ص٣٧).

(٣) إكمال المُعلِم (٣/ ١٣٢)، الإفصاح (٣/ ١٩)، مرقاة المفاتيح (٢/ ٤٩٥، ٣/ ٩١٦، ٥/ ٣٩١)، فيض

قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَما أَسْرَرْتُ، وَما أَعْلَنْتُ»:**

أي: ما أخفَيتُ، وأظْهَرتُ، مِنَ الأقوالِ، والأفعالِ، والأحوالِ السيِّئةِ.

أو: ما حدَّثتُ بِهِ نفْسي، وما تَحرَّكَ بِهِ لِساني(١).

قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ»:**

أي: تُقدِّمُ مَنْ شِئتَ مِنْ خَلْقِك إلى رَحْمَتِك، وطاعَتِك بتَوفيقِكَ، وتؤخِّرُ مَنْ شئتَ عَنْ ذلِكَ بخِذلانِهم عَنِ التَّوفيقِ، كما تقتَضيهِ حِكْمَتُك، وتُعِزُّ مَنْ تشاءُ، وتُذِلُّ مَن تشاءُ.

فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المُنَزِّلُ للأشياءِ منازِلَها، يُقدِّمُ ما شاءَ مِنْها، ويؤخِّرُ ما شاءَ، وجعَلَ عِبادَه بَعْضَهُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ، فهوَ المُسْتَحِقُّ أن يُقدِّمَ، ويؤخِّرَ، فلا أُقَدِّمُ أنا، ولا أؤَخِّرُ.

وسُؤالُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **المَغفِرةَ، معَ أنَّه مَغفورٌ له ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وما تَأَخَّرَ،** مَحْمولٌ على التَّواضُعِ، وهَضْمِ النَّفْسِ، والإشْفاقِ، والإجلالِ للهِ تعالى، والخُضوعِ له، وتعظيمِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهوَ تعليمٌ لأمَّتِه؛ ليُقتَدَى بِهِ في أصلِ الدُّعاءِ، والخُضوعِ، وحُسْنِ التَّضرُّعِ، والرَّغبةِ، والرَّهبةِ(٢).

قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَنْتَ إِلَهي، لا إِلَهَ إلا أَنْتَ»:**

بَدَأَ الدُّعاءَ بالتَّوحيدِ، وخَتَمَه بالتَّوحيدِ، **أي:** أنتَ مَعْبودي، فلا مَعبودَ بِحقٍّ غَيْرُكَ.

القدير (٢/ ١٥٤)، عون المعبود (٤/ ٢٦٢)، مرعاة المفاتيح (٨/ ٢٤٧).

(١) عمدة القاري (٧/ ١٦٧)، مرقاة المفاتيح (٣/ ٩١٦).

(٢) إكمال المُعلِم (٣/ ١٣٥)، الإفصاح (٣/ ٢٠)، شرح النووي (٦/ ٥٦، ٦٠، ١٧/ ٤٠)، عمدة القاري (٧/ ١٦٧)، مرقاة المفاتيح (٢/ ٤٩٥، ٣/ ٩١٦)، مرعاة المفاتيح (٣/ ٩٣، ٤/ ٢٠٢، ٨/ ٢٤٧).

«والإِلَهُ هو بمعنى: المَأْلوهِ المَعبودِ، الذي يَستَحقُّ العبادَةَ»[١].

وهذا هوَ تَوحيدُ الألوهيَّةِ، الذي هـوَ إفرادُ اللهِ تعالى وَحدَه بالعبادَةِ، وإخلاصُ الدِّينِ كلِّه للهِ، بإخلاصِ العِبادَاتِ كلِّها ظاهِرِها، وباطِنِها، للهِ وحْدَه لا شَريكَ لَه، لا يَجْعَلُ فيها شَيْئًا لِغَيرِهِ، لا لِمَلَكٍ مُقرَّبٍ، ولا لنبيٍّ مُرسَلٍ، فضْلًا عنْ غيرِهما، فلا أحَدَ يَستَحقُّ العبادَةَ إلَّا الله تعالى.

قولُهُ ﷺ: **«وَلا حَوْلَ وَلا قوَّةَ إلا بِاللَّـهِ»:**

المعنى: لا تَحَوُّلَ للعَبْدِ مِن حالٍ إلى حالٍ، ولا قوَّةَ له على ذلكَ، إلَّا باللهِ[٢].

فكأنَّكَ قُلْتَ: لا أَستَطيعُ، ولا أَقْوَى على التَّحوُّلِ إلا بمَعونةِ اللهِ، فـ«الباءُ» في قولِهِ: «إلَّا باللهِ» للاستِعانَةِ، فكُلُّ إنسانٍ لا يَستَطيعُ أنْ يَتحوَّلَ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، سَواء مِنْ مَعصيَةٍ إلى طاعَةٍ، أو مِنْ طاعَةٍ إلى أفضلَ مِنْها، إلَّا باللهِ[٣] عَزَّوَجَلَّ.

فهَذِهِ «كلمةُ إسلامٍ، واستِسْلامٍ، وتفويضٍ إلى اللهِ، وتَبرُّئٍ مِنَ الحَوْلِ والقوَّةِ إلاَّ بهِ، وأنَّ العبدَ لا يَملِكُ مِنْ أمرِهِ شَيئًا، ولَيْسَ له حيلةٌ في دفْعِ شرٍّ، ولا قوَّةٌ في جَلْبِ خَيْرٍ، إلَّا بإرادَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قولُهُ ﷺ: **«لا حَوْلَ ولا قوةَ إلا باللّهِ»** تُنالُ بهِ الإعانَةُ»[٤].

وهـذِهِ كَلِمةٌ عظيمةٌ، وهـيَ كَنزٌ مِنْ كُنوزِ الجنَّةِ، كـما قال النبيُّ ﷺ لأبي موسَى الأشْعَريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«أَلاَ أَدُلُّكَ على كَلِمَةٍ هيَ كَنْزٌ مِنْ كُنوزِ الجَنَّةِ؟»**، قال: بَلَى يا رَسولَ اللهِ، فِداكَ أَبي وَأُمِّي، قال: **«لاَ حَوْلَ وَلاَ قوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»**[٥].

---

(١) دَرء تعارض العقل والنقل لابن تيميَّة (١/ ٢٢٤).

(٢) جامع العلوم والحِكَم (١/ ٤٨٢).

(٣) الشرح الممتع (٢/ ٨٥).

(٤) فقه الأدعية والأذكار لعبد الرزاق بن عبد المحسن البدر (٣/ ٩٦).

(٥) رواه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

ومعنى «الكَنز»: المالُ النَّفيسُ المُجتَمِعُ الذي يَخْفى على أكثرِ الناسِ، وهذا هوَ شَأنُ هذِه الكَلِمةِ، فثَوابُها مدَّخرٌ في الجنَّةِ، وهوَ ثَوابٌ نَفيسٌ، كما أنَّ الكَنزَ أنفَسُ الأموالِ[1].

فهَذِه الكَلِمَة فيها نَصيبٌ مَوْفورٌ «مِنْ كمالِ التَّفويضِ، والتبرِّي مِنَ الحَوْلِ والقوَّة إلَّا باللهِ، وتَسليمِ الأمْرِ كلِّه لهُ، وعدَمِ مُنازَعَتِه في شَيْءٍ منهُ، وعُموم ذلكَ لكلِّ تَحَوُّلٍ مِن حالٍ إلى حالٍ، في العالَمِ العُلويِّ، والسُّفليِّ، والقوَّةِ على ذلك التَّحوُّلِ، وأنَّ ذلك كلَّه باللهِ وحدَهُ؛ فلا يقومُ لهذِهِ الكَلِمةِ شَيءٌ»[2].

وبَعْدُ؛ فهذا دُعاءُ النبيِّ ﷺ الذي كانَ يَسْتَفْتِحُ بهِ -أحيانًا- صَلاتَه باللَّيلِ، وهوَ جَديرٌ بالتأمُّلِ، والحِفْظِ، والفَهْمِ، والعَمَلِ، وقدْ جَمَعَ فيهِ ﷺ معانيَ الإيمانِ، والتَّوحيدِ، والتَّوكُّلِ، والانقيادِ، والتَّسليمِ، والإنابَةِ، والتَّضرُّعِ، والخُضوعِ للهِ تعالى، معَ عظيمِ الثَّناءِ عليهِ، وختَمَهُ بالدُّعاءِ.

وجَمعَ فيهِ ﷺ أنواعَ الاستِفتاحِ الثَّلاثةِ:

يقولُ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنواعُ الاستِفتاحِ للصَّلاةِ ثَلاثةٌ، وهيَ أنواعُ الأذْكارِ مُطْلَقًا بعدَ القرآنِ:

- أعلاها: ما كانَ ثَناءً على اللهِ.
- ويليهِ: ما كان خَبَرًا مِن العَبْدِ عن عِبادَةِ اللهِ.
- والثَّالِثُ: ما كانَ دُعاءً للعَبْدِ».

ثُمَّ ذَكَرَ حَديثَنا هذا، وقال: «وهذا الذِّكْرُ تضَمَّنَ الأنواعَ الثلاثَةَ، فقَدَّم ما هوَ خَبَرٌ عَنِ اللهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، ورُسُلِه، ثم ذكَرَ ما هوَ خَبَرٌ عَنْ توحيدِ العَبْدِ، وإيمانِهِ، ثُمَّ خَتَمَ بالسُّؤالِ.

---

(١) شرح النووي (١٧/ ٢٦)، شفاء العليل لابن القيّم (ص١١٢).

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٩٣).

وهذا لأنَّ خَبَرَ الإنسانِ عَنْ نفسِهِ سُلوكٌ يَشْهَد فيهِ نفسَهُ، وتَحقيقَ عبادَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا الثناءُ المَحْضُ: فهوَ لا يَشْهَد فيهِ إلَّا اللهَ عَزَّوَجَلَّ بأسمائِهِ، وصفاتِهِ»[1].

والتَّوسُّلُ إلى اللهِ تعالى في الدُّعاءِ، بتَقديمِ الحَمْدِ، والثَّناءِ عليهِ، وتَمْجيدِه بأسمائِهِ، وصفاتِهِ، والتَّوسُّل إليهِ بعبوديَّتِهِ، وتوحيدِهِ؛ لا يكادُ يُرَدُّ معَهُ الدُّعاءُ.

ولِذا جَمَعتِ الفاتِحةُ الوَسيلَتَيْنِ، وهما: التوسُّلُ بالحَمْدِ، والثناءِ عليهِ، وتمجيدِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤].

والتَّوسُّلُ إليهِ بعُبوديَّتِهِ، وتوحيدِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ثُمَّ جاءَ سُؤالُ أهمِّ المَطالبِ، وهوَ: الهِدايةُ، بَعدَ الوَسيلَتَيْنِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ فالدَّاعي بهِ حَقيقٌ بالإجابَةِ.

وهنا في هذا الدُّعاءِ: ذَكَرَ التوسُّلَ إليهِ بحَمْدِه، والثَّناءِ عليهِ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ نورُ السَّمَواتِ، والأَرْضِ....**»، وبعُبوديَّتِه له: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ...**»، ثُمَّ سألَه المَغفِرَةَ: «**فاغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ، وَما أَخَّرْتُ**»[2].

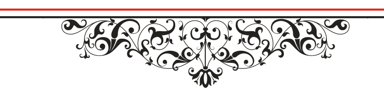


(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٧٦، ٣٩٠)، باختصار.

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٧).



الحديث السادس والعشرون



عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«قـــال رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ: إذا ماتَ فَحَرِّقوهُ، واذْروا نِصْفَهُ في البَرِّ، وَنِصْفَهُ في البَحْرِ؛ فَواللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْـــه لَيُعَذِّبَنَّهُ عذابًا لا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العالَمينَ.

فَأَمَرَ اللَّهُ البَحْرَ فَجَمَعَ ما فيهِ، وَأَمَرَ البَرَّ فَجَمَعَ ما فيهِ، ثُمَّ قال: لِمَ فَعَلْتَ؟ قال: مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ لَهُ»[١].

وفي روايةٍ: **«كانَ رَجُلٌ يُسْــرِفُ على نَفْسِــهِ، فَلَمَّا حَضَــرَهُ المَوْتُ قال لِبَنيهِ: إذا أَنا مُـــتُّ فَأَحْرِقوني، ثُمَّ اطْحَنوني، ثُمَّ ذَرُّوني في الرِّيحِ؛ فَواللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذابًا ما عَذَّبَهُ أَحَدًا.**

فَلَمَّا مـــاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الأَرْضَ، فَقال: اجْمَعي ما فيكِ مِنْهُ، فَفَعَلَـــتْ، فَإِذا هوَ قائِمٌ، فَقـــال: ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْـــتَ؟ قال: يا رَبِّ خَشْيَتُكَ -وفي روايةٍ: **مَخافَتُكَ يا رَبِّ-، فَغَفَرَ لَهُ»**[٢].

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠٦)، ومسلم (٢٧٥٦).

(٢) رواه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦).



وعنْ أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، يُحدِّثُ عَنِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«أنَّ رَجلاً فيمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، راشَهُ اللّهُ[١] مالاً وَوَلَدًا، فَقال لِوَلَدِه: لَتَفْعَلُنَّ ما آمُرُكُمْ بِهِ أَوْ لَأُوَلِّيَنَّ ميراثي غَيْرَكُمْ، إذا أَنا مُتُّ، فَأَحْرِقوني، ثُمَّ اسْـحَقوني، واذْروني في الرِّيحِ، فَإنِّي لَمْ أَبْتَهِرْ[٢] عِنْدَ اللهِ خَيْرًا، وَإِنَّ اللّهَ يَقْدِرُ عَلَيَّ أَنْ يُعَذِّبَني، قال: فَأَخَذَ مِنْهُمْ ميثاقًا، فَفَعَلوا ذَلِكَ بِهِ، وَرَبِّي، فَقال اللّهُ: ما حَمَلَكَ على ما فَعَلْتَ؟ فَقال: مَخافَتُكَ، قال فَما تَلافاهُ[٣] غَيْرُها».**

متفقٌ عليه، وهذه رواية مسلم (٢٧٥٧)، وفي رواية البخاري (٧٥٠٨): **«أنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً فيمَنْ سَلَفَ -أَوْ فيمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ- أَعْطاهُ اللّهُ مالاً وَوَلَدًا، فَلَمَّا حَضَرَتِ الوَفاةُ، قال لِبَنيهِ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قالوا: خَيْرَ أَبٍ، قال: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا، وَإِنْ يَقْدِرِ اللّهُ عَلَيْهِ يُعَذِّبْهُ، فانْظُروا إذا مُتُّ فَأَحْرِقوني، حَتَّى إذا صِرْتُ فَحْمًا فاسْحَقوني، فَإِذا كانَ يَوْمُ ريحٍ عاصِفٍ فَأَذْروني فيها، فَقال: نَبيُّ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: فَأَخَذَ مَواثيقَهُمْ على ذَلِكَ، وَرَبِّي، فَفَعَلوا، ثُمَّ أَذْرَوْهُ في يَوْمٍ عاصِفٍ، فَقال اللّهُ عَزَّوَجَلَّ: كُنْ، فَإِذا هوَ رَجُلٌ قائِمٌ، قال اللّهُ: أيْ عَبْدي، ما حَمَلَكَ على أَنْ فَعَلْتَ ما فَعَلْتَ؟ قال: مَخافَتُكَ، -أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ-، قال: فَما تَلافاهُ أَنْ رَحِمَهُ عِنْدَها»**، وَقال مَرَّةً أُخْرَى: **«فَما تَلافاهُ غَيْرُها»**.

وفي روايةٍ: **«فتلقَّاه برَحْمَتِه»**[٤].

هذِه القِصَّة مِنْ عَجائِبِ القَصَصِ التي وقعَتْ في الزَّمانِ السَّابِقِ، التي أوحَى اللهُ تعالى بها إلى نبيِّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقصَّها على أصحابِه؛ مَوْعظةً، وذِكْرَى لَهُم.

---

(١) أعطاه اللهُ.

(٢) وَلِبَعْضِ الرُّواةِ: «أَبْتَئِر» وَكِلاهُما صَحيحٌ، والْهاءُ مُبْدَلَةٌ مِنَ الْهَمْزَةِ، وَمَعْناهُما: لَمْ أُقَدِّمْ خَيْرًا، وَلَمْ أَدَّخِرْهُ. شرح النووي على مسلم (١٧/ ٧٣).

(٣) أي: ما تداركه.

(٤) رواه البخاري (٣٤٧٨).

وحاصِلُهــا: أنَّ رَجُلًا مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ أنْعَمَ اللهُ تعالى عليهِ بالمالِ الكثيرِ، ورزقَه الأولادَ، لكنَّه لَمْ يشكُرْ ربَّه على هَذه النِّعَمِ، وأسْرَفَ على نفسِه بالمَعاصي.

فلمَّا حضَرَه المَوْتُ؛ تذكَّرَ حالَه معَ ربِّهِ، وكثرةَ ذنوبِهِ، وتفريطَه في حقِّ اللهِ، فتملَّكَه الخَوْفُ الشَّـديدُ مِنَ اللهِ، وظنّ أنَّه متى قَدِمَ على اللهِ، فإنَّه سيُعذِّبُه عذابًا شديدًا، فهوَ يؤمِنُ باللهِ في الجُملةِ، ويؤمِنُ باليومِ الآخِرِ، والجزاءِ والحِسـاب في الجُملةِ، وأنَّ اللهَ تعالى يُثيبُ، ويُعاقِبُ، بعدَ المَوْتِ.

لكنَّهُ كانَ يشُكُّ في تفاصيلِ قُدْرَةِ اللهِ تعالى، وظنَّ بَجْهلِه أنَّه لَوْ حُرِّقَ بعدَ مَوْتهِ، وأذْرَتْه الرِّيحُ في البرِّ، والبَحْرِ، فسَيفلِت مِنْ عذابِ اللهِ، ولَنْ يَقْدِرَ اللهُ على جَمْعِه، وإحيائِهِ!

فأَوْصَى أولادَه أنْ يفعَلوا به ذلكَ بعدَ مَوْتِهِ، وأخَذَ عليهِمُ المَواثيقَ بذلِكَ، وغَفَلَ هذا المِسـكينُ عنْ أنَّ اللهَ تعالى على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وأنَّـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَبعَثُ المَوْتى، ويُعيدُهم، وهـوَ أهْـوَنُ عليـهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ومِنْهُـمُ الذي أكلَتْه أسـماكُ البِحارِ، ومِنهُم مَـنْ أكلَتْه الطُّيورُ المُفترِسةُ، ومِنْهُم مَنْ كانَ في بُطونِ السِّباع، ووحوش البَراري، ومِنْهم مَنْ تحوَّلَ إلى تُرابٍ تغَذَّت بهِ الأشجارُ!

ومَعَ ذلكَ، فاللهُ تعالى قادِرٌ على بَعْثِهم، وإحيائِهم، وجَمْعِهم مِنْ بُطونِ الأسـماكِ، والسِّـباعِ، وحواصِلِ الطَّـيرِ، ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

ففَعَلَ أولادُه بهِ ما طلبَه مِنْهم بَعدَ مَوْتِـهِ؛ فأمرَ اللهُ تعالى البرَّ والبَحْرَ أنْ يَجْمعَ ما فيهِ، فإذا هوَ قائِمٌ رَجُلًا سَويًّا.

فسألَهُ اللهُ تعالى عنِ السَّـبَبِ الذي حمَلَه على صنيعِه، -وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلَمُ بهِ- فقال: يا رَبِّ خَشْيَتُكَ! وفي روايةٍ: مَخافَتُك يا رَبِّ! فغفَرَ اللهُ تعالى له، وتلقَّاه برَحْمَتِه، وهو الغَفورُ الرَّحيمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا الرَّجلُ جمَعَ بَيْنَ الإيمانِ باللهِ، والخَوْفِ منهُ، ووقَعَ فيما وَقَعَ فيهِ مِنَ الشَّكِّ في قُدرةِ اللهِ تعالى بجَهْلِهِ؛ فقَبِلَ الله تعالى منهُ إيمانَه، وخَوْفَه، وغفرَ له ما وَقَعَ فيهِ بجَهْلِه، واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ.

واللهُ تعالى لَه «في خَلْقِه حِكَمٌ لا تبلُغُها عُقولُ البَشَرِ»[١].

فهـذا الرجلُ حمَلَه جَهْلُه على الشَّـكِّ في قُدْرَةِ اللهِ تعـالى، وفي إعادَتِه بَعدَ مَوْتِه، وحَرْقِ جِسْـمِه، وتفريقِه في الرِّياح، «وهذا كفرٌ باتِّفاق المُسلمينَ، لكنَّه كانَ جاهِلًا لا يعلَمُ ذلكَ، وكانَ مُؤمِنًا يَخافُ اللهَ أنْ يُعاقِبَهُ؛ فغَفَرَ له بذلكَ»[٢].

يقولُ شَـيخُ الإسـلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا الرَّجُلُ كانَ قَدْ وقَعَ له الشَّـكُّ، والجَهْـلُ، في قُدْرَةِ اللهِ تعالى على إعادَةِ ابنِ آدَمَ بَعْدَ ما أُحْرِقَ، وذُرِّيَ، وعلى أنَّه يُعيدُ الميِّتَ، ويَحْشُرُه إذا فُعِلَ بهِ ذلكَ.

وهذانِ أصلانِ عظيمانِ:

- **أحدُهُما**: مُتعلِّقٌ بالله تعالى، وهوَ الإيمانُ بأنَّه على كلِّ شَيءٍ قديرٌ.
- **والثَّـاني**: متعلِّقٌ باليومِ الآخِرِ، وهوَ الإيمانُ بأنَّ اللهَ يُعيدُ هذا الميِّتَ، ويَجْزيهِ على أعمالِهِ.

ومـعَ هذا، فلمَّا كانَ مُؤمِنًا باللهِ في الجُملةِ، ومؤمنًا باليومِ الآخِرِ في الجُملةِ، وهوَ أنَّ اللهَ يُثيـبُ، ويُعاقِبُ، بعدَ المَوْتِ، وقد عَمِلَ عملًا صالحًا، وهو خَوْفُه مِنَ اللهِ أنْ يُعاقِبَه عـلى ذنوبِهِ؛ غفَرَ اللهُ له بما كانَ مِنْهُ مِنَ الإيمانِ بـاللهِ، واليومِ الآخِرِ، والعَملِ الصالِحِ»[٣].

---

(١) حادي الأرواح (ص٣٨١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٣١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٩١).

فقولُهُ: «لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ»:

الظَّاهِرُ أنَّ المَقصودَ عَمَلُ الجَوارحِ، وأنَّ عِندَه أصلُ الإيمانِ في قلبِه، فهوَ مُؤمنٌ باللهِ، وبالجَزاءِ، والحِســابِ، وهذا واضِحٌ مِن قولِهِ: «مِنْ خَشْــيَتِكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ»، وقولِهِ: «لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي»، والخَشيةُ لا تكونُ إلَّا لمؤمِنٍ مُصَدِّقٍ[١].

وقال الإمامُ ابنُ خُزَيمةَ في معناها: «لَمْ يعمَلْ خَيْرًا قطُّ على التَّمامِ، والكَمالِ»[٢].

وفي هذا الحديثِ دليلٌ على: أنَّ الخَوفَ مِنَ اللهِ تعالى مِنْ أعظَمِ أسبابِ المَغفِرَة[٣].

فقد غَفَرَ اللهُ تعالى لِهذا الرَّجلِ ذُنوبَه العَظيمةَ؛ لِما وقعَ في قَلْبِه مِنْ مَخافةِ اللهِ.

يقولُ العِراقــيُّ: «في هذا الحديثِ فَضيلةُ خَوْفِ اللهِ تعــالى، وغلَبَتِها على العبدِ، وأنَّها مِنْ مقاماتِ الإيمانِ، وبها انتَفَعَ هذا المُسرِفُ، وحصَلَت له المَغفِرَةُ»[٤].

والخَــوفُ مِنَ اللهِ تعالى عِبــادةٌ جليلَةٌ، تحمِــلُ صاحبَها على طاعَــةِ اللهِ تعالى، واجتِنــابِ معصيتِهِ؛ قال تعالى في وصْفِ عبــادِهِ المُؤمِنينَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

وقال: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

---

(١) التمهيد لابن عبد البرّ (١٨/ ٤٠)، شرح كتاب التوحيد للغُنيمان (٢/ ٣٩١).

(٢) التوحيد (٢/ ٧٣٢).

(٣) منهاج السنة النبويّة (٥/ ٤٨٤).

(٤) طرح التثريب (٣/ ٢٦٩)، باختصار.

وقــال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وفي الحَديــثِ: «**عَيْنانِ لا تَمَسُّــهُما النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِن خَشْــيَةِ اللهِ، وعَيْنٌ باتَتْ تَحْرُسُ في سَبيلِ اللهِ**»[١].

وفي الحديثِ أيضًا: بيانُ عظيمِ قُدْرَةِ اللهِ تعالى، وأنَّ بَعْثَ المَوتَى هيِّنٌ عليهِ يَسيرٌ، كما قــال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

وقــال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

«وهذا فيهِ أعظَمُ دَلالةٍ حِسِّيةٍ على قُدْرَةِ اللهِ، وإحيائِهِ المَوتَى للبَعْثِ، والجَزاءِ.

فأخْبَرَ تعالى عنْ خليلِهِ إبراهيمَ أنَّه ســأَلَه أنْ يُريَه ببَصَرِه كيفَ يُحْيي المَوْتى؛ لأنَّه قد تيَقَّن ذلكَ بخَبَرِ اللهِ تعالى، ولكنَّه أحبَّ أن يُشــاهِدَه عيانًا؛ ليَحْصُلَ له مَرتَبَةُ عَينِ اليَقينِ.

فأمَرَه اللهُ تعالى أنْ يأخُذَ أربعَةً مِنَ الطَّيرِ، ويضُمَّهُنَّ إليهِ؛ ليكونَ ذلكَ بمَرْأى مِنهُ، ومُشاهَدَةٍ، وعلى يَدَيْهِ.

ثُمَّ أمــرَهُ أنْ يُمزِّقَهُنَّ، ويَخْلِطَ أجزاءَهُنَّ بعضَها ببَعضٍ، ويَجْعَلَ على كلِّ جبلٍ مِن الجِبالِ التي في القُربِ منه جُزءًا مِنْ تلكَ الأجزاءِ.

---

(١) رواه الترمذي (١٦٣٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤١١٢).

قال: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي: تحْصُلُ لهُنَّ حياةٌ كاملةٌ، ويأتينَك في هذهِ القوَّةِ، وسُرعَةِ الطَّيرانِ، ففعَلَ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلكَ، وحصَلَ لهُ ما أرادَ.

ثمَّ قال: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي: ذو قوَّةٍ عظيمةٍ، سخَّرَ بها المَخلوقاتِ، فلَمْ يَسْتَعْصِ عليهِ شَيءٌ مِنْها، بلْ هيَ مُنقادةٌ لعِزَّتِهِ، خاضِعَةٌ لجَلالِهِ، ومَعَ ذلكَ فأفعالُه تعالى تابِعَةٌ لِحِكْمَته، لا يفعَلُ شَيْئًا عبَثًا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ»[1].

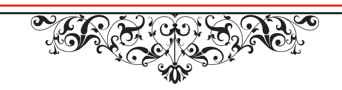


(١) تفسير السعدي (ص١١٢)، باختصار، وتصرُّف.





الحديث السابع والعشرون



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: **اجْتَمَعَ عِنْدَ البَيْتِ ثَقَفيَّانِ، وَقُرَشيٌّ، أَوْ قُرَشيَّانِ، وَثَقَفيٌّ، كَثيرَةٌ شَحْمُ بُطونِهِمْ، قَليلَةٌ فِقْهُ قُلوبِهِمْ، فَقال أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ ما نَقولُ؟ قال الآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنا، وَلا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنا!**

وَقال الآخَرُ: إِنْ كانَ يَسْمَعُ إِذا جَهَرْنا؛ فَإِنَّه يَسْمَعُ إِذا أَخْفَيْنا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢][١].

وفي روايةٍ: «**فَقال بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتُرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ حَديثَنا؟ قال بَعْضُهُمْ: يَسْمَعُ بَعْضَهُ، وَقال بَعْضُهُمْ: لَئِنْ كانَ يَسْمَعُ بَعْضَهُ لَقَدْ يَسْمَعُ كُلَّهُ**»[٢].

هؤُلاءِ ثَلاثةُ رِجالٍ مِنَ المُشرِكينَ -وقدْ أسْلَمَ بعضُهُم بَعدَ ذَلِكَ- اجتمَعوا عندَ البَيتِ، وصَفَهُمُ ابنُ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقِلَّة الفِقهِ؛ لأنَّهم شبَّهوا اللهَ تعالى بخَلْقِه، مِنْ أنَّه يَسْمَع جَهْرَ الأصواتِ دونَ سِرِّها، أو يَسْمَعُ بعضَها دونَ الآخَرِ، فصَدَرَت مِنْهم تِلكَ المَقالةُ، الدَّالَّة على قِلَّةِ الفَهْمِ.

---

(١) رواه البخاري (٧٥٢١)، ومسلم (٢٧٧٥).

(٢) رواه البخاري (٤٨١٦).

وأفْطَنُهم، وأفقَهُهُم، مَنْ قال: «إنْ كانَ يَسْـمَعُ إذا جهَرْنا؛ فَإنَّه يَسْـمَعُ إذا أَخْفَيْنا»، لكنَّه شَكَّ في ذلكَ، وعلَّقَ عِلْمَ اللهِ تعالى بما يُخفونَه بسَمْعِه إذا جَهَروا، فلَمْ يقْطَعْ بأنَّ اللهَ تعالى يَسْمَعُ قولَهُم؛ ولِذا وُصِفَ بقلَّةِ الفِقهِ معَهُم(١).

واللهُ تعالى سَـميعٌ بَصيرٌ، يَسْـمَعُ جَميعَ الأصواتِ، الظاهِـرَة، والباطِنة، الخفيَّة، والجليَّة، باختِلافِ اللُّغاتِ، على تفنُّنِ الحاجاتِ، فالغَيْبُ عندَه شـهادَةٌ، والسِّرُّ عندَهُ علانيَةٌ، والبَعيدُ عِندَه قَريبٌ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقـال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ(٢) لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ(٣) يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

فهوَ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يَرَى ويَسْمَعُ دبيبَ النَّملةِ السَوْداءِ، على الصَّخرةِ الصَّمّاءِ، في اللَّيلةِ الظَّلْماءِ.

«قَدْ أحاطَ بكلِّ شَيءٍ عِلْمًا، وأحصَى كلَّ شيءٍ عَدَدًا، يَعْلَم السِّرَّ، وأخفَى مِنَ السِّرِّ، فالسِّرُّ: ما انْطَوَى عليهِ ضَميرُ العبدِ، وخَطَرَ بقلبِهِ، ولَمْ تَتَحَرَّكْ بِهِ شفتاهُ، وأخفَى مِنهُ: ما لَمْ يَخْطُر بَعْدُ؛ فيَعلَم أنَّه سيَخْطُرُ بقَلْبِه كذا، وكذا، في وقتِ كذا، وكذا»(٤).

فعِلْمُه وسَمْعُه يَشْمَلُ السِّرَّ، والإعلانَ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]؛ أي: «مَـنْ هوَ مُختَفٍ في قَعْرِ بَيْتِهِ في ظَلامِ اللَّيْلِ، ومَنْ هو ظاهِرٌ ماشٍ في بَياضِ النَّهارِ؛ كلاهُما في عِلْمِ اللهِ سَواءٌ»(٥).

---

(١) شرح ابن بطَّال (١٠/ ٥٢٣)، الإفصاح (٢/ ٤٠)، شرح كتاب التوحيد للغُنيمان (٢/ ٥٠٥).

(٢) يخفون ما صدورهم من الشحناء والعداوة للنبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

(٣) يُغَطُّون رؤوسَهم بثيابهم.

(٤) الوابل الصيب لابن القيِّم (ص٦٢)، باختصار.

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٧)، بتصرُّف.

وقــال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

قالت أمُّ المُؤمنينَ عائِشَــةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «الحَمْدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْواتَ، لَقَدْ جاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسـولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشْـكو زَوْجَها، فَـكانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلامُها، فَأَنْـزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١]»[1].

يقولُ الإمامُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «نونيَّته»:

وَهوَ العَليمُ بِما يوَسْوِسُ عَبْدُهُ ... في نَفْسِهِ مِنْ غَـيْرِ نُطْقِ لِسانِ

بَلْ يَسْتَوي في عِلْمِهِ الدَّاني مَعْ الـ ... ـقاصي وَذو الإِسْرارِ والإِعْـلانِ

وَهوَ العَليمُ بِما يَكونُ غَدًا وَما ... قَـدْ كـانَ والمَعْلومُ في ذا الآنِ

وَبُكِلِّ شَيْءٍ لَم يَكُنْ لَوْ كانَ كَيْـ ... ـفَ يَكونُ مَوْجودًا لَدَى الأَعْيانِ[2]

وقال تعــالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ١٩-٢٣].

فيُخْبِرُ تعالى عَــنْ أعدائِه الذينَ بــارَزوهُ بالكُفْرِ بِه، وبآياتِه، وتكذيبِ رُسُــلِه، ومُعاداتِهم، ومُحارَبَتِهم، وحالِهم الشَّنيعَةِ حينَ يُحْشَرونَ، أي: يُجْمَعون ﴿إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا (٩/ ١١٧)، ووصلَه النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وصحَّحه: ابن تيميَّة، وابن الملقّن، وابن حجر، والألباني.

(٢) نونية ابن القيم (ص٣٦).

﴿يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩] أي: يُرَدُّ أولُهم على آخرِهم، ويتْبَعُ آخرُهم أولَهُم، ويُساقونَ إليها سَوْقًا عنيفًا، لا يَستطيعونَ امتِناعًا، ولا يَنْصُرونَ أنفُسَهم، ولا هُمْ يُنصَرونَ.

ثُمَّ يَشْهَدُ عليهِمْ سَمْعُهُم، وأبصارُهُم، وجُلودُهم، فيَشْهَدُ كلُّ عُضْوٍ مِنْ أعضائِهِم، فكلُّ عُضْوٍ يقولُ: أنا فعَلْتُ كذا، وكذا، يَوْمَ كذا، وكذا.

ثُمَّ وبَّخَهُمُ اللهُ تعالى؛ فقال: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢] أي: وما كُنتُمْ تَسْتَخْفونَ عندَ ارتكابِ القبائِحِ؛ مخافةَ أنْ تَشْهَدَ أعضاؤكُم عليكُمْ، ولا تُحاذِرونَ مِنْ ذلكَ، بلْ كنتُمْ تُجاهِرونَ اللهَ بالكُفرِ، والمعاصي، ولا تُبالونَ منه في زَعْمِكُم؛ لأنَّكم كنتُم تَعْتَقِدونَ أنَّه لا يَعْلَمُ جميعَ أفعالِكُم.

ولِذا قال: ﴿وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ﴾ بإقدامِكُم على المعاصي ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ فلذلِكَ صَدَرَ منكُمْ ما صَدَرَ.

وهذا الظَّنُّ الفاسِدُ، وهوَ اعتقادُهُم أنَّ اللهَ لا يعلَمُ كثيرًا ممَّا يعملونَ؛ صارَ هو سَبَب هلاكِهِمْ، وشَقائِهم؛ ولِهذا قال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ فهذا الظَّنُّ السَّيِّءُ حيثُ ظننتُم بِهِ ما لا يَليقُ بجَلالِهِ ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي: أهلَكَكُم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ لأنفُسِهم، وأهليهِمْ؛ بسَبَبِ الأعمالِ التي أوجبَها لكُمْ ظنُّكم القَبيحُ بربِّكُمْ، فحقَّتْ عليكُمْ كلمَةُ العِقابِ، والشَّقاءِ، ووَجَبَ عليكُمُ الخُلودُ الدَّائِمُ في العَذابِ الذي لا يُفَتَّرُ عنهُمْ ساعَةً[١].

وفيهِ تَنْبيهٌ على: أنَّ المُؤمنَ يَنبَغي أنْ يتحقَّقَ أنَّه لا يَمُرُّ عليهِ حالٌ، إلَّا وعليهِ رَقيبٌ مِنَ اللهِ تعالى[٢].

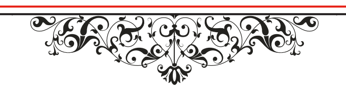
---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٧٢)، تفسير السعدي (ص٧٤٧).

(٢) إرشاد الساري للقسطلاني (٧/ ٣٢٩).



الحديث الثامن والعشرون



عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«مِفْتاحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لا يَعْلَمُها إلا اللَّهُ: لا يَعْلَمُ أَحَدٌ ما يَكونُ في غَدٍ، وَلا يَعْلَمُ أَحَدٌ ما يَكونُ في الأَرْحامِ، وَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدًا، وَما تَدْري نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَموتُ، وَما يَدْري أَحَدٌ مَتَى يَجيءُ المَطَرُ»[1].

وفي روايةٍ: **«مَفاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لا يَعْلَمُها إلا اللَّهُ: لا يَعْلَمُ ما في غَدٍ إلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ ما تَغيضُ الأَرْحامُ إلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتي المَطَرُ أَحَدٌ إلا اللَّهُ، وَلا تَدْري نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَموتُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى تَقومُ السَّاعَةُ إلا اللَّهُ»**[2].

وفي روايةٍ: **«مَفاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، ثُمَّ قرأَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤]»**[3].

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٩).

(٢) رواه البخاري (٤٦٩٧).

(٣) رواه البخاري (٤٦٢٧، ٤٧٧٨).



اشتَمَلَ هذا الحديثُ على أصلٍ عظيمٍ مِنْ أصولِ الإيمانِ، وثوابتِ العقيدةِ، وهو أنَّ الغَيْبَ لا يَعْلَمُه إلا اللهُ تعالى، وعِلمُ الغَيبِ مِنَ العِلمِ الذي استأثَرَ اللهُ تعالى بهِ لنفسِهِ، وبيَدِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَه خزائِنُه، والطُّرُقُ الموصِلةُ إليهِ، لا يَمْلِكُها إلَّا هوَ، ولا يُطْلِعُ عليها إلَّا مَنْ شاءَ مِنْ رُسُلِه.

فلا يَعْلَمُ الغَيبَ أحدٌ إلَّا اللهُ، لا مَلَكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرسَلٌ، فَضْلًا عمَّن هوَ دونَهما.

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: ٢٦]، ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقد قال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنْ نفسِه، فيما أخبرَ اللهُ عنه: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال اللهُ تعالَى لِنبيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقالتِ الجِنُّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠].

وقال اللهُ عنهُمْ في قصَّةِ موتِ سليمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

ولِذا، علَّمَنا النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ نَستَخيرَ اللهَ تعالى علاَّمَ الغُيوبِ في الأمورِ المُستَقبليَّةِ؛ فقال: «**إذا هَمَّ أحَدُكُمْ بالأمْرِ؛ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَريضَةِ،**

ثُمَّ ليَقُلْ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْــتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيوبِ...**» الحديثَ[1].

ويَجِبُ على كلِّ مُســلِمٍ أنْ يؤمِنَ بهذا الأصلِ، ويوقِنَ به، فَمَنِ اعتقدَ، أو ادَّعَى أنَّ غيرَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعْلَمُ الغَيْبَ؛ فقد كفَرَ، وكذَبَ وضَلَّ ضلالًا مُبينًا.

كمَنْ يَعتَقِد ذلكَ في السَّحَرةِ، والكَهَنةِ، والعَرَّافينَ، والمنَجِّمينَ، وكاعتقادِ بعضِ الطوائِفِ في أئمَّتِهم، وغُلاةِ الصوفيَّةِ في مَشايخِهِم، وأوليائِهم، والاعتقادِ في الجنِّ.

يقولُ الشَّــيخُ ابنُ عُثَيْمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنِ ادَّعَى عِلمَ الغيبِ، فهوَ كافِرٌ، ومَنْ صدَّقَ مَن يدَّعي علْمَ الغَيــبِ، فإنَّه كافِرٌ أيْضًا؛ لقولِه تعــالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]؛ فــلا يَعْلَمُ غَيْبَ السَّــماواتِ، والأرضِ، إلا اللهُ وحدَهُ.

وهؤُلاءِ الذينَ يدَّعونَ أنَّهم يَعْلَمونَ الغَيْبَ في المُستقبَلِ؛ كلُّ هذا مِنَ الكَهانةِ.

وقد ثَبَتَ عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعينَ لَيْلَةً**»[2].

فــإنْ صدَّقه فإنَّه يكونُ كافرًا؛ لأنَّه إذا صدَّقَه بعِلْمِ الغيبِ، فقد كذَّبَ قولَه تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]»[3].

وفي الحديــثِ: «**مَنْ أَتَى كاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِما يَقولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِما أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[4].

---

(١) رواه البخاري (١١٦٦).

(٢) رواه مسلم (٢٢٣٠).

(٣) فتاوى ابن عثيمين (١/ ٢٠٢).

(٤) رواه أبو داود (٣٩٠٤)، والإمام أحمد (٩٥٣٢) وغيرهما، وصحَّحه ابنُ حجر، والألباني.

والعــرَّافُ هوَ: الذي يَســتَدِلُّ على معرِفَةِ الأمــورِ بمقدّماتٍ يَســتدِلُّ بها على المَــسروقِ، ومكانِ الضَّالَّةِ، ونحوِها، فهوَ أعمُّ مِنَ الكاهِنِ؛ لأنه يَشْــمَلُ الكاهِنَ، وغيرَه، فهُما مِنْ بابِ العامِّ، والخاصِّ.

وقيلَ: العــرَّاف هوَ: الذي يُخبِرُ عــمَّا في الضَّميرِ، والكاهِنُ هــو الذي يُخْبِر عنِ المَغيَّبات في المُستقبَلِ(١).

وقولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَفاتِحُ الغَيْب خَمْسٌ، لا يَعْلَمُها إلا الله»:**

«**مفاتِحُ الغَيْبِ**» **أي**: خزائِنُ الغَيْبِ، و«مفاتِحُ»: جَمْع «مِفْتَح»، وهوَ المِفتاحُ الذي يُفتَحُ بِهِ، وهوَ عِبارةٌ عنْ كلِّ ما يَحِلُّ مُغلَقًا، كالقُفْلِ على البَيْتِ.

و«مَفاتيحُ»: جَمْعُ «مِفتاح».

فشَبَّه الأمورَ المُغَيَّبَةَ عنِ الناسِ بالمَتاعِ النَّفيسِ الذي يُدَّخَرُ بالمَخازِنِ والخَزائنِ المُستَوْثَق عليها بأقفالٍ، بحيثُ لا يَعْلَمُ ما فيها إلَّا الذي بيَدِه مفاتِحُها.

فلا يَعْلَمُ الغَيب إلَّا مَنْ بيَدِه مَفاتِحُ أقفالِه، وهوَ اللهُ(٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ويقولُ الشَّيخُ ابنُ عُثَيْمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ **-في بيانِ وَجْهِ كَوْنِ هذِهِ الخَمْسِ مَفاتِحَ-:**

«السَّاعةُ: مِفتاحُ الحياةِ الآخِرَةِ.

نزولُ الغَيْثِ: مِفتاحُ حياةِ الأرضِ بالنَّباتِ.

ما في الأرحامِ: مِفتاحُ الوُجودِ في الحياةِ.

عملُ الغَدِ: مِفتاحُ عملِ المُستقبَلِ.

---

(١) القول المفيد (١/ ٥٥٢).

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٢٨٢)، التفسير الوسيط للواحدي (٨/ ١٨٨)، تفسير القرطبي (٧/ ١)، التحرير والتنوير (٧/ ٢٧٠).

عِلْمُ مكانِ المَوتِ: مِفتاحُ الانتقالِ مِنَ الدُّنيا إلى الآخِرَةِ.

فلِهذا صارَتْ هذِهِ الخَمْسُ مفاتِحَ»[١].

و«**الغَيبُ**»: كلُّ ما غابَ عن عِلْمِ الناسِ، بحيثُ لا سبيلَ لهُم إلى عِلْمِه، كالملائكَةِ، والجِنِّ، ومواقيتِ الأشياءِ المُستقبليَّةِ، ونَحْوِ ذلكَ.

والمعنى: أنَّ الله تعالى عِندَه عِلْمُ الغيبِ، وبيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحْدَه خزائنُهُ، والطُّرُق الموصِلةُ إليه، لا يَمْلِكُها إلَّا هوَ، ولا يُطْلِعُ عليها إلَّا مَنْ شاءَ مِنْ رُسُلِه[٢].

والغَيْبُ نوعانِ: واقعٌ، ومُستقبَلٌ.

فغَيْبُ الواقِع نِسْبيٌّ، يكونُ لشخصٍ معلومًا، ولآخَرَ مجهولًا.

وغَيبُ المُستقَبلِ حقيقيٌّ، لا يكونُ مَعلومًا لأحَدٍ إلَّا اللهُ وحْدَه، أو مَن أطْلَعَه عليهِ مِنَ الرُّسُلِ، ومَنِ ادَّعى عِلْمَه فهوَ كافِرٌ؛ لأنَّه مكذِّبٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولرسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣].

وقولُهُ: «خَمْسٌ» لا يُفيدُ حَصْرَ عِلْمِ الغَيبِ في هذِهِ الخَمْسِ، لكن هذه أُمَّهاتُها، وذُكِرَت لحاجَةِ الناسِ إلى مَعْرِفةِ اختِصاصِ اللهِ بعِلْمِها[٤].

بدليلِ أنَّه ذُكِرَ في بعضِ الرِّواياتِ: «مجيءَ المَطَرِ» ضِمْنَ «الخَمْس»، ولَمْ يَذكُر فيها: «عِلْمَ الساعة».

«وهذا ممَّا يدُلُّ على أنَّ عِلْمَ اللهِ الذي استأثَرَ بهِ دونَ خَلْقِه، لم يَنْحَصِرْ في خَمْسٍ،

---

(١) شرح الواسطية (١/ ١٩٥)، جلسات رمضانيَّة (صوتية)..

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٢٨٢)، التفسير الوسيط للواحدي (٨/ ١٨٨)، تفسير القرطبي (٧/ ١)، التحرير والتنوير (٧/ ٢٧٠).

(٣) شرح ثلاثة الأصول لابن عُثَيمين (ص١٥٣).

(٤) فتح الباري لابن رجب (٩/ ٢٦٨)، عمدة القاري للعيني (٧/ ٦١)، إرشاد الساري للقسطلاني (٢/ ٢٥٩).

بـل هوَ أكثرُ مِنْ ذلكَ، مِثل: عِلْمِه بعَـدَدِ خَلْقِه، كما قال: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومِثل: استِئْثارِه بعِلْمِه بذاتِه، وصفاتِه، وأسمائِه، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠].

وفي الحَديثِ: «**أَسألُكَ بكُلِّ اسْمٍ هوَ لكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَو أنزَلْتَه في كِتابِكَ، أَو عَلَّمْتَه أحدًا مِن خَلْقِكَ، أَو اسْتأثَرْتَ بهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِندَك**»[1][2].

وهذِه الخَمْسُ جاءَ تفسيرُها -كما في بعضِ الرِّواياتِ- في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

فهذِه مفاتيحُ الغَيْبُ التي استأْثَرَ اللهُ تعالى بعِلْمِها، فلا يَعْلَمُها أحدٌ إلَّا بَعْدَ إعلامِه تعالى بها:

١- **فعِلْمُ وقتِ السَّاعةِ** ممَّا اختصَّ اللهُ بِهِ نفسَه، ولم يُطْلِع عليهِ غَيْرَه، فلا يَعْلَمُه نبيٌّ مُرْسَلٌ، ولا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ.

كما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا[3] لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ[4] فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ﴾

[الأعراف: ١٨٧].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤٣١٨)، وصحَّحه الألباني.

(٢) فتح الباري لابن رجب (٩/ ٢٦٨)، بتصرُّف.

(٣) يُظْهِرُها ويكشِفُها، أو: يأتي بها.

(٤) ثقُل عِلْمُها وخَفيَ أمرُها.

ولَمَّا سألَ النبيَّ ﷺ جِبريلُ، في حديثِ جِبريلَ المَشْهورِ: «**فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قال: ما المسئولُ عَنْها بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»[1].

٢- **وإنـزالُ الغَيْثِ لا يَعْلَمُه إلَّا اللهُ**، ولكِنْ إذا أمرَ بِهِ؛ عَلِمَتْه الملائكةُ الموَكَّلونَ بذلكَ، ومَن شاءَ اللهُ مِن خَلْقِه.

٣- **ولا يَعْلَـمُ ما في الأرحـامِ، مِمَّا يُريدُ أنْ يَخْلُقَه اللهُ سِـواهُ**، قَبْلَ أنْ يأمُرَ مَلَكَ الأرحامِ بتخليقِه، وكتابَتِه، ولكِنْ إذا أمَرَ بكَوْنِه ذَكَرًا، أو أُنْثَى، أو شـقيًّا، أو سَعيدًا؛ عَلِمَ الملائكةُ الموَكَّلون بذلكَ، ومَن شاءَ اللهُ مِنْ خَلْقِه.

٤- **ولا تَدْري نفسٌ ماذا تَكْسِبُ غدًا**، في دُنياها، وأُخراها.

٥- ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٤٣]، في بَلَدِهـا، أو غـيرِه مِنْ أيِّ بلادِ اللهِ كانَ، لا عِلْمَ لأحدٍ بذلكَ[2].

وقولُهُ ﷺ: «**لا يَعْلَمُ أَحَدٌ ما يكونُ في غَدٍ**»:

يعني: مِن خَيْرٍ، أو شَرٍّ، فلا يَعْلَم أحدٌ ما يَنْطَوي عليهِ الغَدُ مِنْ خَيْرٍ، أو شَرٍّ، ولو كانَ نبيًّا، إلا بواسِطَةِ الوحي المُنَزَّلِ عليهِ[3].

وهذا كما قالتْ أمُّ المؤمنينَ عائشَـةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «مَـنْ زَعَمَ أَنَّ محمدًا ﷺ **يُخْبِرُ** بِما يَكونُ في غَدٍ؛ فَقَـدْ أَعْظَمَ على الله الفِرْيَةَ، واللهُ يقولُ: **﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾** [النمل: ٦٥]»[4].

ولَمَّا دخَلَ النبيُّ ﷺ عـلى الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا غداةَ بُنِيَ عليها، وكانَ هناكَ جوَيْرياتٌ يَضْرِبْنَ بِالـدُّفِّ، يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبائِهِنَّ يَـوْمَ بَدْرٍ، حَتَّى قالتْ

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٢)، فتح الباري لابن رجب (٩/ ٢٧٠).

(٣) فيض القدير (٥/ ٥٢٥)، منار القاري لحمزة قاسم (٢/ ٢٩١).

(٤) رواه مسلم (٢٥٩).

جاريةٌ: «وَفينا نَبــيٌّ يَعْلَمُ ما في غَدٍ»، فَقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَقولي هَكَذا، وَقولي ما كُنْتِ تَقولينَ**»[(١)].

فمَنَعَها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هذا القولِ الباطِلِ؛ «لأنَّه لا يعلمُ الغيبَ إلا اللهُ، وإنَّما يَعلَمُ الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الغَيبِ ما أخْبَرَه»[(٢)].

وقولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَلا يَعْلَمُ أَحَدٌ مــا يَكونُ في الأَرْحامِ»، وفي روايةٍ:** «**وَلا يَعْلَمُ ما تَغيضُ الأَرْحامُ إِلَّا اللهُ**»:

وهذا كما قــال تعــالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٨-٩].

فــاللهُ تعالى مُحيطٌ عِلْمُه بــما تَحْمِلُه الحَوامِلُ مِنْ كلِّ إنــاثِ الحَيواناتِ، كما قال: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤].

فيَعْلَم ما حَمَلَت مِنْ ذِكَرٍ، أو أنثَى، أو حَسَــنٍ، أو قَبيحٍ، أو شَقيٍّ، أو سعيدٍ، أو طويلِ العُمُرِ، أو قصيرِهِ، وكيفَ رِزقُه، سَــويِّ الخَلْقِ، أم ناقِصه، واحِدًا، أوِ اثنَيْن، أو أكثَر، كما قال: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢].

وكما في الحديثِ: «**وَكَّلَ اللهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذا أَرادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَها، قال: أَيْ رَبِّ، أَذَكَرٌ، أَمْ أُنْثَى؟ أَشَقيٌّ، أَمْ سَعيدٌ؟ فَما الرِّزْقُ؟ فَما الأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ في بَطْنِ أُمِّهِ**»[(٣)].

وقولُــهُ: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ [الرعد: ٨] **أي:** تَنقُــصُ ممَّا فيهــا، إمَّا أن يَهْلِكَ الحَمْلُ، أو يتضاءَلَ، أو يَضْمَحِلَّ.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٠١).

(٢) مرقاة المفاتيح (٥/ ٢٠٦٥).

(٣) رواه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٦٤٦).

﴿وَمَا تَزۡدَادُ﴾ [الرعد: ٨] الأرْحامُ، وتكبُرُ الأجِنَّةُ التي فيها، أو يتِمُّ خَلْقُها.

وقيلَ: «الغَيْضُ»: نُقصانُها عن تِسْعةِ أشهُرٍ، و«الزِّيادةُ»: زيادتُها عليها.

وقيلَ: «النُّقصانُ»: السّقْطُ، و«الزِّيادةُ»: تمامُ الخَلْقِ.

﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]: فلا يَتقدَّمُ عليهِ، ولا يَتأخَّرُ، ولا يَزيدُ، ولا يَنقُصُ، إلَّا بما تَقْتَضيهِ حِكْمَتُه، وعِلْمُه [١] جَلَّ وَعَلَا.

فإنْ قيلَ: الطبُّ الحديثُ الآنَ يَعْلَمُ مـا في الأرحامِ، ويَعْلَمُ نَوْعَ الجَنينِ، هل هوَ ذَكَرٌ، أو أنثَى، بواسِطَةِ الأشعَّةِ؟

فالجَوابُ:

- **أوَّلًا:** عِلْـمُ اللهِ تعالى بما في الأرحامِ أعَمُّ مِنْ مُجَرَّدِ عِلْمِ كونِه ذكَرًا، أو أُنثَى؛ ولِذا لمْ يُذْكَرْ في الآيةِ، ولا في الحَديثِ، مُتعلَّقُ العِلْمِ، فلَمْ يقُل: «يَعْلَم كذا، وكذا».

فاللهُ تعالى يَعْلَمُ هلَ هوَ حَسَنٌ، أو قَبيحٌ؟ شقيٌّ، أو سعيدٌ؟ رِزقَه، أجلَه، هلْ سيخرُجُ حيًّا، أو ميِّتًا؟ فهَلْ هذا في عِلْمِ البَشَرِ؟! وهلْ يدَّعيهِ أحَدٌ؟!

- **ثانيًا:** الطبُّ الحديثُ، ووسـائلُ التَّقنيةِ، لا يُمكِنُها العِلْمُ بنَوعِ الجَنينِ إلَّا بعدَ أنْ يَقْضيَ اللهُ خَلْقَه، ويَصيرَ ذَكَرًا، أو أُنثَى، بأمرِ اللهِ، أي: بعدَ التَّخليقِ، وتكوينِ الجنينِ، وظُهورِ نَوْعِه، وإذا خُلِّقَ صارَ مِنْ عالَمِ الشَّهادَةِ لا مِنْ عالَمِ الغَيبِ، أمَّا قَبْلَ ذلكَ: فلا يعلمونَ شيئًا[٢].

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٢٩٧)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٥)، تفسير السعدي (ص٤١٤)، فيض القدير (٥/ ٥٢٥).

(٢) شرح الواسطية لابن عثيمين (١/ ١٩٦)، جلسات رمضانية له (صوتية)، شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٤١).

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدًا»:**

يعني: ماذا تَكْسِبُ في المُستقبلِ، فلا تَدْري نفسٌ ماذا تَكْسِبُ، هل تَكْسِبُ خيرًا، أو شرًّا؟ أو تموتُ قَبْلَ غدٍ؟ أو يأتي غدٌ وفيهِ ما يمنَعُ العملَ؟ وما أشبَهَ ذلِكَ.

فالإنسانُ لا يَعْلَم ماذا يَكْسِبُ غدًا عِلْمًا يقينيًّا، ولكنَّه قد يَتوقَّعُ، وقَدْ تُخْلَفُ الأمورُ[1].

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَما تَدْري نَفْسٌ بِأيِّ أَرْضٍ تَموتُ»:**

فلا يَدْري أيُّ إنسانٍ، وأيُّ نَفْسٍ، هل يَموتُ بأرضِه، أو بأرضٍ بعيدةٍ عنْها، أو قريبةٍ مِنْها، أو يموتُ في البَحْرِ، أو في الجَوِّ؟ لا يَدْري، ولا يَعْلَمُ ذلكَ إلَّا اللهُ.

تَجِدُ الإنسانَ يولَد في بلدٍ، ويعيشُ فيها، ولا يَطرَأُ على بالِه أنْ يَنتقلَ عنْها، ثُمَّ إذا أرادَ اللهُ أن يَقْبِضَه في أرضٍ؛ جعلَ له حاجةً في هذِهِ الأرضِ، فيَموت فيها وهوَ لا يَدْري أنَّه سيموتُ فيها!

بلِ الحيوانُ كالبَعيرِ، ينشَأُ في جِهةٍ مِنْ جِهات الأرضِ، ثُمَّ يَكبُرُ، ثُمَّ يُسْتَعملُ للرُّكوبِ، أو غيرِ الرُّكوبِ، ثُمَّ يُذْبَحُ في بِلادٍ بعيدَةٍ عنْ بِلادِهِ، أو يَموتُ في بِلادٍ بعيدَةٍ عنْ بِلادِهِ.

وإذا كانَ الإنسانُ، والنَّفْسُ عُمومًا، لا يَدْري مَكانَ المَوتِ، ولا بِأيِّ أرضٍ يموتُ، معَ أنَّه يُمكِنُهُ الذَّهابُ يمينًا، وشِمالًا، والانتقالُ مِنْ أرضٍ إلى أرضٍ؛ فزمانُ المَوتِ مِنْ بابِ أَوْلَى، فلا يَدْري أيضًا متَى يموتُ وفي أيِّ يومٍ يموتُ.

فجَهالةُ الزَّمانِ أشَدُّ مِنْ جهالةِ المَكانِ؛ أنَّ الإنسانَ يُمكِنُه أن يَنتقِلَ، أو لا ينتقلَ، لكِنَّ الزمانَ يمُرُّ رَغْمًا عنه؛ فلا يَعْلَمُ أحدٌ متَى يموتُ، ولا بأيِّ أرضٍ يَموتُ[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٤٢).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٤٢)، جلسات رمضانيَّة.

وقــدْ قيلَ: إنَّ الخَليفَةَ المَنْصــورَ اهتَمَّ بمعرفَةِ مُدَّةِ عُمُرِه، فــرَأَى في مَنامِهِ كأنَّ خيــالًا أخرَجَ يدَه مِنَ البَحرِ، وأشــارَ إليهِ بالأصابعِ الخَمْسِ، فاســتَفْتَى العُلَماءَ في ذلكَ، فتأوَّلوها بخَمْسِ سِنينَ، وبخَمْسَةِ أشهُرٍ، وبِغيرِ ذلكَ.

حتَّى قال أبو حنيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تأويلُهــا: أنَّ مفاتِحَ الغيبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُها إلَّا اللهُ، وأنَّ ما طَلَبْتَ مَعْرِفَتَه لا سبيلَ لكَ إليهِ»[١].

وقولُــهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَما يَدْري أَحَدٌ مَتَى يَجيءُ المَطَــرُ»، وفي روايةٍ: «وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَأْتي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ»:

الذي يُنَزِّلُ المَطَرَ هوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يعلَمُ متى يأتي المَطَرُ في اللَّيلِ، أوِ النَّهارِ، أو في أيِّ ساعَةٍ، إلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا مِنْ عِلْمِ الغَيبِ.

لكِنَّ مَعرفةَ أحوالِ الطَّقسِ، والبحثَ عنها، وأوقاتِ الكُســوفِ، والخُســوفِ، ونُزولِ الأمطارِ، وتوقُّعَ ذلكَ، لا يدخُلُ في التَّنجيمِ، أو ادِّعاء عِلْمِ الغَيْبِ؛ لأنَّها تُبنَى على أمورٍ حِسِّيَّةٍ، وتجارِبَ، ونَظَرٍ في سُــنَنِ اللهِ الكونيَّةِ، ثمَّ هيَ أمورٌ ظنيَّةٌ لا يقينيَّةٌ، فتُصيبُ تارةً، وتُخطئُ تارةً، وغالِبًا تكونُ تقديراتٍ على المَدَى القريبِ، فلا يَتوقَّعونَ أمطارًا تَحْدُثُ بعدَ سَنَواتٍ، أو بعدَ أشْهُرٍ[٢].

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقومُ السَّاعَةُ إلا اللّهُ»:

كَثيرٌ مِنَ الناسِ صارَ الشُّغلُ الشَّاغلُ لهُمْ: نهايَة العالَمِ اقترَبَتْ، القيامةُ ستقومُ يَومَ كذا، ســنةَ كذا، أو كذا، وأُلِّفت في هذا مُؤلَّفاتٌ، عربيَّةٌ، وأجنبيَّةٌ، وتورَّطَتْ في هذا وكالاتُ أنباءٍ عالميَّةٌ!

---

(١) الكشَّاف للزمخشري (٣/ ٥٠٥).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٦٣٤، ٦٣٥، ٨/ ٣٢٣)، القول المفيد (١/ ٥٣١)، شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٤١)، جلسات رمضانيَّة لابن عثيمين.

فمَثَلًا: في سنة ٢٠١٢م، الملايينُ يترقَّبون نهايةَ العالَمِ في ٢١ ديسمبر ٢٠١٢م، وشهدتْ خَمسُ دولٍ بأمريكا الجنوبيَّةِ احتفالاتٍ غيرَ مَسبوقةٍ، ابتداءً مِنْ يومِ الجُمُعةِ، ولمدةِ ثلاثةِ أيَّامٍ؛ ارتقابًا لإشاعةِ نهايةِ العالَمِ يومَ الجُمُعة ٢١ ديسمبر ٢٠١٢م، مُعتقِدينَ أنَّه سَيَرتَطِمُ بالأرضِ جِسْمٌ ضخْمٌ، سيَقْلِب الأرضَ رَأْسًا على عقِبٍ!

واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٤]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا[1] لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ[2] فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي هذا الحَديثِ: **«وَلا يَعْلَمُ مَتَى تَقومُ السَّاعَةُ إلا اللّهُ».**

فمَنْ زعَمَ في قديمٍ، أو حديثٍ، أنَّ السَّاعةَ ستقومُ يَوْمَ كذا، أو سنةَ كذا، أو أنَّ نِهايةَ العالَمِ اقترَبَت؛ فهوَ كاذِبٌ، مُفترٍ على اللهِ الكَذِبَ، مُتقوِّلٌ على اللهِ تعالى بغَيْرِ عِلْمٍ، ولا بُرهانٍ.

وللسَّاعةِ أشراطٌ، لا تقومُ السَّاعةُ إلَّا بعدَ وُقوعِها، وَكثيرٌ مِنها لَمْ يَقَعْ.

والمَطلوبُ مِنَ المُسلمِ أنْ يَعمَلَ ليومِ القيامَةِ، ولا يَنشَغِلَ بمَوْعِدِها، ولا يمنَعه قُربُ قيامِ السَّاعةِ، أوِ الخَوْفُ مِنْ قيامِها، مِنَ العَمَلِ، والتَّكسُّبِ، والسَّعي على عيالِهِ، والعملِ لهذا الدِّينِ؛ ولِذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

---

(١) يُظْهِرُها ويكشِفُها، أو: يأتي بها.

(٢) ثقُل عِلْمُها وخَفيَ أمرُها.

ولَمَّا سألَ رجلٌ رسولَ اللهِ ﷺ عنِ السَّاعةِ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قال: «**وَماذا أَعْدَدْتَ لَهَا**»[١].

وعنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنْ قامَتِ السَّاعَةُ وَبيَدِ أَحَدِكُمْ فَسيلَةٌ**[٢]**، فَإِنْ اسْتَطاعَ أَنْ لا يَقومَ حَتَّى يَغْرِسَها، فَلْيَفْعَلْ**»[٣].



(١) رواه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

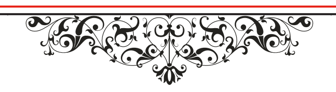
(٢) نخلة صغيرة.

(٣) رواه الإمام أحمد (١٢٩٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩) ومحقِّقو المسند.





الحديث التاسع والعشرون



عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«إنِّي أرَى ما لا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ ما لا تَسْمَعونَ، أَطَّتِ السَّماءُ، وَحُقَّ لَها أَنْ تَئِطَّ، ما فيها مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصابِعَ، إلا وَمَلَكٌ واضِعٌ جَبْهَتَهُ ساجِدًا للّهِ»[(١)].

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَطَّتِ السَّماءُ، وَحُقَّ لَها أَنْ تَئِطَّ»:

أي: صاحَتْ وصوَّتَتْ مِن ثِقَل ما عليها مِنَ الملائكةِ، وحقيقٌ بها، ويَنبغي لها أنْ تفعلَ؛ لكثرةِ ما فيها مِنَ الملائكةِ السَّاجِدينَ العابِدينَ الخاضِعينَ لله تعالى، وعَظَمَتِه، فهُمْ مع كَثْرَتِهم لا يَفتُرون عنْ عِبادَةِ اللهِ، ولا يَسأَمونَ[(٢)].

فالسَّماءُ مَسْكَنُ الملائكةِ الذينَ لا يَعْصونَ اللهَ تعالى طَرْفةَ عَيْنٍ: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وهُمْ في عبادةٍ دائمَةٍ، خاشِعينَ للهِ، مُعظِّمين له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]،

(١) رواه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٣٨٨٣)، وصححه، وصححه ابنُ العربي في عارضة الأحوذي (٥/ ١٥٢)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٧٢٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٦/ ٦)، مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٣٥٠).

وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ (١) ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ (٢)﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

فأخبرَنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه ما مِنْ مَوْضِعٍ في السَّماواتِ السَّبْعِ، إلَّا وهوَ مَشغولٌ بالملائكةِ، يَتَعبَّدون لربِّهِمْ؛ تعظيمًا لجلالِه، وأداءً لبعضِ حقِّه، وانقيادًا لأمرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

«وَهُمْ في صُنوفٍ مِنَ العِبادَةِ، مِنْهُمْ: مَنْ هو قائِمٌ أَبدًا، وَمِنْهُمْ: مَنْ هوَ راكِعٌ أَبدًا، وَمِنْهُمْ: مَنْ هوَ ساجِدٌ أَبدًا، وَمِنْهُمْ: مَنْ هوَ في صُنوفٍ أُخَرَ، اللهُ أَعْلَمُ بِها.

وَهُمْ دائِمونَ في عِبادَتِهِمْ، وَتَسْبيحِهِمْ، وَأَذْكارِهِمْ، وَأَعْمالِهِمُ الَّتي أَمَرَهُمُ اللهُ بِها، وَلَهُمْ مَنازِلُ عِنْدَ رَبِّهِمْ، كَما قالتِ الملائكةُ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤-١٦٦]»(٣).

ومعنى قولِهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الصافات: ١٦٤] **أي:** ما مِنَّا مَلَكٌ إلَّا له مَوْضِعٌ مَخْصوصٌ في السَّماواتِ، ومقاماتِ العِبادَةِ، لا يتجاوَزُه، ولا يتعدَّاهُ.

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥] **أي:** نَقِفُ صُفوفًا في الطَّاعَةِ، فصُفوفُ الملائكةِ في السَّماءِ للعِبادةِ كصُفوفِ الناسِ في الأرضِ، كما قال عنهُمْ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ [الصافات: ١](٤).

وفي الحديثِ: «**أَلَا تَصُفُّونَ كَما تَصُفُّ المَلائِكَةُ عِنْدَ رَبِّها؟**»، فقالوا: يا رَسولَ

(١) لا يتعَبون، ولا يملُّون.

(٢) لا يَضْعُفون.

(٣) البداية والنهاية (١/ ٩٦)، بتصرُّف يسير.

(٤) تفسير البغوي (٧/ ٦٣)، تفسير القرطبي (١٥/ ١٣٧)، تفسير ابن كثير (٧/ ٤٣).

اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ المَلائِكَةُ عِنْدَ رَبِّها؟ قال: «**يُتِمُّونَ الصُّفوفَ الأوَلَ، وَيَتَراصُّونَ في الصَّفِّ**»(١).

وقال ابنُ مَسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إنَّ مِنَ السَّمَواتِ لَسَماءً ما فيها مَوْضِعُ شِبْرٍ، إلَّا وَعَلَيْهِ جَبْهَةُ مَلَكٍ، أَوْ قَدَمُهُ، قائِمًا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ**﴾(٢) [الصافات: ١٦٥-١٦٦].

وقال ابنُ عبَّاسٍ: «ما في السَّمواتِ مَوْضِعُ شِبْرٍ، إلَّا وعليه مَلَكٌ يُصَلِّي، أو يُسَبِّحُ»(٣).

وفي هذا الحَديثِ بيانٌ واضِحٌ لكمالِ عَظَمةِ اللهِ تعالى، وجلالِهِ، وكمالِ تعظيمِ الملائكَةِ له سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.



---

(١) رواه مسلم (٤٣٠).

(٢) تفسيرُ الطبريّ (١٩/ ٦٥٢)، تفسيرُ ابن كثير (٧/ ٣٩).

(٣) تفسير البغوي (٧/ ٦٣).





الحديث الثلاثون



عَنْ عَوْفِ بْنِ مالِكٍ الأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قُمْتُ مَعَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً، فَقامَ فَقَرَأَ سورَةَ البَقَرَةِ، لا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إلا وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذابٍ إلا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ.

قال: ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيامِهِ، يَقولُ في رُكوعِهِ: **«سُبْحانَ ذي الجَبَروتِ، والمَلَكوتِ، والكِبْرِياءِ، والعَظَمَةِ»**، ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ قِيامِهِ، ثُمَّ قال في سُجودِهِ مِثْلَ ذَلِكَ[1].

هذا الذِّكرُ العظيمُ مِنَ الأذكارِ المُشتَرَكةِ في الرُّكوعِ، والسُّجودِ، وقد ثبتَ في هذا الحديثِ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كرَّره كثيرًا جدًا، في الرُّكوعِ، وفي السُّجودِ، بمقدارِ قراءةِ سورَةِ البقرَةِ قراءةَ المُتدبِّرِ، الذي لا يمُرُّ بآيةِ رَحْمَةٍ إلا وقفَ وسَأَلَ، ولا يمُرُّ بآيةِ عذابٍ إلا وَقَفَ فتعوَّذَ.

فتأمَّلْ كيفَ كانَ طولُ رُكوعِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسُجودِهِ، وخُضوعُه، وتعظيمُه لربِّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) رواه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١٠٤٩، ١١٣٢)، وصحَّحه النووي في المجموع (٣/ ٤١٤)، والألباني في صحيح أبي داود، وحسَّنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٢/ ٧٤).

والأَصْلُ والأغلَبُ في الرُّكوعِ هوَ تَعْظيمُ اللهِ تعالى، والأصلُ والأغلبُ في السُّجودُ هوَ الاجتِهادُ في الدُّعاءِ؛ لِحديثِ: «**فَأَمَّا الرُّكوعُ: فَعَظِّموا فيهِ الرَّبَّ** عَزَّوَجَلَّ، **وَأَمَّا السُّجودُ: فاجْتَهِدوا في الدُّعاءِ؛ فَقَمِنٌ**[١] **أَنْ يُسْتَجابَ لَكُمْ**»[٢].

ولِذا يقولُ المُصلِّي في ركوعِهِ: «**سُبحانَ ربِّيَ العظيم**».

فنزَّهَ عَظمَتَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنْ حالِ العبدِ، وذلِّه، وخُضوعِه، وقابلَ تلكَ العَظَمَةَ بهذا الذُلِّ، والانحِناءِ، والخُضوعِ، قد انخَفَضَ، وطَأْطَأْ رأسَه، وطوَى ظَهْرَه، وربُّه فوقَه يَرَى خُضوعَه، وذُلَّه، ويَسْمَعُ كلامَه، فهوَ رُكنُ تَعظيمٍ، وإجلالٍ[٣].

وكانَ النبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقولُ في الرُّكوعِ أيضًا: «**اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعي، وَبَصَري، وَمُخِّي، وَعَظْمي، وَعَصَبي**»[٤].

لكِن لا يمتَنِعُ الدُّعاءُ في الرُّكوعِ بما وَرَدَ، كما لا يمتَنِعُ التعظيمُ في السُّجودِ بما ورَدَ، لكِنْ يكونُ الغالِبُ في الرُّكوعِ هوَ التَّعظيمَ، والغالبُ في السُّجودِ هوَ الاجتِهادَ في الدُّعاءِ[٥].

وقد ثبَتَ عَنْ أمِّ المؤمنين عائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنَّها قالتْ: كانَ النَّبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقولُ في رُكوعِهِ، وَسُجودِهِ: «**سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي**»[٦].

وهذا دُعاءٌ كانَ يَدْعو به صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في رُكوعِه، معَ التَّسبيحِ.

---

(١) حقيق وجدير.

(٢) رواه مسلم (٤٧٩).

(٣) شفاء العليل لابن القيّم (ص٢٢٨)، الصلاة وحكم تاركها (ص١٤٥).

(٤) رواه مسلم (٧٧١).

(٥) إحكام الأحكام لابن دقيق العيد (١/ ٣١٥)، وفتح الباري (٢/ ٢٨١، ٣٠٠).

(٦) رواه البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤).

وعنها، أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يَقولُ في رُكوعِهِ، وَسُجودِهِ: «**سُبُّوحٌ**[١] **قُدُّوسٌ**[٢]**، رَبُّ المَلائِكَةِ، والرُّوحِ**»[٣].

وكانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ في سُجودِه أيضًا: «**اللهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهي لِلَّذي خَلَقَهُ، وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ، وَبَصَرَهُ، تَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقينَ**»[٤]. وهذا تعظيمٌ كانَ يقولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سُجودِهِ.

فالرُّكوعُ مَحَلُّ التَّعظيمِ، وهوَ والسُّجودُ حالتا ذُلٍّ، وخُضوعٍ، وانخِفاضٍ؛ ولِذا كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ فيهما: «**سُبْحانَ ذي الجَبَروتِ، والمَلَكوتِ، والكِبْرياءِ، والعَظَمَةِ**».

«**سُبحانَ**»: التَّسبيحُ: التَّنزيهُ، والتَّقديسُ، والتَّبرئةُ مِنَ النَّقائِصِ[٥].

أي: أُنَزِّهُ اللهَ عنْ كلِّ نقصٍ، وعَيْبٍ، وسوءٍ، وما لا يَليقُ بكمالِه، وجلالِه، كالجَهْلِ، والعَجْزِ، والتَّعَبِ، والإعياءِ.

«**الجَبَروت**»: مأخوذٌ مِنَ الجَبْرِ، والقَهْرِ، و«**المَلَكوت**»: مَأخوذٌ مِنَ «المُلك»، مِثل: الرَّهْبَةِ، والرَّهَبوتِ، والرَّحْمَةِ، والرَّحَموتِ.

وهيَ بمعنى واحِدٍ؛ فـ«المُلْكُ»، وَ«المَلَكوتُ» بمعنى واحِدٍ، و«الجَبْرُ» و«الجَبروتُ» بمعنى واحِدٍ، لكِن زيدَتِ الواوُ، والتاءُ؛ للمُبالغَةِ في الصِّفةِ.

فالمعنى: صاحِبُ الجَبْرِ والقَهْرِ العظيمِ، وصاحِبُ المُلْكِ العظيمِ، ظاهِرًا، وباطِنًا[٦].

---

(١) مُبرَّأ ومنزَّه من النقائص، والشَّريك، وما لا يليق.

(٢) مُبارك، أو: طاهر من كلِّ عيب.

(٣) رواه مسلم (٤٨٧).

(٤) رواه مسلم (٧٧١).

(٥) النهاية (٢/ ٣٣١)، ولسان العرب (٢/ ٤٧١).

(٦) تفسير الطبري (٩/ ٣٤٧)، النهاية لابن الأثير (١/ ٢٣٦، ٤/ ٣٥٩)، تفسير القرطبي (٧/ ٢٣، ٣٣٠)، تفسير ابن كثير (٦/ ٥٩٦)، مرقاة المفاتيح (٢/ ٧١٥).

فاللهُ تعالى هوَ الجبَّــارُ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

و«الجبَّار» لهُ ثلاثَةُ معانٍ، كلُّها داخلةٌ فيهِ: الرَّؤوفُ، القهَّارُ، العَليُّ:

١- بمعنى الرَّؤوفِ، فهوَ يَجْبُر الضَّعيفَ، والكَسيرَ، والمُصابَ، ويَجْبُر قُلوبَ المُحِبِّينَ له الخاضِعينَ لعَظَمَتِه، وجلالِه، بما يُفيضُ عليهِمْ مِنْ كراماتِه، وبرَكاتِه.

٢- بمعنى القهَّارِ لِكلِّ شَيءٍ، الذي دانَ لَهُ كلُّ شَيءٍ، وخضَعَ له كُلُّ شَيْءٍ.

٣- قال قَتادَةُ: «جَبَرَ خَلْقَهُ على ما يَشاءُ مِنْ أَمْرِهِ»[١].

٤- بمعنى العَليِّ الأعلى، فهوَ الأعلى على كلِّ شَيءٍ.

وقدْ يُرادُ بهِ معنًى رابعٌ، وهوَ: المُتكبِّرُ عن كُلِّ سوءٍ، ونقصٍ، وعنْ مُماثَلَةِ أحَدٍ، وعن أنْ يكونَ له كُفؤٌ، أو ضِدٌّ، أو سَميٌّ، أو شريكٌ، في خصائِصِه، وحُقوقِه[٢].

يَقولُ الإمامُ ابنُ القيِّم في «نونيَّته»:

وَكَذَلِكَ الجَبَّارُ مِنْ أَوْصافِهِ ... والجَبْرُ في أَوْصافِهِ نَوْعانِ

جَبْرُ الضَّعيفِ وَكُلِّ قَلْبٍ قَدْ غَدا ... ذا كَسْرَةٍ، فالجَبْرُ مِنْهُ دانِ

والثَّاني جَبْرُ القَهْرِ بِالعِزِّ الذي ... لا يَنْبَغي لِسِواهُ مِنْ إِنْسانِ

ولَهُ مُسَمًّى ثالثٌ وهْوَ العُـ ... ـلوُّ فلَيْسَ يَدْنو مِنْه مِنْ إنسانِ

وقال:

سُبْحانَ ذي الجَبَروتِ والمَلَكوتَ وال ... إِجْلالِ والإِكْرامِ والسُّبْحانِ

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٥٤).

(٢) شأن الدعاء للخطَّابي (ص٤٨)، شفاء العليل لابن القيِّم (ص١٢١)، تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص١٧٦).

والله تعالى هو المَلِكُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، **صاحِبُ المُلْك**: المَوصوفُ بصفاتِ العَظَمَةِ، والكِبْرياءِ، والقَهْرِ، والتدبيرِ، الذي له التَّصرُّفُ المُطْلَقُ، في الخَلْقِ، والأمرِ، والجزاءِ، والكلُّ في العالَمِ العُلويِّ، والسُّفليِّ، عبيدُه، ومماليكُه، ومُضطَّرونَ إليهِ، فهوَ الآمِر النَّاهي، المُعِزُّ، المُذِلُّ، يُصَرِّفُ أمورَ عبادِه كما يُحِبُّ، ويُقَلِّبُهم كما يشاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[1].

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: ١٢٠].

و«**الكِبْرياء**»: العَظَمَةُ والمُلكُ، والجَلالُ، والمَجْدُ، مِن «الكِبْر» بمعنى: العَظَمةِ.

وقيلَ: هي عبارةٌ عن كمالِ الذَّاتِ، وكمالِ الوُجودِ، ولا يوصَف بها إلَّا اللهُ تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧].

ومِنْ أسمائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «المتكبِّرُ»، و«الكبيرُ»؛ أي: العظيمُ ذو الكِبْرياءِ، وقيلَ: المُتعالي عن صِفاتِ الخَلْقِ، وقيلَ: المتكبِّرُ والمتنزِّهُ عنِ السُّوءِ، والنَّقصِ، والعُيوبِ[2].

و«**العَظَمة**»: معناها قريبٌ مِنَ «الكِبرياءِ»، لكنَّ الكِبْرياءَ أعلى؛ ولِذا جاءَ في

---

(١) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص٢٣٤).

(٢) النهاية (٤/ ١٤٠)، لسان العرب (٥/ ١٢٥)، المرقاة (٣/ ٢٤٧)، عون المعبود (٣/ ٨٩)، تفسير السعدي (ص٧٧٨، ٨٥٤).

الحديثِ: «الكِبْرياءُ رِدائـي، والعَظَمةُ إِزاري -وفي روايـةٍ: والعِزَّة إزاري-، فَمَنْ نازَعَني واحِدًا مِنْهُما أُلْقِهِ في النَّارِ»[1].

يقولُ شَـيخُ الإسـلامِ ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعَظَمةُ، والكِبْريـاءُ، مِن خصائِصِ الرُّبوبيَّـةِ، والكِبْرياءُ أعلى مِنَ العَظَمَةِ؛ ولِهذا جعلَها بمنزلَةِ الرِّداءِ، كما جعلَ العَظَمَةَ بمنزلَةِ الإزارِ»[2].



(١) رواه أبو داود (٤٠٩٠)، والإمام أحمد (٧٣٨٢)، وتقدم الكلام عليه.

(٢) العبوديَّة لابن تيميَّة (ص٩٩).



الحديث الحادي والثلاثون



عَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: **الحَمْدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْواتَ، لَقَدْ جاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشْكو زَوْجَها، فَكانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلامُها، فَأَنْزَلَ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ**﴾ [المجادلة: ١] **الآيَةَ**[١].

هذا رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ، كانَ شيخًا كبيرًا، اشتكَتْه زوجتُه، وشكَتَ حالَه، وحالَها، إلى اللهِ تعالى، وحاوَرَتْ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما جرَى بينَهُما، لَمَّا حرَّمَها على نفسِهِ بالظِّهارِ -وكانَ مِنْ طلاقِ أهلِ الجاهليَّةِ- بعدَ الصُّحبةِ الطويلَةِ، والأولادِ، وراجعَتِ الكلامَ معَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكرَّرَتْ، وأعادَتْ[٢].

وكانتْ أمُّ المؤمنينَ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في ناحيةِ البَيْتِ، والمَرأةُ تُكلِّمُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تقولُ: «**فكانَ يَخفَى عليَّ كلامُها**»، وفي روايةٍ: «**وما أسْمَعُ ما تَقولُ**»[٣].

لكِنَّ اللهَ سَميعٌ بَصيرٌ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سَمِعَ قولَها، وشكواها، ومُجادَلَتَها، مِنْ فوقِ

(١) أخرجه البخاري تعليقًا (٩/ ١١٧)، ووصله النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وصحَّحه: ابن تيميَّة، وابن الملقِّن، وابن حجر، والألباني.

(٢) تفسير البغوي (٨/ ٥٠)، تفسير السعدي (ص٨٤٣).

(٣) رواه ابن ماجه (١٨٨)، وأحمد (٢٤١٩٥).

سَبْعِ سَماواتٍ؛ ولذا قال في خِتامِ الآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]؛ فهوَ «سميعٌ لِما تُناجيهِ، وتتضرَّعُ إليهِ، بَصيرٌ بمَنْ يَشْكو إليهِ»[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾: لجميعِ الأصواتِ، في جميعِ الأوقاتِ، على تفنُّنِ الحاجاتِ.

﴿بَصِيرٌ﴾: يُبْصِرُ دَبيبَ النَّمْلةِ السَّوداءِ، على الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ، في اللَّيلةِ الظَّلْماءِ.

وهذا إخبارٌ عنْ كمالِ سَمْعِه، وبَصَرِه، وإحاطَتِهما بالأمورِ الدَّقيقَةِ، والجليلةِ.

وفي ضِمْنِ ذلك: الإشارةُ بأنَّ اللهَ تعالى سيُزيلُ شَكواها، ويَرْفَعُ بَلْواها؛ ولِهذا ذَكَرَ حُكْمَها، وحُكْمَ غيرِها، على وَجْهِ العُمومِ في الآياتِ التي بَعْدَها»[٢].

وصَدَقَ اللهُ تعالى إذْ يقولُ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

ولِذا قالتْ أمُّ المؤمنينَ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«الحَمْدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْواتَ» أي**: أدْرَكَ سَمْعُه الأصواتَ، وأحاطَ بها كلِّها، لا يفوتُه مِنْها شيءٌ وإن خَفيَ، ولا تختَلِفُ عليه أصواتُ الخَلْقِ، ولا تَشْتَبِهُ عليهِ، ولا يَشْغَلُه مِنْها سَمْعٌ عنْ سَمْعٍ، ولا تُغْلِطُه كثرةُ المَسائِلِ، والسَّائِلينَ[٣].

وقوْلُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذا يدُلُّ على أنَّ الصَّحابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ آمَنوا بالنُّصوصِ على ظاهِرِها الذي يتبادَرُ إلى الفَهْمِ، وأنَّ هذا هوَ الذي أرادَه اللهُ تعالى مِنْهُم، ومِنْ غيرِهِم مِنَ المُكلَّفينَ.

إذْ لَوْ كانَ هذا الذي آمَنوا بهِ، واعتَقَدوه خَطأً؛ لَمْ يُقَرُّوا عليهِ، ولَبُيِّنَ لَهُمُ الصَّوابُ،

---

(١) تفسير البغوي (٨/ ٥٠).

(٢) تفسير السعدي (ص٨٤٣)، بتصرُّف.

(٣) طريق الهجرتين (ص١٢٧)، شرح كتاب التوحيد للغُنيمان (١/ ١٨٩).

ولَمْ يأتِ عَنْ أحَدٍ مِنْهُم تأويلُ هذِهِ النُّصوصِ، وصَرْفُها عنْ ظواهِرِها، لا مِنْ طَريقٍ صَحيحٍ، ولا ضَعيفٍ، مَعَ توافُرِ الدَّواعي على نَقْلِ ذلكَ.

مِمَّا يُبَيِّنُ قَطْعًا أنَّ الذي أُريدَ مِنْهُم، ومِنْ كلِّ مُؤمنٍ، هوَ ظاهِرُ الخِطابِ، وهذا واضِحٌ لِمَنْ تأمَّلَ النُّصوصَ، وعَرَفَ حالَ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

وبهذا يَتَبَيَّنُ بُطلانُ التأويلِ، وأنَّه سُلوكُ غَيْرِ سبيلِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصحابَتِه، والتَّابِعينَ لهُمْ بإحسانٍ إلى يَومِ الدِّينِ[1].

وسَمْعُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **نوعانِ: سَمْعُ إدْراكٍ، وسَمْعُ إجابَةٍ:**

- **الأوَّلُ:** سَمْعُه لجميعِ الأصواتِ الظَّاهِرَةِ، والباطِنَةِ، الخفيَّةِ، والجَليَّةِ، وإحاطتُهُ التامَّةُ بها، فاللهُ تعالى لا يَخْفَى عليهِ شَيْءٌ في الأرضِ، ولا في السَّماءِ.
- **والثَّاني:** سَمْعُ الإجابَةِ مِنْه للسائلينَ، والدَّاعينَ، والعابِدينَ، فيُجيبُهُم، ويُثيبُهُم.

ومِنهُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] **أي:** مُجيبُه.

وقولُ المُصلِّي «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَه**» **أي:** استَجابَ لَهُ، فأثابَه[2].

والسَّمْعُ الثاني: «سَمْعُ الإجابَةِ»، لا يُنافي الأوَّلَ: «سَمْعَ الإدْراكِ»، وليسَ هوَ تأويلًا له؛ بَلْ هوَ إثباتٌ له، ومِنْ لوازِمه؛ فإذا كانَ اللهُ تعالى يُجيبُ دَعواتِ الدَّاعينَ، والسائِلينَ؛ فيلزَمُ مِنْ هذا أنَّه يَسْمَعُها؛ فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسْمَعُ، ويُجيبُ.

---

(١) شرح كتاب التوحيد للغُنيمان (١/ ١٨٩).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٧٩)، تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص٢٠٩)، شرح العقيدة السفارينيَّة لابن عثيمين (ص١٨٥)، شرح الواسطية (١/ ٢٠٦)، شرح رياض الصالحين (٥/ ٥٥١).





الحديث الثاني والثلاثون

عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسولَ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقولُ:

«إِنَّ قُلوبَ بَني آدَمَ كُلَّها بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ واحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشاءُ».

ثُمَّ قال رَسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«اللهُمَّ مُصَرِّفَ القُلوبِ، صَرِّفْ قُلوبَنا على طاعَتِكَ»[١].

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقولَ: **«يا مُقَلِّبَ القُلوبِ، ثَبِّتْ قَلْبي على دينِكَ».**

فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ، وَبِما جِئْتَ بِهِ؛ فَهَلْ تَخافُ عَلَيْنا؟

قال: **«نَعَمْ، إِنَّ القُلوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُها كَيْفَ يَشاءُ»**[٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٨٧)، وحسنه، وابن ماجه (٣٨٣٤)، ورواه ابن منده في الرد على الجهمية (٢٥)، من حديث جابر، وقال: «هذا حَديثٌ ثابِتٌ بِاتِّفاقٍ».

في هذا الحَديثِ بيانُ: أنَّ اللهَ تعالى مُتصرِّفٌ في قُلوبِ عبادِه كَيفَ شاءَ، لا يَمْتَنِعُ عليهِ مِنْها شَيءٌ، ولا يفوتُه ما يُريدُهُ، فمَنْ شاءَ أقامَ قلبَهُ، ومَن شاءَ أزاغَه، يَهْدي مَنْ يشاءُ، ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ونَحنُ نؤمِنُ بهذا الحَديثِ على حقيقَتِهِ، وأنَّ للهِ تعالى يدَيْنِ، ولهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أصابع حقيقةً، نُثْبِتُها له كما أثبتَها لَهُ رسولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على الوَجْهِ الذي يَليقُ بجلالِه، وكمالِه، مِنْ غيرِ تَشبيهٍ، ولا تَمثيلٍ، ولا تَكييفٍ، ولا تَعْطيلٍ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ونُؤمِنُ بأنَّ القُلوبَ كلَّها بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أصابعِ الرَّحمَنِ جَلَّ وَعَلَا، على وَجْهِ الحَقيقَةِ، ولا نقولُ كما يقولُ مَنْ تأوَّلَ الحَديثَ: الحَديثُ كِنايَةٌ عن سُلطانِ اللهِ، وتصَرُّفِه في القُلوبِ؛ لأنَّه لَيْسَ في قُلوبِنا أصابعُ!

بل نُثْبِتُه على حقيقَتِهِ، ولا يَلْزَمُ مِنْ كَونِ قُلوبِ بني آدمَ بَيْنَ إصْبَعَينِ مِنْ أصابعِ اللهِ، أنْ تكونَ مُماسَّةً، ومُباشِرةً لها، ولا يَلْزَمُ منهُ الحُلولُ بأنْ تكونَ أصابعُ اللهِ داخِلَ أجوافِنا!

وهذا الذي دَعا مَنْ تأوَّلَ الحديثَ إلى أنْ يقولَ: يجبُ صَرْفُه عنْ ظاهِرِه حتَّى لا يُتَوَهَّمَ الحُلولُ! وهذا خَطَأٌ؛ فالبَيْنِيَّةُ بَيْنَ شَيئَيْنِ لا يَلْزَم مِنْها المُماسَّةُ، والمُباشَرةُ، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فهَلْ يَلْزَمُ مِنَ الآيةِ أنْ يكونَ السَّحابُ مُلاصِقًا للسَّماءِ، والأرضِ، مُباشِرًا لهُما؟! لا يُمْكِنُ.

ونَحنُ نقولُ: «سُتْرَة المُصَلِّي بين يدَيْه»، ولَيْسَت هيَ مُباشِرَةً له، ولا مُماسَّةً له.

ونقولُ: «بَدْرٌ بَيْن مكَّةَ، والمدينةِ»، معَ تباعُدِ ما بينَها وبيْنَهُما، فلا يَلْزَمُ أنْ تكونَ مُتَّصلةً بهِما.

ونقولُ: «شَعبانُ بيْنَ جُمادَى، وذي القَعْدةِ»، ولا يَلْزَمُ أنْ يكونَ مواليًا لجُمادَى.

فالبَيْنيَّةُ لا تَسْتَلْزِمُ الاتِّصالَ في الزَّمانِ، أوِ المَكانِ.

وإذا كانَتِ البَيْنيَّةُ لا تَسْتَلْزِمُ المُباشَرةَ، والمُماسَّةَ، فيما بَيْنَ المَخلوقاتِ، فكيفَ بالبَيْنيَّةِ فيما بَيْنَ المَخلوقِ، والخالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي وَسِعَ كُرْسيُّه السَّمواتِ، والأرضَ، وهوَ بكلِّ شَيءٍ مُحيطٌ؟!

وقد دَلَّ الشَّرعُ، والعقلُ، على أنَّ اللهَ تعالى بائِنٌ مِنْ خَلْقِه، ولا يَحِلُّ في شَيءٍ مِنْ خَلْقِه، ولا يَحِلُّ فيهِ شَيءٌ مِنْ خَلْقِه، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأجْمَعَ السَّلَفُ على ذلِكَ.

فنُؤمِنُ بأنَّ قُلوبَ بني آدمَ كلَّها بَيْنَ إصْبَعَينِ مِنْ أصابعِ الرَّحمَنِ، كما أخبرَنا نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهوَ أعْلَمُ الخَلْقِ باللهِ، ولا يَلْزَمُ مِنْ ذلِكَ المعاني الفاسِدَةُ التي يتَصوَّرُها بَعْضُ أهلِ البِدَعِ، بلْ نقولُ كما قال نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حقيقةً بِلا تأويلٍ.

ونُثبِتُ معَ ذلكَ -أيْضًا- أنَّ اللهَ تعالى يَتصرَّفُ في هذهِ القُلوبِ كما يَشاءُ، ونقولُ كما كانَ يقولُ نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اللهُمَّ مُصرِّفَ القُلوبِ، صَرِّفْ قُلوبَنا على طاعَتِكَ»**[١].

فالحاصِلُ: أنَّ قلوبَ العِبادِ بَيْنَ إصْبَعَينِ مِنْ أصابعِ الرَّحمَنِ تعالى، كقَلْبٍ واحدٍ، يُصرِّفُها كيفَ شاءَ، ويُقلِّبُها حَيْثُ شاءَ، ونَواصي العِبادِ بيَدِه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كلِّ شَيءٍ قديرٌ.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

«فإيَّاكُم أنْ تَرُدُّوا أمرَ اللهِ أوَّلَ ما يَأتيكُمْ، فيُحالَ بَيْنَكُم وبيْنَه إذا أردتُموه بعدَ ذلِكَ، وتَختَلفَ قلوبُكُمْ؛ فإنَّ اللهَ يَحولُ بَيْنَ المَرْءِ، وقَلْبِه، يُقلِّبُ القُلوبَ حيْثُ شاءَ، ويُصرِّفُها أنَّى شاءَ.

---

(١) التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيميَّة (ص٧٣)، أسماء الله وصفاته لابن عثيمين (ص٤٥)، القواعد المُثلى (ص٥١)، تقريب التدمُرية (ص٦٢)، القول المفيد (٢/ ٥٢٨)، تفسير الفاتحة والبقرة (٢/ ٢١٨).

فلْيُكْثِـرِ العَبْدُ مِنْ قولِ: يا مقلِّـبَ القلوبِ، ثبِّتْ قلبي عـلى دينِكَ، يا مُصَرِّفَ القُلوبِ، اصْرِفْ قلبي إلى طاعَتِكَ»[١].

ومِنْ دُعاءِ الرَّاسِـخينَ في العِلْمِ: ﴿ **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ** ﴾ [آل عمران: ٨].

ومِنْ دُعاءِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعوذُ بِعِزَّتِكَ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّني**»[٢].

فاللهُ تعالى بعِزَّتِه يُضِلُّ مَنْ يشـاءُ، ويهدي مَنْ يشاءُ، فهوَ لكمالِ عِزَّتِه، وغِناه، لا تنفَعُـه طاعَةُ الطَّائِعينَ، ولا تَضُرُّه مَعصيَةُ العاصينَ، كما قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧] وقـال: ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الزمر: ٤١].

فمَنِ استعاذَ بعِزَّةِ اللهِ، وتوسَّلَ إليهِ بعِزَّتِه، وتوحيدِه؛ هداهُ ونَجَّاهُ مِنَ الضَّلالَةِ.

فسَلِ اللهَ تعالى الثَّباتَ على الإسلامِ، والإيمانِ، والهِدايَة حتَّى المَماتِ، واسْتَعِذْ بِهِ مِنَ الضَّلالِ بَعدَ الهُدَى.

لا رَبَّ أَرْجـوهُ لي سِواكا ... إذْ لَمْ يَخِبْ سَعيُ مَنْ رَجاكا
إنْ أنتَ لَمْ تهدِنا ضَلَلْنا ... يا ربِّ إنَّ الهُدَى هُداكا
أَحَطْتَ عِلْمًا بِنا جَميعًا ... أنتَ تَرانا ولا نَراكا



(١) تفسير السعدي (ص٣١٨).

(٢) رواه البخاري مختصرًا (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).



الحديث الثالث والثلاثون



عَـنْ أَبي الـدَّرْداءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] قال:

«مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَخْفِضَ آخَرِينَ»[١].

فاللهُ تعالى هوَ رَبُّ العالَمِينَ، لَهُ مقاليدُ السَّماواتِ، والأرضِ، وبيَدِه وحدَه خزائنُها، وهوَ السيِّدُ الصَّمَدُ الغنيُّ، الذي تَصْمِدُ إليه[٢] جَميعُ المَخلوقاتِ، في جميعِ حاجاتِها، وأحوالِها، وضروراتِها، بالذُّلِّ، والحاجَـةِ، والافتِقارِ، فالكلُّ خاضِعٌ له، مُفتَقِرٌ إليه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الغنيُّ عنْ عبادِه.

وهذا كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

فهوَ الغنيُّ بذاتِه عن جَميعِ مخلوقاتِه، وهوَ واسِـعُ الجـودِ، والكَرَمِ، فكلُّ الخَلْقِ

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٢)، وابن حبان في صحيحه (٦٨٩)، وحسَّنه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٢٨) وكذا حسنه الألباني في صحيح ابن ماجة، وضعَّفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٨)، وابنُ حجر في تغليق التعليق (٤/ ٣٣٣)، ورواه البيهقي في الشعب (١٠٦٧) موقوفًا على أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذكرَه عنه البخاري معلَّقًا بصيغة الجَزْم (٦/ ١٤٤)، ورجَّحَه الدارقطني في «العِلَل» (٦/ ٢٢٩).

(٢) تقصِده.

مُفْتَقِرون إليهِ، يَســألونَه جميعَ حوائِجِهم، بحالِهم، ومقالِهم، ولا يَسْتَغنونَ عنه طَرْفةَ عيْنٍ، ولا أقلَّ مِنْ ذلِكَ.

وهوَ تعالى ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩]: يَغْفِرُ ذنبًا، ويُفَرِّجُ كَرْبًا، ويُجيبُ داعيًا، ويَكْشِفُ غمًّا، ويُغني فقيرًا، ويَجْبُرُ كسيرًا، ويَنصُرُ مَظلومًا، ويأخُذُ ظالِمًا، ويَفُكُّ عانيًا، ويَشْــفِي مَريضًا، ويُعْطي قَوْمًا، ويَمْنَعُ آخَرينَ، ويُميتُ، ويُحْيي، ويَرْفَعُ، ويَخْفِضُ، ويُقيلُ عَثْرةً، ويَسْتُرُ عَوْرَةً، ويُعِزُّ ذليلًا، ويُذِلُّ عزيزًا، ويُعطِي سائِلًا، ويَذْهَبُ بدَوْلةٍ، ويأْتي بأُخــرَى، ويُداوِلُ الأَيَّامَ بَيْن النَّاسِ، ويَرْفعُ أَقوامًــا، ويَضَعُ آخَرينَ، إلى ما لا يُحْصَى مِنْ أفعالِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خَلْقِهِ بما يَشاءُ.

لا يَشْــغَلُه شأنٌ عنْ شَأنٍ، ولا تُغْلِطُه المَســائِلُ، ولا يُبْرِمُه إلْحاحُ المُلِحِّينَ، ولا طولُ مَسألَةِ السائِلينَ.

قال مُجاهِدٌ: «كلَّ يومٍ هو يُجيبُ داعيًا، ويَكْشِــفُ كَرْبًــا، ويُجيبُ مُضطرًا، ويَغْفِرُ ذَنبًا».

وقال قتادَةُ: «لا يَسْتَغْني عنه أهلُ السَّمواتِ، والأرضِ، يُحْيي حيًّا، ويُميتُ مَيِّتًا، ويُرَبِّي صَغيرًا، ويَفُكُّ أســيرًا، وهو مُنتَهَى حاجاتِ الصَّالحينَ، وصَريخِهِمْ، ومُنتَهَى شكواهُم»[1].

فسُبْحانَ الكريمِ الوَهَّابِ، الذي عمَّتْ مواهِبُه أهلَ الأرضِ، والسَّماواتِ، وعَمَّ لُطْفُه جَميعَ الخَلْقِ في كلِّ الآناتِ، واللَّحظاتِ.

وتعــالى الذي لا يَمْنَعُــه مِنَ الإعطاءِ مَعصيَــةُ العاصينَ، ولا اســتِغْناءُ الفُقراءِ الجاهِلينَ بهِ، وبكَرَمِه.

وهذِهِ الشــئونُ التي أخبرَ أنَّه تعالى كلَّ يومٍ هو في شــأنٍ هيَ: تقاديرُه، وتدابيرُه،

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٣٨)، تفسير ابن كثير (٧/ ٤٩٥).

التي قدَّرَها في الأزَلِ، وقضاها، قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السَّماواتِ والأرضَ بخَمْسينَ ألفَ سَنَةٍ، لا يَزالُ تعالى يُمْضيها، ويُنفِذُها، في أوقاتِها التي اقتَضَتْها حِكْمَتُه، ويَسوقُها إلى مواقيتِها، فلا يَتَقَدَّمُ مِنْها شَيْءٌ عنْ وقتِهِ، ولا يتأخَّرُ؛ فهيَ ما أحْصاهُ كتابُهُ، وجرَى بهِ قَلَمُه، ونَفَذَ فيهِ حُكْمُه، وسبَقَ بهِ عِلْمُهُ.

وهيَ أحكامُه الدِّينيَّةُ التي هيَ الأمرُ، والنَّهيُ، والقَدَرِيَّةُ التي يُجْريها على عبادِه، مُدَّةَ مُقامِهِمْ في هذِهِ الدَّارِ، فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المُتَصَرِّفُ في المَمالِكِ كلِّها وَحْدَه، تصرُّفَ مَلِكٍ قادِرٍ قاهِرٍ، عادلٍ رَحيمٍ، تامِّ المُلْكِ، لا يُنازِعُه في مُلْكِه مُنازِعٌ، ولا يُعارِضُه فيهِ مُعارِضٌ.

فتَصَرُّفُه في المَملَكَةِ دائِرٌ بَيْنَ العَدْلِ، والإِحسانِ، والحِكْمةِ، والمصلَحَةِ، والرَّحمَةِ؛ فلا يَخْرُجُ تصرُّفه عنْ ذلكَ[1].

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَيَرْفَعَ قَوْمًا» أي:** يرفَعُهم إلى الدَّرجاتِ العُلَى بأعمالِهم الصَّالحَةِ، أو يرفَعُهم بحُظوظِ الدُّنيا مِنَ الرِّزقِ، وغيْرِه.

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَيَخْفِضَ آخَرِينَ» أي:** إلى الدَّركاتِ السُّفلَى بسوءِ أعمالِهم، أو بتقليلِ أرزاقِهم، ومعاشِهم[2].

وهذا كما جاءَ في الحَديثِ: «**يَخْفِضُ القِسْطَ، وَيَرْفَعُهُ**»[3]، وفي حديثٍ آخَرَ: «**وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الميزانُ، يَخْفِضُ، وَيَرْفَعُ**»[4].

فاللهُ تعالى يَحْكُمُ في خَلْقِه بميزانِ العَدْلِ، فمَن عَمِلَ ما يَسْتَحِقُّ الرفعَ رفعَه، ومَن عَمِلَ ما يَسْتَحِقُّ الخَفْضَ خفضَه.

---

(١) تفسير البغوي (٧/ ٤٤٥)، طريق الهجرتين (ص١٢٣)، تفسير ابن كثير (٧/ ٤٩٤)، تفسير السعدي (ص٨٣٠).

(٢) مشارق الأنوار الوهاجة شرح سنن ابن ماجه، للإثيوبي (٤/ ١٩١).

(٣) رواه مسلم (١٧٩).

(٤) رواه البخاري (٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣).

فيَخفِضُ الميزانَ تارَةً بتقْتيرِ الرِّزقِ، والخِذلانِ بالمَعصيَةِ، ويرفَعُه تارةً بتوسيعِ الرِّزقِ، والتَّوفيقِ للطَّاعَةِ، عَدْلًا، وحكمَةً.

فاللهُ تعالى يَخْفِضُ مَنْ يشاءُ، ويَرْفَعُ مَنْ يشاءُ، ويوَسِّع الرِّزقَ على مَنْ يشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَنْ يشاءُ[1].



(١) أعلام الحديث للخطابي (٣/ ١٨٦٢)، المُفهِم للقرطبي (١/ ٤٠٩)، شرح النووي على مسلم (٣/ ١٣، ٧/ ٨٠)، فتح الباري (١٣/ ٣٩٥)، إرشاد الساري للقسطلاني (٧/ ١٦٩، ١٠/ ٣٨٧)، مرقاة المفاتيح (١/ ١٦٥)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣٠٦).



الحديث الرابع والثلاثون



عَنْ عَبْدِ العَزيزِ بنِ صُهَيبٍ قال: دَخَلْتُ أَنا وَثابِتٌ، على أَنَسِ بْنِ مالِكٍ، فَقال ثابِتٌ: يا أَبا حَمْزَةَ، اشْتَكَيْتُ، فَقال أنَسٌ: أَلا أَرْقيكَ بِرُقْيَةِ رَسولِ اللَّه ﷺ؟ قال: بَلَى، قال: **«اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ الباسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافي، لا شافيَ إلا أَنْتَ، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَمًا»**[(١)].

وعَنْ أمِّ المؤمنينَ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَتْ: كانَ النَّبيُّ ﷺ يُعَوِّذُ بَعْضَهُمْ، يَمْسَحُهُ بيَمينِه:

«أَذْهِبِ الباسَ، رَبَّ النَّاسِ، واشْفِ أَنْتَ الشَّافي، لا شِفاءَ إلا شِفاؤُك، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَمًا»[(٢)].

وعنْها، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا اشْتَكى يَقْرأُ على نَفْسِهِ بِالمُعَوِّذاتِ، وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجعُهُ، كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَأَمْسَحُ عَنْهُ بيَدِهِ؛ رَجاءَ بَرَكَتِها»**[(٣)].

ورَقاهُ جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقال: يا مُحَمَّدُ، اشْتَكَيْتَ؟

---

(١) رواه البخاري (٥٧٤٢).

(٢) رواه البخاري (٥٧٥٠)، ومسلم (٢١٩١).

(٣) رواه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).



فَقال: «**نَعَمْ**». قال: «**بِاسْمِ اللّهِ أَرْقيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ[١]، أَوْ عَيْنِ حاسِدٍ، اللّهُ يَشْفيكَ، بِاسْمِ اللّهِ أَرْقيكَ**»[٢].

وكانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْقي الحَسَنَ، والحُسَينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فكانَ يُعوِّذُهما ويقولُ: «**أُعيذُكُما بِكَلِماتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ، وَهامَّةٍ(٣)، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ[٤]**»، وَيَقولُ: «**هَكَذا كانَ إِبْراهيمُ يُعَوِّذُ إِسْحاقَ وَإِسْماعيلَ**»[٥].

وعَنْ عُثْمانَ بْنِ أَبي العاصِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ شَكا إِلَى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعًا يَجِدُهُ في جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ، فَقال لَهُ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ضَعْ يَدَكَ على الذي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ -ثَلاثًا-، وَقُلْ -سَبْعَ مَرَّاتٍ-: أَعوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ ما أَجِدُ، وَأُحاذِرُ**»[٦].

فاللهُ تعالى مِنْ عَظَمَتِه، وعِزَّتِهِ، ورُبوبيَّتِهِ: أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشَّافي وحْدَهُ، لا شِفاءَ إلا شِفاؤُهُ، ولا شافيَ إلَّا هوَ، ولا يَقْدِرُ على الشِّفاءِ مِنَ الأمراضِ إلَّا هوَ، بما يُقَدِّرُ مِنَ الأسبابِ الموصِلَة إليهِ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

«فما يَقَعُ مِنَ الدَّواءِ، والتَّداوي، إنْ لَمْ يُصادِفْ تقديرَ اللهِ تعالى، وإلَّا فلا يَنْجَعُ»[٧].

يقولُ الإمامُ ابنُ عبدِ البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالبُرْءُ لَيسَ في وُسْعِ مَخلوقٍ أنْ يُعَجِّلَه قَبْلَ أنْ يَنزِلَ، أو أَنْ يُقدِّرَ وقتَه، وحينَه.

---

(١) نفس الآدمي، أو العين.

(٢) رواه مسلم (٢١٨٦).

(٣) كلّ ذاتِ سُمّ يقتل.

(٤) تصيب بسوء إذا حلّت وألّت به.

(٥) رواه البخاري (٣٣٧١)، والترمذي (٢٠٦٠) واللفظ له.

(٦) رواه مسلم (٢٢٠٢).

(٧) فتح الباري (١٠/ ٢٠٧).

وقَدْ رأيْنا المُنتَسبينَ إلى عِلْمِ الطبِّ يُعالِج أحدُهم رَجُلَيْن، وهو يَزْعُم أنَّ عِلَّتَهما واحِدَةٌ، في زمَنٍ واحِدٍ، وسِنٍّ واحِدٍ، وبَلَدٍ واحِدٍ، ورُبَّما كانا أخوَيْنِ توْأمَيْنِ، غِذاؤُهُما واحِدٌ، فعالَجَهُما بعِلاجٍ واحِدٍ، فيُفيقُ أحَدُهُما، ويَمــوتُ الآخَرُ، أو تَطولُ عِلَّتُه، ثُمَّ يُفيقُ عندَ الأَمَدِ المَقدورِ لهُ»[1].

ولِذا تَوَسَّلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذِهِ الرُّقيَةِ إلى اللهِ تعالى «بكمالِ رُبوبيَّته[2]، وكمالِ رَحْمَتِه بالشِّفاءِ[3]، وأنَّه وحدَه الشَّافي، وأنَّه لا شفاءَ إلا شِفاؤُهُ، فتضمَّنت التوسُّلَ إليهِ بتوحيدِهِ، وإحسانِهِ، ورُبوبيَّتِهِ»[4].

فالمَريضُ يتَوسَّلُ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ برُبوبيَّتِهِ العامَّةِ: **«اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ»**؛ فهوَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخالِقُ، المالِكُ، المُدَبِّرُ لجميعِ الأمورِ.

فشِــفاءُ اللهِ تعالى لا شِفاءَ غَيْرُه، وشــفاءُ المَخلوقينَ ما هوَ إلَّا سَببٌ، والطَّبيبُ سَبَبٌ، والدَّواءُ سببٌ، والشَّافي هوَ اللهُ وحْدَه[5].

واللهُ تعــالى أنزَلَ القرآنَ؛ ليكــونَ هدايةً للعالَمينَ، فهوَ الهُــدَى، والرحمَةُ العامَّةُ، والنُّورُ الهادي، والبَلاغُ، والمَوعظَــةُ، والفُرقانُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وجَعلَه اللهُ شِفاءً لأمراضِ القُلوبِ: «الشِّفاءَ المعنَويَّ الرُّوحيَّ»، وأمراضِ الأبدانِ «الشِّفاءَ الماديَّ»؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، و«مِنْ» هنا لِبيانِ الجِنْسِ، وليسَ للتَّبعيضِ، فالقرآنُ كلُّه شِفاءٌ.

---

(١) التمهيد (٥/ ٢٦٤).

(٢) رَبَّ النَّاسِ.

(٣) مُذْهِبَ الباسِ.

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٧٣).

(٥) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٤/ ٤٧٩).

يقولُ الإمامُ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالقُرآنُ هوَ الشِّفاءُ التامُّ مِنْ جميعِ الأدواءِ القلبيَّةِ، والبدَنيَّةِ، وأدواءِ الدُّنيا، والآخِرَةِ[١]، وما كلُّ أحدٍ يُؤهَّلُ ولا يوفَّقُ للاستِشْفاء بهِ، وإذا أحسَنَ العليلُ التَّداوي بهِ، ووضَعَه على دائِهِ بصِدْقٍ، وإيمانٍ، وقَبولٍ تامٍّ، واعتِقادٍ جازمٍ، واستيفاءِ شُروطِهِ؛ لَمْ يقاوِمْهُ الدَّاءُ أبدًا.

وكيفَ تُقاوِمُ الأدواءُ كَلامَ ربِّ الأرضِ، والسَّماءِ؟ الذي لَوْ نَزَلَ على الجِبالِ لصَدَّعَها مِنْ عَظَمَتِه، وجلالتِهِ، أو على الأرضِ لقطَّعَها.

فما مِنْ مَرَضٍ مِنْ أمراضِ القُلوبِ، والأبدانِ، إلَّا وفي القرآنِ سَبيلُ الدَّلالَةِ على دَوائِه، وسبَبِهِ، والوِقايَةِ مِنْهُ، لِمَنْ رَزَقَهُ اللهُ فَهْمًا في كتابِهِ»[٢].

وفي الحَديثِ: «**ما أَنْزَلَ اللهُ داءً، إلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفاءً**»[٣].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ، فَإِذا أُصيبَ دَواءُ الدَّاءِ، بَرَأَ بِإِذْنِ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ»[٤].

وهذا يَعُمُّ الأدويَةَ الحِسِّيَّةَ، وغيرَها، فكيفَ إذا كانَ الدَّواءُ بالقرآنِ الذي هوَ الشِّفاءُ التَّامُّ؟ والذي فيهِ مِنَ الأَدْوِيَةِ الَّتي تَشْفي مِنَ الأَمْراضِ، ما لَمْ يَهْتَدِ إِلَيْها عُقولُ أَكابِرِ الأَطِبَّاءِ، وَلَمْ تَصِلْ إِلَيْها عُلومُهُمْ، وَتَجارِبُهُمْ، وَأَقْيِسَتُهُمْ، مِنَ الأَدْوِيَةِ القَلْبيَّةِ، والرُّوحانيَّةِ[٥].

فَدَلَّ هذا على أهميَّةِ الرُّقيةِ الشَّرعيَّةِ، وهيَ مِنَ الأسبابِ الإلهيَّةِ في العِلاجِ.

والرُّقيةُ: مأخوذةٌ منَ الفِعْل «رَقَى»، يُقالُ: رقيْتُه، أرْقيهِ، يعني: عوَّذْتُهُ باللهِ.

---

(١) أهوالها ومصائبها وعذابها.

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٦٢، ٣٢٢)، بتصرُّف.

(٣) رواه البخاري (٥٦٧٨).

(٤) رواه مسلم (٢٢٠٤).

(٥) انظر: زاد المعاد (٤/ ١٠).

فالرُّقيةُ: ما يُعَوَّذُ بِهِ المَريضُ مِنَ الأدْعيةِ؛ لطَلَبِ الشِّفاءِ[1].

والرُّقيةُ الشَّرعيَّةُ هيَ الدَّواءُ المعنَويُّ الذي هَجرَه كَثيرٌ مِنَ الناسِ اليَوْمَ، فهيَ عِلاجٌ لأمراضِ الأبدانِ، كالصُّداعِ، وأمراضِ البطْنِ، والآفاتِ الّتي تُصيبُ الدّمَ، والسَّرطاناتِ، وغيرِها، والأمراضِ النفسيَّةِ، وأمراضِ القُلوبِ، كضيقِ الصَّدْرِ، والقَلقِ، والاكتِئابِ، والوَسْوسةِ، والاضطراباتِ، والتَّوتُّرِ، والحَسَدِ، والغُرورِ، والكِبْرِ، وغيرِ ذلكَ.

فإنْ قيلَ: كيفَ يُفرِّقُ المُسلمُ بينَ الحالاتِ التي تَسْتَدْعي الرُّقيةَ الشرعيَّةَ، والحالاتِ التي تَسْتَدْعي الذَّهابَ إلى طبيبٍ، أو أخصَّائيٍّ نَفْسيٍّ؟

فالجوابُ: أنّ العِلاجَ في العياداتِ الطبيَّةِ، النَّفسيَّةِ، أوِ العُضْويَّةِ، والعِلاجَ بالقُرآنِ، والرُّقَى الشَّرعيَّةِ، لا يتنافَيانِ؛ فهُما سببَانِ لحُصولِ الشِّفاءِ، يتكامَلانِ، ولا يتَضادَّانِ.

فالذي ننْصَحُ بِهِ: عَدَمُ التَّفريقِ بَيْنَ مُستَدْعياتِ العِلاجِ بالرُّقَى الشَّرعيَّةِ، ومُستَدْعياتِ العِلاجِ بالأدويَةِ الحِسِّيةِ.

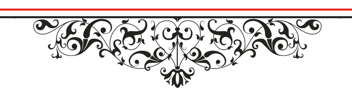
فمتَى أُصيبَ الإنسانُ بحالةٍ مرضيَّةٍ، مَهْما كانَ تَوصيفُها؛ فإنَّه يَسْتعمِلُ أوَّلًا العِلاجَ الشَّرعيَّ بالقُرآنِ، والرُّقى، والتَّعاويذِ الشَّرعيَّةِ، فإنِ استَمَرَّ بِهِ الدَّاءُ، فإنَّه يَعْرِضُ نفسَه على طَبيبٍ بشَريٍّ، وهوَ معَ ذلِكَ لا يَترُكُ الرُّقيَةَ الشَّرعيَّةَ، وإنَّما يُضيفُ إليها العِلاجَ بالأدْويَةِ.



(١) الصباح المنير (٢/ ٢٣٦)، حاشية العدوي على الرسالة (٢/ ٤٩٠).



الحديث الخامس والثلاثون



عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«أَنا سَيِّدُ القَوْمِ يَوْمَ القيامَةِ، هَلْ تَدْرونَ بِمَ؟ يَجْمَعُ اللّهُ الأَوَّلينَ والآخِرينَ في صَعيدٍ واحِدٍ، فَيُبْصِرُهُمُ النَّاظِرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعي، وَتَدْنو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، فَيَقولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلا تَرَوْنَ إِلَى ما أَنْتُمْ فيهِ؟ إِلَى ما بَلَغَكُمْ؟ أَلا تَنْظُرونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتونَهُ...» الحَديث، إِلى أَنْ قال: **«فَيَأْتوني، فَأَسْجُدُ تَحْتَ العَرْشِ، فَيُقالُ: يا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ»**[1].



(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).



الحديث السادس والثلاثون



عَنْ أَبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ ناسًا في زَمَنِ رَسولِ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: يا رَسولَ اللّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنا يَوْمَ القيامَةِ؟ قال رَسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَعَمْ**»... وَساقَ الحَديثَ،

وَفيهِ: «... فَيَقولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: **شَفَعَتِ المَلائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ المُؤْمِنونَ، وَلَمْ يَبْقَ إلا أَرْحَمُ الرَّاحِمينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْها قَوْمًا لَمْ يَعْمَلوا خَيْرًا قَطُّ، قَدْ عادوا حُمَمًا، فَيُلْقيهِمْ في نَهَرٍ في أَفْواهِ الجَنَّةِ، يُقالُ لَهُ: نَهَرُ الحَياةِ**»[1].

في هذَيْن الحديثَيْنِ إثباتُ الشَّفاعةِ عندَ اللهِ تعالى يوْمَ القيامَةِ.

والشَّفاعةُ في اللُّغةِ: الوَسيلَةُ، والطَّلَبُ.

وفي العُرْفِ: سُؤالُ الخَيْرِ للغَيْرِ.

والشَّفاعَةُ عندَ اللهِ: سُؤالُ اللهِ التَّجاوزَ عنِ الذُّنوبِ والآثامِ للغَيْرِ.

وحقيقَتُها: أنَّ اللهَ تعالى بلُطفِهِ، وكَرَمِهِ، يأذَنُ يَوْمَ القيامَةِ لبعضِ الصَّالِحينَ مِنْ

(١) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له.



خَلْقِهِ، مِنَ الملائِكَةِ، والمُرسَلينَ، والمؤمنينَ، أنْ يَشفَعوا عندَه في بعضِ أصحابِ الذُّنوبِ مِنْ أهلِ التَّوحيدِ؛ إظهارًا لكرامةِ الشَّافِعينَ عندَه، ورحمَةً بالمَشفوعِ فيهِمْ.

ولا تَصِحُّ الشَّفاعةُ عندَ اللهِ تعالى، إلَّا بِشَرْطَيْنِ:

- **أحدِهما:** إذنُ اللهِ تعالى للشَّافِعِ أنْ يَشْفَعَ.

وقدْ دلَّ على هذا الشَّرطِ قولُهُ تعالى في آيةِ الكُرسيِّ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

والنَّبيُّ ﷺ، وهوَ أكرَمُ الخَلقِ على اللهِ تعالى، لا يَشْفَعُ يومَ القيامَةِ حتَّى يَستأذِنَ، ويَسْجُدَ تحتَ العَرشِ، ويَسْأَلَ ربَّهُ، حتَّى يَقولَ لَهُ: «**اشْفَعْ تُشَفَّعْ**».

الثاني: رضا اللهِ عنِ المَشفوعِ له، أنْ يشْفَعَ فيهِ.

وقد دَلَّ على هذا الشَّرطِ قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وهذانِ الشَّرطانِ مُجْمَلانِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وقد دلَّتِ النُّصوصُ على أنَّ اللهَ تعالى لا يَرْضَى أنْ يُشفَعَ إلَّا في أهلِ التَّوحيدِ؛ لِما ثبَتَ في الحَديثِ: «**لِكُلِّ نَبيٍّ دَعْوَةٌ مُستَجابَةٌ يَدْعو بِها، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتي؛ شَفاعَةً لِأُمَّتي في الآخِرَةِ**».

زادَ في روايةٍ: «**فَهِيَ نائِلَةٌ إِنْ شاءَ اللهُ مَنْ ماتَ مِنْ أُمَّتي، لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**»[1].

وقال تعالى في الكفَّارِ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩)، والزيادة له.

أمَّا شفاعةُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تَخفيفِ العَذابِ عنْ أبي طالِبٍ؛ فهيَ شَفاعَةٌ خاصَّةٌ بهِ وَحْدَه.

وقَدْ صَرَّحَ الأئمَّةُ المُحقِّقونَ بتَواتُر أحاديثِ الشَّـفاعةِ، وهيَ مُشـتَهَرةٌ في كتُبِ الصِّحاحِ، والمَسانيدِ.

وتَنْقَسِمُ الشَّفاعةُ مِنْ حيثُ القَبولِ، والرَّدِّ، إلى قِسمَيْن:

مَرْدودَةٍ: وهيَ ما فَقَدَتْ أحَدَ شَرْطَيِ الشَّفاعَةِ المَذكورَيْن.

ومَقبولَةٍ: وهيَ ما تحقَّق فيها شرْطا الشَّفاعةِ[1].

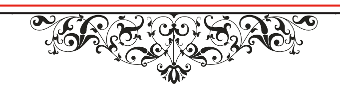


(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسُّنَّة (ص٢٣٤).





الحديث السابع والثلاثون



عَنْ سَلْمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال:

«يوضَعُ الميزانُ يَوْمَ القيامَةِ، فَلَوْ وُزِنَ فيهِ السَّماواتُ، والأَرْضُ، لَوَسِعَتْ، فَتَقولُ المَلائِكَةُ: يا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هذا؟ فَيَقولُ اللّه تَعالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقي، فَتَقولُ المَلائِكَةُ: سُبْحانَكَ، ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ.

وَيوضَعُ الصِّراطُ مِثْلَ حَدِّ الموسَى، فَتَقولُ المَلائِكَةُ: مَنْ تُجيزُ على هذا؟ فَيَقولُ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقي، فَيَقولونَ: سُبْحانَكَ، ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ»[(١)].

مِنْ عقيدتِنا: الإيمانُ بالميزانِ، والإيمانُ بالصِّراطِ.

---

(١) رواه الحاكم (٨٧٣٩)، وصحّحه على شرط مسلم، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٤١)، ورواه المروزي في زوائد الزهد (١٣٥٧)، والآجري في الشريعة (٨٩٤)، عن سلمان من قوله، ورجَّح وقفَه ابنُ رجب في جامع العلوم والحكم (٢/١٨) وقال: «الموقوف هو المشهور».

وروى مسلم (١٨٣) عن أبي سَعيدٍ الخدري قال: «**بَلَغَني أَنَّ الْجِسْرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ**»، وروى الطبري في تفسيره (١٨/ ٢٣٢)، والحاكم في مستدركه (٣٤٢٣)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٢٠٣)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢٧٨)، من طرق، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**الصراط على جهنم مثلُ حدّ السيف**» وهو صحيح عن ابن مسعود.

وهُما دَليلانِ على كمالِ عَدْلِ اللهِ تعالى، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

والميزانُ: ميزانٌ حقيقيٌّ مَحسوسٌ، لهُ لِسانٌ[١] وكِفَّتانِ، توزَنُ فيهِ أعمالُ العِبادِ، ويكونُ بَعدَ انقضاءِ الحِسابِ يومَ القيامَةِ.

«فإذا انقَضَى الحِسابُ؛ كانَ بَعدَه وزنُ الأعمالِ؛ لأنَّ الوَزْنَ للجَزاءِ، فينبَغي أنْ يكونَ بَعدَ المُحاسَبةِ؛ فإنَّ المُحاسبَةَ لتقديرِ الأعمالِ، والوَزنَ لإظهارِ مقاديرِها؛ ليكونَ الجَزاءُ بحَسَبِها»[٢].

وقَدِ اختَلَفَ أهلُ العِلْمِ: هلْ هوَ ميزانٌ واحِدٌ، توزَن به أعمالُ العِبادِ، أمْ أنَّ المَوازينَ مُتعدِّدةٌ، فلِكلِّ شَخْصٍ ميزانُه الخاصُّ، أو لكلِّ عملٍ ميزانٌ؟

فرَجَّح الحافظُ ابنُ كثيرٍ، والحافظُ ابنُ حجرٍ: أنَّه ميزانٌ واحِدٌ، لكِنْ جُمِعَت ﴿ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] في قولِه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، باعتِبارِ تَعدُّدِ الأعمالِ المَوْزونةِ فيهِ[٣].

وهوَ ميزانٌ دقيقٌ عادِلٌ، يزِن مِثقال الذَّرَّة مِنَ العَمَلِ، توزَنُ فيهِ الحَسَناتُ، والسيِّئاتُ، بكَيْفيَّةٍ لا يَعْلَمُها إلَّا اللهُ تعالى، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

---

(١) وهي الحديدة التي تكون في وسط الميزان.

(٢) التذكرة للقرطبي (٢/ ٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٤٥)، فتح الباري (١٣/ ٥٣٨).

والوَزْنُ بِالقِسْطِ فَلا ظُلْمَ وَلا ... يُؤْخَذُ عَبْدٌ بِسِوَى ما عَمِلا
فَبَيْنَ نـاجٍ راجِـحٌ ميزانُهُ ... ومُـقْـرِفٍ أَوْبَـقَـهُ عُـدْوانُـهُ

ولا يَعْلَمُ قَدْرَ هذا الميزانِ إلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما دَلَّ عليهِ هذا الحَديثُ: «**فَلَوْ وُزِنَ فيهِ السَّماواتُ، والأَرْضُ، لَوَسِـعَتْ**»، فـ«الميزانُ أَوْسَعُ ممَّا ما بَيْنَ السَّماءِ، والأرضِ، فما يَمْلَأُ الميزانَ فهوَ أكبرُ ممَّا يَمْلأُ ما بَيْن السَّماءِ، والأرضِ»[١].

وقـد دلَّتِ النُّصوصُ الشَّرعيَّةُ على أنَّ الذي يوزَنُ في الميـزانِ يومَ القيامَةِ، ثَلاثةُ أشياءٍ:

فتارَةً توزَنُ الأعمالُ، وتارةً توزَنُ صحائِفُ الأعمالِ، وتارةً يوزَنُ العامِلُ نفسُهُ[٢].

وقد يوزَنُ كلُّ ذلكَ؛ فيُوزَنُ العامِلُ، وعَمَلُه، وصحيفةُ عَمَلِه[٣].

أمَّا وزْنُ العَمَلِ: فيُؤتَى بالأعمالِ خَيْرِها، وشَرِّها، يَوْمَ القيامَةِ، وتوزَن في الميزانِ، بعدَ أنْ يَقْلِبَها اللهُ تعالى بُقدرتِهِ أجسامًا[٤].

وقـد دَلَّ على هذا، قَولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَلِمَتانِ خَفيفَتانِ على اللِّسـانِ، ثَقيلَتانِ في الميزانِ، حَبيبَتانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحانَ اللهِ العَظيمِ، سُبْحانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»[٥].

وأمَّا وزْنُ صحائِفِ الأعمالِ: فدلَّ عليه حديثُ البِطاقةِ المشُهورِ، في الرَّجُلِ الذي يُنشَرُ لهُ تِسْـعَةٌ وتِسْعونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِـجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثمَّ تَخْرُجُ بِطاقَةٌ[٦] فيها: «**أَشْـهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسولُهُ**»... فَتوضَعُ السِّجِلَّاتُ في

---

(١) جامع العلوم والحِكَم (٢/ ١٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٠).
(٣) معارج القبول لحافظ الحكمي (٢/ ٨٤٩)، القيامة الكبرى للأشقر (ص٢٥٤).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٩)، معارج القبول (٢/ ٨٤٥).
(٥) رواه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).
(٦) رُقعة صغيرة.

كِفَّةٍ، والبِطاقَةُ في كِفَّةٍ، فَطاشَتِ السِّجِلاَّتُ، وَثَقُلَتِ البِطاقَةُ؛ فَلا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»[١].

وأمّا وزنُ العامِلِ نفسِه «صاحِبِ العمَلِ»: فقدْ دلَّ على ذلِكَ قوْلُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّهُ لَيَأْتي الرَّجُلُ العَظيمُ السَّمينُ يَوْمَ القيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَناحَ بَعوضَةٍ**»، وَقال: «**اقْرَءوا**: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»[٢].

وجاءَ في مناقِبِ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وكانَ دقيقَ السَّاقَيْنِ-، أنَّ القَوْمَ ضَحِكوا منهُ، فَقال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نَفْسي بيَدِهِ؛ لَهُما أَثْقَلُ في الميزانِ مِنْ أُحُدٍ**»[٣].

ويَقولُ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في «نونيَّته»:

أفما تُصَدِّقُ أنَّ أَعْمالَ العِبا ... دِ تُحَطُّ يومَ العَرْضِ في الميزانِ؟
ولِذاكَ تَثْقُلُ تارةً وتَخِفُّ أُخـ ... ـرَى ذاك في القُرآنِ ذو تِبيانِ
ولَهُ لِسانٌ كِفَّتاهُ تُقيمُهُ ... والكِفَّتانِ إلَيهِ ناظِرتانِ
ما ذاكَ أمرًا معنويًّا بَلْ هوَ الـ ... ـمَحْسوسُ حقًّا عِندَ ذي الإيمانِ[٤]

أمّا الصِّراطُ: فَهو جِسرٌ ممدودٌ على مَتنِ جهنَّم، يَرِدُه النَّاسُ، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

ووُرودُ النَّارِ هوَ: المُرورُ على الصِّراطِ؛ كما قال ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وغَيرهما[٥].

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وهو في الصحيحة (١٣٥).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٣) رواه الإمام أحمد (٣٩٩١)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٧٥٠).

(٤) النونية (ص٣٥١).

(٥) تفسير الطبري (١٨/ ٢٣٢)، تفسير القرطبي (١١/ ١٣٦).

والصِّراطُ أدَقُّ مِن الشَّعْرِ، وأحَدُّ مِنَ السَّـيْفِ، دَحْضٌ مَزِلَّة[١]، فيهِ خَطاطيفُ، وكَلاليبُ، لا تَثْبُـت عليهِ قَدَمٌ، إلَّا مَنْ ثبَّتَهُ اللهُ، ويُنْصَـب في ظُلْمَةٍ، فيُعطَى الناسُ أنوارًا على قَدْرِ إيمانِهم، ويَمُرُّون فوقَهُ على قَدْرِ أعمالِهم[٢].

كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَيَمُرُّ المُؤْمِنونَ كَطَرْفِ العَيْنِ، وَكالبَرْقِ، وَكالرِّيحِ، وَكالطَّيْرِ، وَكَأَجاويدِ الخَيْلِ، والرِّكابِ، فَناجٍ مُسَـلَّمٌ، وَمَخْدوشٌ مُرْسَـلٌ، وَمَكْدوسٌ[٣] في نارِ جَهَنَّمَ**»[٤].

فنَسأَلُ اللهَ تعالى أنْ يُثقِّلَ موازينَنا، وأنْ يُبيِّضَ وجوهنا، وأنْ يثبِّتَنا على الصِّراطِ.



(١) الموضع الذي تَزِلُّ فيه الأقدام.

(٢) شرح الطحاوية (١/ ٤١٥)، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص٣٢٧).

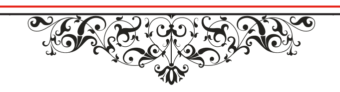
(٣) أي: مدفوع.

(٤) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)، واللفظ له.





الحديث الثامن والثلاثون



عَنْ أَبي سَعيدٍ الخُدْريِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذا رَفَعَ رأسَهُ مِنَ الرُّكوعِ قال:

«رَبَّنا لَكَ الحَمْد، مِلْءَ السَّماواتِ، والأَرْضِ، وَمِلْءَ ما شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّناءِ، والمَجْدِ، أَحَقُّ ما قال العَبْدُ، وَكُلُّنا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لا مانِعَ لِما أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطيَ لِما مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[1].

هذا الذِّكرُ مِنْ أذكارِ الرَّفعِ مِنَ الرُّكوعِ، وفيهِ ثناءٌ على اللهِ تعالى بما هوَ أهلُهُ، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعطي، ويمْنَعُ، ولا مانِعَ لِما أعطَى، ولا مُعطيَ لما منَعَ؛ فالخَلْقُ خلقُه، والأمرُ أمْرُه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وقولُهُ: **«أَحَقُّ ما قال العَبْدُ»** **يعني**: أحقُّ ما قال العبدُ قولُهُ: **«لا مانِعَ لِما أعطيتَ، ولا مُعْطيَ لِما منعتَ...»** إلى آخِرِه.

وقولُهُ: **«وكُلُّنا لك عبدٌ»** جُملةٌ اعتِراضيَّةٌ، والتَّقديرُ: فيَنبَغي لنا أنْ نقولَ هذا؛ لأنَّنا كلَّنا لكَ عَبْدٌ.

---

(١) رواه مسلم (٤٧٧).

وفي هذا دَليلٌ ظاهِرٌ علـى فضيلَةِ هذا الذِّكْرِ؛ فقَدْ أخبَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّ هذا أحقُّ ما قاله العَبْدُ.

وإنَّما كانَ أحقَّ مـا قاله العَبدُ؛ لِما فيهِ مِنَ التَّفويـضِ إلى اللهِ تعالى، والإذعانِ لَهُ، والاعترافِ بوَحْدانيَّتِه، والتَّصريحِ بأنَّه لا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلَّا بِهِ.

ولِما فيهِ مِنَ الحَثِّ على الزُّهْدِ في الدُّنيا، والإقبالِ على الأعمالِ الصَّالِحَةِ، كما قال: «وَلا يَنْفَعُ ذا الجَـدِّ مِنْكَ الجَدُّ» أي: لا ينْفَع ذا الحَـظِّ في الدُّنيا بالمالِ، والوَلَدِ، والعَظَمةِ، والسُّـلْطانِ، مِنـكَ حَظُّهُ؛ أي: لا يُنجيهِ حظُّه منـكَ، وإنَّما ينفَعُه ويُنجيهِ الإيمانُ، والعمَـلُ الصَّالحُ، كما قـال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا[1]﴾ [الكهف: ٤٦][2].

وقيـلَ: قولُهُ: «أَحَقُّ ما قال العَبْدُ» خبرٌ لِمُبتَـدَأ محذوفٍ، أي: هذا الكَلامُ أحَقُّ ما قال العَبْـدُ، فيُعودُ على قولِهِ: «اللَّهُـمَّ رَبَّنا لَكَ الحَمْد، مِلْءَ السَّـماواتِ، والأَرْضِ...»، أي: تَحميدُك، والثَّناءُ عليكَ، وتَمجيدُك، هو أحقُّ ما قال العبدُ.

وهوَ اختيارُ شَـيخِ الإسـلامِ ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: «فتبَـيَّنَ أنَّ حَمْدَ اللهِ، والثناءَ عليهِ، أحقُّ ما قاله العبـدُ، وفي ضِمنِه توحيدُه له، إذْ قال: «لكَ الحَمْدُ»؛ أي: لكَ، لا لغَيْرِكَ.

وقال في آخِرِه: «لا مانِعَ لِما أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطيَ لِما مَنَعْتَ»، وهذا يَقتَضي انفرادَه بالعَطاءِ، والمَنعِ، فلا يُسْتعانُ إلَّا بِهِ، ولا يُطلَب إلَّا منهُ»[3].

وقولُهُ عَنِ التَّحميد: «وَمِلْءَ ما شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ»: إشارةٌ إلى الاعتِرافِ بالعَجْزِ عنْ أداءِ حقِّ الحَمْدِ، بعْدَ استِفراغِ المَجهودِ، فهوَ أعزُّ مِنْ أنْ يُحْسَبَ، ويُعَدَّ.

---

(١) ما يؤمِّله الإنسان.

(٢) شرح النووي على مسلم (٤/ ١٩٥)، مرقاة المفاتيح (٢/ ٧١٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٦٥)، (٨/ ٢١٢، ١٤/ ٣١٢، ٣٧٦).

فإنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمِدَ اللهَ مِلْءَ السَّماواتِ، والأرضِ، ثمَّ أحالَ الأمْرَ فيهِ على مَشيئَةِ اللهِ تعالى، وليسَ وراءَ ذلكَ الحَمْدِ مُنْتَهى، ولَمْ ينْتهِ أحدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ في الحَمْدِ مَبْلَغَه، ومُنتهاهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبهذِهِ الرُّتبَةِ استَحقَّ أنْ يُسَمَّى «أحْمَد»؛ لأنَّه كانَ أحْمَدَ مِنْ سِواهُ[١].



(١) شرح أبي داود للعيني (٣/ ٣٦٤)، ونُخب الأفكار له (٤/ ٢٩٤).





الحديث التاسع والثلاثون



عَـنْ جابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسـولِ اللَّـهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُهاجِرَةُ البَحْرِ، قال: **«ألا تُحَدِّثوني بِأَعاجيبِ ما رَأيْتُمْ بِأَرْضِ الحَبَشَـةِ؟»**، قـال فِتْيَةٌ مِنْهُـمْ: بَلَى يا رَسـولَ اللَّـهِ، بَيْنـا نَحْنُ جُلـوسٌ، مَرَّتْ بِنـا عَجوزٌ مِنْ عَجائِـزِ رَهابينِهِـمْ، تَحْمِلُ على رَأسِـها قُلَّةً مِـنْ مـاءٍ، فَمَـرَّتْ بِفَتًى مِنْهُـمْ، فَجَعَـلَ إِحْـدَى يَدَيْهِ بَيْـنَ كَتِفَيْهـا، ثُمَّ دَفَعَها، فَخَرَّتْ على رُكْبَتَيْها، فانْكَسَرَتْ قُلَّتُها، فَلَمَّا ارْتَفَعَتْ التَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقالَتْ: سَـوْفَ تَعْلَمُ يا غُدَرُ[1] إذا وَضَعَ اللَّهُ الكُرْسِـيَّ، وَجَمَعَ الأَوَّلِيـنَ، والآخِرينَ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدي، والأَرْجُلُ، بِما كانوا يَكْسِبونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْري وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا.

فقال رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«صَدَقَتْ صَدَقَتْ! كَيْفَ يُقَدِّسُ[2] اللّهُ أُمَّةً، لا يُؤْخَذُ لِضَعيفِهِمْ مِنْ شَديدِهِمْ؟»**[3].

لَمَّا رجَعَت مُهاجِرَةُ البَحرِ، وهُمُ الذينَ هاجَروا إلى الحَبَشةِ، قَصُّوا على رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذِهِ الحِكايةَ التـي جَرَت بَيْنَ هذِهِ العَجوزِ، وهذا الفَتَى الذي دفَعَها على الأرضِ، وكَسَرَ قُلَّتَها.

---

(١) أي: يا غادر.

(٢) يطهِّرهم من الدَّنس والآثام.

(٣) رواه ابن ماجه (٤٠١١)، وصحَّحه ابن حبَّان، وحسَّنه البوصيري والألباني.



فَهدَّدَته بما سَيْجِري له يَوْمَ الجَزاءِ، والحِسابِ، وكيفَ سَيكونُ أمرُه وأمرُها إذا اقتُصَّ للظَّالِمِ مِنَ المَظلومِ، وأقرَّ النبيُّ ﷺ كَلامَها، وصدَّقه بقولِهِ: «صَدَقَتْ، صَدَقَتْ».

وقولُها: «سَوْفَ تَعْلَمُ يا غُدَرُ إِذا وَضَعَ اللهُ الكُرْسيَّ، وَجَمَعَ الأَوَّلينَ، والآخِرينَ»:

يعني: لفَصْلِ القضاءِ بَيْنَ خَلْقِه، فيَنْصِبُ اللهُ الكُرسيَّ، ويَنزِلُ مِنَ العَرْشِ إلى الكُرْسيِّ، وقد طَوَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى السَّماواتِ، والأرضَ، ونُثِرَتِ الكَواكِبُ، وكوِّرَتِ الشَّمسُ، والقمرُ، وأحاطَتِ المَلائكةُ بالخَلائِقِ.

فإذا جاءَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أشْرَقَتِ الأرضُ بنورِ ربِّها، بعْدَ أنْ كانَ النَّاسُ في الظُّلْمةِ، وحُقَّ لها ذلِكَ، كما قال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ[1] وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٨-٧٠][2].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، فيأتي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مجيئًا يَليقُ بجلالِه، وكمالِه.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢١-٢٣].

وهذا الحَديثُ يَدلُّ على عَظَمَةِ اللهِ، وعظيمِ قُدْرَتِهِ، وسُلْطانِه، وكمالِ عَدْلِهِ.



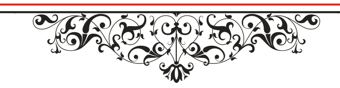
---

(١) كتاب الأعمال.

(٢) الفتوى الحموية الكبرى (ص٣٧٢)، مختصر الصواعق المرسلة (ص٤٢٣)، معارج القبول (١/ ٣٠٣)، تفسير السعدي (ص٩٤)، العقيدة في الله للأشقر (ص١٩٥).



الحديث الأربعون



عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ أُنَيْسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقولُ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القيامَةِ**، -أَوْ قال: **العِبادُ**-، **عُراةً غُرْلًا**[1] **بُهْمًا**»، قال: قُلْنا: وَما بُهْمًا؟ قال: «**لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُناديهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَما يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنا المَلِكُ، أَنا الدَّيّانُ، وَلا يَنْبَغي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النّارِ أَنْ يَدْخُلَ النّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ حَقٌّ، حَتّى أَقُصَّهُ مِنْهُ.**

وَلا يَنْبَغي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ، وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ، حَتّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، حَتّى اللَّطْمَةُ».

قال: قُلْنا: كَيْفَ، وَإِنّا إِنَّما نَأْتي اللّهَ عَزَّوَجَلَّ عُراةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قال: «**بِالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ**»[2].

هذا الحَديثُ سَمِعَه جابِرُ بنُ عبدِ اللهِ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وهوَ الحَديثُ الذي رَحلَ جابرٌ لِسماعِهِ، واشتَرَى بَعيرًا، وسارَ إلى الشَّامِ في شَهْرٍ كامِلٍ؛ لِيَسْمعَ هذا الحديثَ الواحِدَ.

---

(١) غير مختونين.

(٢) رواه الإمام أحمد (١٦٠٤٢)، والحاكم (٣٦٣٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠)، والطبراني في الكبير (٣٣١)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وكذا صححه الهيتمي في الزواجر (٢/ ٤٠٣)، وحسنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٥١)، والمنذريُّ في الترغيب والترهيب (٤/ ٢١٨).

يقــولُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «بَلَغَنــي حَديثٌ عَنْ رَجُلٍ سَــمِعَهُ مِنْ رَســولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فاشْتَرَيْتُ بَعيرًا، ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلي، فَسِرْتُ إِلَيْهِ شَهْرًا، حَتَّى قَدِمْتُ عَلَيْهِ الشَّامَ، فَإِذا عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ».

وهوَ حَديــثٌ عظيمٌ في القِصــاصِ، اقْتِصــاصِ الخَلْقِ بَعضِهــم مِنْ بعضٍ في الحُقوقِ، بالحَسَناتِ، والسَّيِّئاتِ، قال تعالى: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

حتَّى يُقتَصَّ للبهائِمِ، والحيواناتِ، مِــنْ بعضِها البَعضِ؛ فعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لَتُؤَدُّنَّ الحُقوقَ إِلَى أَهْلِها يَوْمَ القيامَةِ، حَتَّى يُقادَ لِلشَّاةِ الجَلْحاءِ**[١] **مِنَ الشَّاةِ القَرْناءِ**[٢]»[٣].

وعَنْ أَبي ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رَأَى شاتَيْنِ تَنْتَطِحانِ، فَقال: «**يا أَبا ذَرٍّ، هَلْ تَدْري فيمَ تَنْتَطِحانِ؟**»، قال: لا، قال: «**لَكِنَّ اللهَ يَدْري، وَسَيَقْضي بَيْنَهُما**»[٤].

وعَــنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رَســولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ كانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخيــهِ، مِنْ عِرْضِهِ، أَوْ شَيْءٍ؛ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لا يَكونَ دينارٌ، وَلا دِرْهَمٌ، إِنْ كانَ لَهُ عَمَــلٌ صالِحٌ، أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَســناتٌ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئاتِ صاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ**»[٥].

وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**أَتَدْرونَ ما المُفْلِسُ؟**».

---

(١) التي لا قرنَ لها.

(٢) التي لها قَرن.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٢).

(٤) رواه الإمام أحمد (٢١٤٣٨)، وحسّنه محقّقو المسند.

(٥) رواه البخاري (٢٤٤٩).

قالوا: المُفْلِسُ فينا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ، وَلا مَتاعَ.

فقال: «إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتي يَأتي يَوْمَ القيامَةِ بِصَلاَةٍ، وَصيامٍ، وَزَكاةٍ، وَيَأتي قَدْ شَتَمَ هذا، وَقَذَفَ هذا، وَأَكَلَ مالَ هذا، وَسَفَكَ دَمَ هذا، وَضَرَبَ هذا؛ فَيُعْطَى هذا مِنْ حَسَناتِهِ، وَهذا مِنْ حَسَناتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى ما عَلَيْهِ؛ أُخِذَ مِنْ خَطاياهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[١].

وقال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

ولِذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «أَنا المَلِكُ، أَنا الدَّيَّانُ»؛ فهوَ المَلِكُ، الذي بيدِه مُلْكُ السَّماواتِ، والأرضِ، ومَنْ فيهِنَّ، وهوَ الدَّيَّانُ، الحَكَمُ، الذي يُجازي عبادَه بأعمالِهم، إنْ خيرًا فخَيْرٌ، وإنْ شَرًّا فشرٌّ[٢].

وقولُهُ: «ثُمَّ يُناديهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ، كَما يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ»: فيهِ دَليلٌ على أَنَّ بعضَ أهلِ الموقِفِ أقربُ إلى اللهِ تعالى مِنْ بَعْضٍ[٣].



---

(١) رواه مسلم (٢٥٨١).

(٢) شأن الدُّعاء للخطابي (ص١٠٥)، شرح كتاب التوحيد للغُنيمان (٢/ ٣١٤).

(٣) شرح كتاب التوحيد (٢/ ٣١٤).



ملخص أهمِّ ما تضمنته أحاديث هذا الكتاب

- اللهُ تعالى هوَ الأوَّلُ قَبْلَ كلِّ شيءٍ، فهوَ الأوَّلُ بلا بِدايَةٍ، كما أنَّه الآخِرُ بلا نِهايةٍ.

- الإيمانُ بالقَدَرِ لا يَتمُّ إلَّا بالإيمانِ بمَراتِبِه، وأركانِهِ الأرْبَعَةِ، وهيَ: العِلْمُ، والكتابَةُ، والمَشيئَةُ، والخَلقُ: عِلْمُ الرَّبِّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالأشياءِ قَبْلَ كَوْنِها، وكتابَتُهُ لها قَبْلَ كَوْنِها، ومشيئَتُه لها، وخَلْقُه لها.

- اللهُ خالِقُ كلِّ شيءٍ، سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

- المَواثيقُ التي أخذَها اللهُ تعالى على بَني آدَمَ ثلاثَةٌ: الميثاقُ الذي أخذَه اللهُ تعالى على بَني آدَمَ حينَ أخرَجَهُم مِنْ ظَهْرِ أبيهِمْ آدمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وميثاقُ الفِطْرةِ، وما جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وأُنزِلَت بِهِ الكُتُب.

- إذا أتَى الشَّيطانُ الإنسانَ، ووَسْوَسَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فيُدْفَع هذا بأمورٍ ثلاثَةٍ: بالانتِهاءِ «قَطْعُ الشَّرِّ مُباشَرةً»، والتَّعوُّذ مِنَ الشَّيطانِ «قَطْعُ السَّببِ الدَّاعي إلى الشَّرِّ»، وبالإيمانِ «اللُّجوءُ والاعتِصامُ بالاعتِقادِ الصَّحيحِ اليَقينيِّ، الذي يَدفَعُ كلَّ مُعارِضٍ».

- نُثبِتُ للهِ تعالى ما أثبتَه لنفسِهِ، وما أثبتَه له رَسولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، مِنْ جميعِ الأسماءِ، والصِّفاتِ، ومعانيها، وأحكامِها الواردةِ في الكتابِ، والسُّنَّةِ، على الوَجْهِ اللائِقِ بكمالِهِ، وجلالِهِ، ونُجْريها على ظاهِرِها، مِنْ غيرِ تَشبيهٍ، ولا تَمثيلٍ، ولا تكييفٍ، ولا تَعْطيلٍ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

- اللهُ تعالى حيٌّ قيُّـومٌ، والحَيُّ: ذو الحياةِ الكامِلةِ، لَمْ يزَلْ، ولا يَزالُ حيًّا، لَمْ يسـبِقْ حياتَه مَوْتٌ، ولا يَلْحَقُها مَوْتٌ، فهوَ الأوَّلُ، والآخِرُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والقَيُّومُ: القائِمُ بذاتِـهِ، لا يَحتاجُ إلى أحَدٍ، والقائِـمُ على غيرِهِ، يَحتاجُ إليـهِ كلُّ أحَدٍ، يقومُ بأمورِ السَّماواتِ، والأرضِ، ومَنْ فيهِنَّ، فهوَ القائِمُ على كلِّ شيءٍ.

- يَحْكُمُ اللهُ تعالى في خَلْقِه بميزانِ العَدْلِ، فمَن عَمِلَ ما يَسْـتَحِقُّ الرَّفعَ رفعَه، ومَن عَمِلَ ما يَسْتَحِقُّ الخفضَ خفضَه.

- حرّمَ اللهُ تعالى الظُّلْمَ على نفسِه؛ فاللهُ تعالى مقدَّسٌ ومُنزَّهٌ عنِ الظُّلمِ، والظُّلْمُ مُحالٌ في حقِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

- جميعُ الخَلْقِ مُفتَقِـرونَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في جَلْبِ مَصالِحِهم، ودَفْعِ مَضارِّهم، في أمورِ دينِهم، ودُنياهُم، والعبادُ لا يَملِكونَ لأنفسِهِم شيئًا مِنْ ذلكَ كلِّه.

- جَميعُ المَخلوقاتِ داخِلةٌ تَحتَ قهْرِ اللهِ وسُـلْطانِه، فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آخذٌ بنَواصيها، قادِرٌ عليْها، يتَصرَّفُ فيها كيفَ يشـاءُ، ويحكُمُ فيها بما يُريدُ: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦].

- اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عظيمٌ، ومِنْ عظمَتِهِ: أنّ السَّـمواتِ السَّبعَ، والأرضينَ السَّبْعَ، وما فيهِـما، في يدِ اللهِ، كخَرْدَلَةٍ في يدِ أحدِنا، ويَقْبِضُ اللهُ يومَ القيامَةِ الأَرْضَ، ويَطْوي السَّمَواتِ بيَمينِهِ.

- مِنْ عَظَمَةِ اللهِ، وعَظَمَةِ كلامِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أنَّه تعالى إذا تكلَّمَ بالأمْرِ، وسَـمِعَ أهلُ السَّمواتِ كلامَه، أُرْعِدوا مِنَ الهَيْبَةِ، حتَّى يَلحقَهم مثلُ الغَشْيِ.

- للهِ تعـالى صفاتُ العَظَمَةِ، والعِزَّةِ، والكِبْرياءِ، ومِنْ أسـمائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: المُتكبِّرُ، أي: العَظيـمُ ذو الكِبرياءِ، وقيلَ: المُتعالي عن صفـاتِ الخَلقِ، وقيلَ: المُتكبِّرُ، والمُتنزِّهُ، عنِ السُّوءِ، والنَّقصِ، والعُيوبِ.

- الخَلْقُ خَلْقُ اللهِ، والأمرُ أمرُه، والخيرُ كلُّه بيدِ اللهِ، لا مانعَ لما أعطَى، ولا مُعْطيَ لما منَعَ، ولا قابِضَ لِما بَسَطَ، وَلا باسِطَ لِما قَبَضَ، وَلا هاديَ لِمَنْ أَضَلَّ اللهُ، وَلا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَى.

- نِعَمُ اللهِ تعالى على عبادِه عظيمةٌ جليلةٌ، وحقوقُه عليهِمْ كثيرةٌ، والعباد لا يقومونَ -مَهْما فعَلوا- بحقِّ عبوديَّتِهِ التي يَستحقُّها عليهِمْ، ولا تَفي أعمالُهُم بنَجاتِهم، فلَوْ عذَّبَهم ربُّهُم؛ لَعَذَّبَهم وهو غيرُ ظالمٍ لهُمْ، ورَحْمَتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَيرٌ لهُم مِنْ أعمالِهِم.

- خزائنُ اللهِ لا تنفَدُ ولا تنقُصُ بالنَّفقةِ، والعَطاءِ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقَسِّمُ الأرزاقَ، ويُجْزِلُ العطايا، ويَمُنُّ بفَضْلِه على مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ بيمينِهِ، وباليَدِ الأخرَى الميزانُ، يَخْفِضُ به مَنْ يشاءُ، ويَرْفَعُ به مَنْ يشاءُ، عَدْلًا منه، وحِكْمةً، لا إلهَ إلَّا هوَ العزيزُ الحَكيمُ.

- إنكارُ البَعثِ يتَضمَّنُ تكذيبَ اللهِ تعالى فيما أخبرَ بهِ على ألسِنَةِ رُسُلِه، وفي كتابِهِ، ونِسْبَةُ الولدِ إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شتمٌ لَهُ، وتَنَقُّصٌ؛ لأنَّه السيِّدُ الصَّمَدُ الغنيُّ، وجميعُ المخلوقاتِ مُفتَقِرةٌ إليهِ.

- لا يَتِمُّ توحيدُ العَبْدِ، وكمالُ إيمانِه، حتَّى يعترِفَ بتفرُّدِ اللهِ تعالى بالنِّعَمِ الظَّاهرةِ، والباطنَةِ، عليهِ وعلى جميعِ الخَلْقِ، ويُضيفَها إلى اللهِ تعالى قَوْلًا، واعترافًا، ويَعْترفَ بتفرُّدِه بدَفْعِ النِّقَمِ، ويَستعينَ بنِعَمِ اللهِ تعالى على ذِكْرِه، وشُكْرِه، وحُسْنِ عِبادَتِه.

- سَبُّ الدَّهْرِ فيهِ أذيَّةٌ للهِ تعالى، وسوءُ أدبٍ معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ اللهَ تعالى هوَ الذي يُقدِّرُ الأمورَ، والدَّهْرُ هوَ الزمانُ، ولا فِعْلَ له، بَلْ هوَ مَخلوقٌ مِنْ مَخلوقاتِ اللهِ.

- الكَوْنُ كلُّه خاضِعٌ للهِ تعالى، ولعَظَمَتِه، شاهدٌ على وَحْدانيَّته، وربوبيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واستحقاقِهِ للعبادَةِ وحْدَه لا شَريكَ له، فالشَّمسُ بحَجْمِها الهائِلِ، وحرارتِها المُحْرِقةِ، تَسْجُدُ تحتَ العَرْشِ كلَّ ليلةٍ، ولا تطلُعُ مِنَ المَشرِقِ، حتَّى تستأذِنَ ربَّها، وهيَ في حالِ سُجودِها، فيأذَنَ لها.

- عرشُ الرحمَنِ أوَّلُ المَخلوقاتِ، وأعظَمُها، وأثقلُها وَزْنًا، وهوَ سَقفُ المَخلوقاتِ، مُحيطٌ بها، وهو مقبَّبٌ، يعني: كالقُبَّة على العالَمِ، واللهُ تعالى قدِ استَوَى على عَرْشِه، استِواءً يَليقُ بجَلالِهِ، وكمالِهِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

- مِنْ سَعَةِ رحمَةِ اللهِ تعالى: أنَّ رحمتَه سَبَقَتْ، وغَلبَتْ، غَضَبَه، وكتبَ اللهُ هذا في كتابٍ عندَه فوقَ العَرشِ.

- التَّوسُّل إلى اللهِ تعالى في الدُّعاءِ، بتقديمِ الحَمْدِ، والثَّناءِ عليهِ، وتَمجيدِه بأسمائِهِ، وصفاتِهِ، والتَّوسُّلُ إليه بعبوديَّتِه، وتوحيدِه؛ لا يَكادُ يُرَدُّ معَهُ الدُّعاءُ.

- اللهُ تعالى سَميعٌ بَصيرٌ، يَسْمَعُ جميعَ الأصواتِ، الظاهرةِ، والباطنَةِ، الخَفيَّةِ، والجليَّةِ، باختِلافِ اللُّغاتِ، على تفنُّنِ الحاجاتِ، فالغَيب عندَه شَهادَةٌ، والسِّرُّ عندَهُ علانيَةٌ، والبَعيدُ عِندَه قريبٌ.

- مِنْ أصولِ الإيمانِ، وثَوابتِ العَقيدةِ: أنَّ الغيْبَ لا يَعْلَمُه إلَّا اللهُ تعالى، وعِلْمُ الغيبِ مِنَ العِلْمِ الذي استأثَرَ اللهُ تعالى بهِ لنفْسِهِ، وبيَدِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحْدَه خزائنُه، والطُّرُقُ الموصِلةُ إليهِ، لا يَمْلِكُها إلَّا هوَ، ولا يُطْلِعُ عليها إلَّا مَن شاءَ مِنْ رُسُلِه.

- مِنْ عَظَمةِ اللهِ تعالى: أنَّه ما مِنْ مَوْضِعٍ في السَّماواتِ السَّبْعِ، إلَّا وهوَ مَشغولٌ بالملائِكَةِ، يَتعبَّدونَ لربِّهِم؛ تَعظيمًا لجلالِه، وأداءً لبعضِ حقِّه، وانقيادًا لأمرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

- لا تَصِحُّ الشَّفاعةُ عندَ اللهِ تعالى إلَّا بشَرْطَيْنِ: إذنِ اللهِ تعالى للشَّافِعِ أنْ يَشفعَ، ورِضا اللهِ عنِ المَشفوعِ له أنْ يشفَعَ فيهِ، واللهُ تعالى لا يَرضَى أنْ يُشفَعَ إلَّا في أهلِ التَّوحيدِ.

- ميزانُ الأعمالِ ميزانٌ حقيقيٌّ محسوسٌ، لهُ لِسانٌ، وكِفَّتانِ، توزَن فيهِ أعمالُ العِبادِ،

ويَكونُ بعدَ انقِضاءِ الحسابِ يومَ القيامةِ، فتارةً توزَنُ الأعمالُ، وتارةً توزَنُ صحائفُ الأعمالِ، وتارةً يوزَنُ العامِلُ نفسُهُ، وقد يوزَنُ كلُّ ذلكَ.

- الصِّراطُ جِسرٌ ممدودٌ على مَتْنِ جَهَنَّمَ، يَمُرُّ النَّاسُ فَوقَه على قَدْرِ إيمانِهِمْ.
- مِنْ كمالِ عَدْلِ اللهِ: أنَّه يضَعُ كرسيَّه لفَصْلِ القضاء بَيْنَ خَلْقِه، فيَحْكُم بَيْنَهم بالعَدْلِ.
- الحسابُ يَومَ القيامَةِ يكونُ بمُقابَلَةِ الحَسَناتِ، والسيِّئاتِ، فمَن زادَتْ حسناتُه -ولو بواحِدةٍ- فقدْ أفلَحَ ونَجا، ومَنْ كانَتْ سيِّئاتُه أكثرَ مِنْ حسناتِهِ -ولَوْ بواحِدةٍ- دخَلَ النارَ، ومَن استوَتْ حسناتُه، وسيِّئاتُه، كانَ مِنْ أصحابِ الأعْرافِ.



